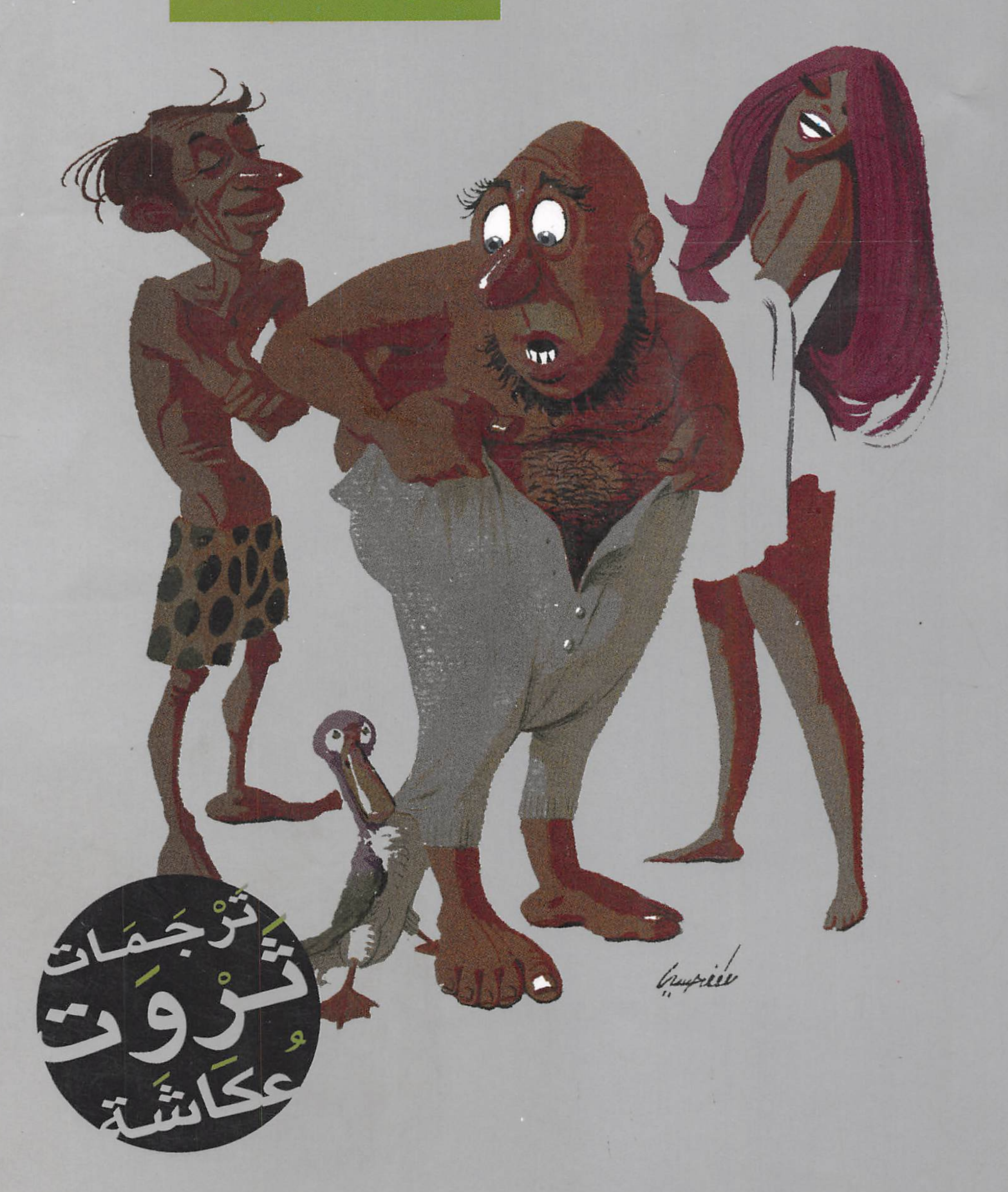
سروال القس

ثورن سميث



ثروت عكاشة هو أحد المثقفين المصريين النادرين بتكوينه الفكرى والإنسانى، فهو الكاتب المبدع الموسوعىّ الثقافة والفكر، والعالم المتذوق للفنون جميعها، والمؤرخ والناقد لها.

آمن بالتغيير والتجديد، وسعى إليهما بنظرة مستقبلية متفائلة، عاملاً على إرساء الدعائم الأساسية لنهضة مصر الثقافية الحديثة، كان رجل الثورة المستنير وصاحب المشروع الحداثى.

وهو صاحب المآثر الخالدة فى الذاكرة الإنسانية المتجسدة فى مشروعه لإنقاذ آثار النوبة ومعبدى أبوسمبل وفيلة.

وهو إلى ذلك المفكر والفنان الذى لم تشغله المهام والأنشطة الرسمية الكثيرة عن الإبداع فى مجالات الأدب والفلسفة والفنون.



سـروال الـقـس

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

ترجمات ثروت عكاشة

- العدد : ١٣٠١
- سروال القس
- ثورن سميث
- ثروت عكاشة
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة رواية :

The Bishop's Jaegers

by : Thorne Smith

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo.
e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

سـروال القَسِّ

تأليف : ثـورن سميث
ترجمة : ثروت عكاشة



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سميث ، ثورن

سروال القس/تأليف : ثورن سميث ؛ ترجمة : ثروت عكاشة ؛

ط١ ، القاهرة : المركز القومي للترجمة ، ٢٠٠٨

٣١٦ ص ؛ ٢٤ سم

١ - القصص الإنجليزية

(أ) عكاشة ، ثروت (مترجم)

(ب) العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ٢٠٠٨/٢٢٨٦٩

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 437 - 970 - 5

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز .

المحتويات



حديث السراويل

- ١ -

أخذ القس يُحملق فى سرواله قبل أن يدسَّ فيه ساقيه العَجْفاويْن الطَّاهرتين مُعْجَبًا به فى غير مغالاة. ولم يكن من عادة القس أن يداعب سرواله، بل على العكس كان لا يُولى سرواله - حتى ولا سروال غيره - أقلَّ قدرٍ من اهتمامه إلا فيما ندر ، لاعتقاده أن من المُسلَّم به أن يكون لكل إنسان سروالُ ما ، ولاعتباره أن استعمال السِّروال أمر لا يحتاج إلى أيَّة مناقشة .

وما من شك أن سروال القس «وُلَرْ» كان خط دفاعه الأول لمقاومة نزعات الشيطان، ذلك السروال الطويل البَشع الذى كان القَس يؤدِّى فيه رسالته أثناء كفاحه طويل الأمد .

ومع أن سروال القس كانت تعوزه الجاذبيَّة، إلا أنه على أية حال تعبير صادق عن مبلغ وَرع القَسِّ وتُقاه، ومع أنه كان غير مألوف الشكل. فلا ينبغى أن نَنْسَى أنه كان أصْلاً من أصول تلك الطقوس الكهنوتية الغامضة .

وكان صاحبُنا «وُلَرْ» رجلاً مُنْصفًا قبل كل شىء ، وما كان يخطر بباله قَطُّ أن أحداً من إخوانه فى الله يجرؤ على أن يقف بين يديْه أو أن يبتهل إلى الله وهو مطمئن رابط الجأش إلا إذا كان الجزء الأكبر من جسَده مَسْتُورًا بسروالٍ ما .

أما نظرة القس إلى النساء فكانت أكثر اعتدالا ، فالمرأة على ما يعتقد شىء مختلف تمام الاختلاف عن الرجل ؛ إذ من العسير محاولة القَطْع برأى فيما إذا كان النصف العلوى أم النصف السفلى من جسدها أحقَّ بالسَّتر أولا ، أو أحق بالسَّتر أكثر

من النصف الآخر : فكلا النِّصفيْن خطير ، ولا تَمَلُّ الأبْصار أن تتطلَّع إلى أحدهما ، بل إن كِلا النصفين قد جعَل نظرة الرجل الجدِّية إلى الحياة الأخرى أمرًا يكاد يكون مستحيلاً ، وكثيرًا ما آلمه وحَشدَ نفسَه أسًى أن يكتشفَ أن الرجال كانوا على أُهبة الاستعداد للتضحية بمباهج الحياة الآخِرَة فى سبيل تلك الملاذ اليقينيَّة قريبة المنَال، وذلك حين تقع أبصارهم على النساء الضَّالاَّت اللائى لم يهتدين بعد، ولذلك كان من رأى القس أن تحجبَ المرأةُ جَسَــدَها كلَّه ، وفى جميع الأوقــات، ففى ذلك حِكْمة ... بل فضيلة كبرى .

وكان ثمة حافز خاص دعا القس هذا الصباح إلى الإغراق فى التطلُّع إلى سرواله، ولا غَرْوَ فهو سروال جديد فاخر، انتقاه ليلائم جسدَه الفارع، فإذا ما ارتدى المرءُ مثل هذا السروال وأحْكَمه فى موضعه أمِنَ شر العيْن المُتطلِّعة .

وإذا أسْعدك الحظ أن تشاهد القس وُلر وهو ينشرُ سرواله بين يديْه بعد أن تتناسَى مؤقتًا منظره المُثير ، رأيتَ لوْحةً صادقة لرجلٍ سعيد غارقٍ فى تأمُّلاته البريئة. والواقع أنه كان مغتبطًا كل الاغتباط بما يَحْمله سرواله من عفاف ، إذ كان سروالاً مثاليا فى نظر قسِّيسنا ، لا سيما أنه كان نَسِيجَ وَحْدِهِ لا يشابِهُه سروال آخر. وهو على هَوانه لايدل على ماينطوى عليه، إذ لم يَزِدْ عن كوْنه سروالاً بسيطًا ، ولكنه سروال بحق، أعنى سروالاً طويلاً . فإذا قُدِّرَ لرجل ما أن يكمن داخله ، ضَمِنَ إحجام أية امرأة ، مَهْمَا بلغتْ من الفجور أو التفاؤل عن إغرائه بالخروج من مخبئه هذا المنفِّر. ولا عَجَب، فإن منظرَه الفَظَّ لا يُغرى بلون من ألوان التهتُّك أو الخلاعة ، فقد كان له تأثير مُسيطر على الذِّهن، فليس من المعقول إطلاقًا أن يحاول لابس مثل ذلك السروال - الذى يمثل حصنًا للفضيلة فى خِضم الفساد المرذول - أقول إنه ليس من المعقول لمرتدى مثل ذلك السروال أن يحاول مغازلة الفتيات العابثات ومطاردتهن، فإن مجرد رؤية هذا السروال قد تدفع حتى وحوش الغابة إلى الفرار سريعًا صوب معاقلها !

كان «لچوزفين دوڤال» سراويل تختلف كل الاختلاف عن تلك التى يَقْتَنيها القس ... وإذا لَزِمْنا جانب الدِّقة ، وَجَبَ علينا أن نعترفَ أنها لم تكن سراويل على الإطلاق، بل لم تكن فى الحقيقة سوى فكرة تُوحى بها أو ترمز إليها ، فإذا ما وازنَّا بينها وبين سروال القس الجديد البديع - برغم ما فى الموازنة من انتهاك لهيْبة القس وامتهان لَقدْره - وجدنا أن سراويل چوزفين لم تكن شيئًا على الإطلاق، إذ لم تكن غير محاولة فاشلة - لسوء الحظ - فى حَجْب ما يلزم حَجْبه ! وما من شك فى أن قَدْرَ الاختلاف بين سروال «چو» وسروال القس يساوى تمامًا مجموعة الاختلافات الموجودة فى هذا العالم أجْمَع ، فالفرق شاسع جدا ، سواء من ناحية الهدف المقصود من ارتداء كلٍّ منهما السروال، أو من ناحية المطامع المْرجُوة من اقتناء كل منهما إيَّاه ، بل حتى من الناحية الفلسفية لكل منهما فى الحياة ، فالهُوَّة بينهما سحيقة لا يمكن اجتيازها إلا فى ظروف شاذَّة ليس المجال هنا وسيعًا لمعالجتها .

ولو نظرتَ إلى سروال «چو» نظرة منطقية - وهذا أمرٌ من الصعوبة بمكان - وبخاصَّة عندما يكون السروال مشغولاً ، إذ لا يمكن لغير «چو» أن يشغَل سروالها - لعجزتَ عن الاهتداء إلى سبب معقول يُبرِّر صُنع مثل هذا النَّوع . فإذا قُلنا إنه النقيض التام لنطاق العفَّة(*) الذى ذاع استخدامه خلال العصور الوسطى لَعُدَّ هذا تلطُّفًا فى القول . ولا نقصد من هذا الوصف الموجز لسروال «چو» ، الذى هو أشدُّ إيجازًا مما نَصِف، الدعوة إلى تعميم استخدام ذلك النطاق من جديد، كلا ، فإن عالم اليوم لمملوءُ بمختلف أنواع النطاقات ذات الأقفال !

ولقد ثبَت لنا أن نطاقَ العفَّة هذا ما كان يومًا ما عقبةً فى سبيل مَن يُهمُّهم الأمر من المُحبِّين المشغوفين بالجمال والمتعة، إذ كثيرًا ما كانوا يفتحون أقفالَه بأساليب

(*) نطاق العفَّة هو لباس شَبَكى من المعدن كانت النساء يلبسنه فى العصور الوسطى لبعث الطمأنينة فى قلوب أزواجهن عند غيبتهم فى الحرب أو السفر.

يسخرْ بها الحب من صانعي تلك الأقفال ، كما ثبت أيضًا لأولئك المعنيين بدراسة هذا الموضوع أن ذيوع نطاق العفَّة كان هو السبب الحق لظهور طبقة من الشُّبان الحاذقين كان فى رشاقة أناملهم وخفَّة أيديهم ما قَضَّ مضاجع الأزواج الغائبين، فقد عرفوا على مدى الأيام وكثرة ما وقع أن عبثَ هولاء الشُّبان لم يقتصرْ على نسائهم فحسب ، بل جاوَز ذلك إلى خزائن أموالهم .

أما وقتُ ظهور تلك الطَّبقة من الشُّبان المُولعين بتحطيم الأقفال فى المَخادع فكان إبان الحروب والحملات الصليبيَّة التى كان يغيب خلالها الأزواج. ولقد ازداد نشاط هؤلاء الظرفاء حتى إن صانعى الأقفال كانوا يُعانون كذلك من سماع رنَّات ضحكات زوجاتهم اللاتى كُنَّ يَهْزأن بهذه الأقفال .

إن العصر الذى كانت المرأة تُحَكِّم فيه عقلها عند اختيار ثيابها الداخلية قد ولى غير مأسوف عليه ، وأصبحت النساء يُحَكِّمن هواهن عند انتقاء ملابسهن ، فاستبدَّت بهن طبيعتهن الغاوية المُغرية اللَّعُوب. وبلغ انحطاط مشاعر الرجال حدا جعلهم يُذْعنون لهذا المنطق ويُقرُّونه، ولم يقفْ الأمر عند هذا الحد فحسب، بل تعدَّاه حتى صارت الأسماء التى تُطْلَق على السراويل النسائية جالبةً للخجل وكأنها تُوحى بأخبث الأفعال. وبينما حافظ الجنس الخشن منذ قديم الأزل على إطلاق كلمة «سروال» على هذا الصنف من الثياب – وأعنى «بالسروال» هنا ذلك السروال البسيط غير المزركش – فإننا نجد النساء يَبْزُزْنَهُمْ فيدْعُونه بأسماء طائشة فاحشة لا حصر لها ، وبرغم أن تلك الأنواع تُغرى المرءَ بارتكاب شتَّى الحَماقات ، إلاَّ أنها فى الحقيقة خلاَّبة رائعة .

وعلى هذا النحو كان سروال «چو مغريًا» فاتنًا !

وفى صبيحة ذلك اليوم الذى كان القس «وِلَر» ينشُر فيه سرواله الجديد الفاخر بين يديْه ، كانت الآنسة «چوزفين دوڤال» بِجَسدها البضِّ الفَتَّان تتقلَّب فوق فراشها، ثم جلستْ فى وَضْع مُغْرٍ مثير ، وأخذت تتثاءب بآهات رقيقة ذات جَرْسٍ جميل تسرَّبت من بين شفتيْها القُرمزيَّتيْن الثائرتين اللتّين يتمنَّاهما ويشتهيهما كل عاشق مفتون، ثم عاودت التمدُّد من جديد ، وما من شك فى أن للَفْتتها تلك تأثيراً غَلاَّبًا يُثير فى خيال مَن يراها إحساسًا بأن الأرض قد كَفَّتْ عن الدَّوَران .

راحت «چو» تتحسَّس مَوْضِع خُفِّها بقدميها الدقيقتيْن ، على حين كانت يدُها البضَّة تبحث عن سروالها(*)، وتهدَّل شعرُها الأحمر القانى إلى الأمام وهى تنحنى لانتعاله ، ثم أتاحتْ لعينيها العسليتين التطلُّع إلى سروالها ، ذلك السروال الذى لم تكن راضية عنه كل الرِّضا لأنه لا يشفى غُلَّة طُمُوحِها .

والواقع أن هذا السروال لم يكن من وَحْى اختيارها ، ومع ذلك فكثير من الفتيات كُنَّ يَتَحَرَّقْنَ شوقًا إلى اقتناء زَوْج من هذا الصِّنف. موجز القول إنه كان سروالا جميلا من ذلك النوع الذى ترتديه عادةً فتيات الطبقة الوسطى من العاملات ، ليس فيه الكثير من الإغراء ، وإن كانت لا تُعْوِزُه الجاذبيةُ اللازمة لكى يؤدى الغرض منه بسهولة . ولكن «چو» كانت تبتغى شراء نوع أبدع ، يَحْفِزُها إلى ذلك طَبْعها الفرنسى الوَلُوع بكل أنيق جديد ، وتَرْدَعُها عنه حاسَّتها الاقتصادية الفرنسية أيضًا ، والتى كانت تُقنعها بأن هذا الصنف أكثر ما يكون ملاءمة بسكرتيرة مُجِدَّة تقضى جُلَّ وقتها جالسة .

وأخذت تُتَمتم قائلة : «لو لم يكن عملى هكذا مُضنيًا لأمكننى شراء سروال من ذلك النوع المُثير الذى يصرعُ مشاهديه بضربة قاضية» !

ثم شرعَتْ تخلعُ قميصها بحركات فاتنة رَخِيَّة ، أقترحُ أن يصدر الكونجرس قانونًا يُحرِّم أمثالها ، وبحركة خاطفة جمعتْ بين سرعة رجال المطافئ ورشاقة البهلوان ارتدتْ سروالها، وتطلَّعت إلى قوامها البديع فى المرآة مُوجِّهةً اهتمامها كلَّه نحو نصفها الأدْنى ، وقالت وهى تُناجى نفسها : «الواقع أنه سروال جميل يناسب الخدمة النهارية الطويلة التى أضْطلعُ بها. ولكنه لا يوائم الظروف الأخرى .. إذا سنَحَتْ .. !».

تُرى أى ظروف تقصدُها چو ؟

فقد كانت لچو آراء خاصة فى كل أمر من الأمور ، ولم تكن هذه الآراء فى الحق مهذَّبة على الإطلاق، بل كانت آراء مكشوفة لا تنقصُها الصَّراحة .

(*) خَلْع السراويل قبل النوم ليلاً من العادات الغربية المألوفة .

وبينما هى تستكملُ ارتداء ثيابها، أخذتْ تقولُ محدِّثةً نفسها : «اليوم موعد صَرْف المُرتَّبات . وياله من مبلغ زهيد تافه ذلك الذى أتقاضاه ويدعُونه مُرتَّبًا ، فهو لايكاد يكفى لشراء شيء . إنى لأقسم أن أبتاع به كله ثيابًا داخليَّة . فإذا كان العُرف يقضى على الفتاة بأن تكون فاضلة، فليس معنى ذلك أنها تؤمن بذلك العُرف ، أو أنها تتشبَّث بهذا الشَّرف المزعوم. فإن أشدَّ ما يُسعدنى ويُسعد النساء عامةً هو أن تبدو أجسادنا فاتنة وجمالنا خلاَّبًا على الدوام، فإن حياةَ المرأة فى إغرائها وفِتْنتها ، وكذلك كانت أمُّنا حواء » .

وانتقل مسرح تفكيرها نحو مديرها السيد «بيتر دوان ڤان دايك» الذى تشاء الظروف أن يكون مشغولاً هو الآخر فى الوقت نفسه بسرواله شأنَ الألوف من سكَّان نيويورك ، سواء كانوا من الطبقة الراقية أم الدنيا . وكان بيتر رئيسًا لجوزفين، أعنى أنه مدير الشركة التى تعمل بها ، وكانت جو تقوم بكتابة رسائله واختزال أوامره، أى أنها سكرتيرته، وإن كان فى إمكانه بمجهود يسير أن يحصل منها على ما هو أبهج من ذلك. وكان بيتر مُعْجبًا بكفاءة سكرتيرته الحسناء أيما إعجاب ، وإن كان يتحاشى نظراتها المُقتحمة الوقحة التى تنمُّ عن أفكار آثمة على الدوام. وفى الحق أن نظراتها لم تكن تتَّفق وتجارة البُن التى كان يُزاولُها بيتر طبقًا للنهج الذى رسمه له أسلافه .

وفى عودتنا إلى صاحبتنا جو ، نراها وقد سَحَبتْ جَوْربَها إلى ما فوق رُكْبتها فبدَتْ ساقُها بيضاء ممتلئة، وتمتمتْ قائلة : «ألم تَرَ عيناه اللتان فى رأسه هاتين الساقين الرشيقتيْن الخلابتيْن ؟ لأُرغمنَّه على التطلُّع والتحديق ...» .

ومن ثم تراجع بِخفَّة ثدياها الناهدان داخل مشدِّهما الرقيق الفاضح .

- ٣ -

لم يكن «بيتر ڤان دايك» يُلقى بالا إلى سراويله ، بل لم يحدث قَطُّ أن نالتْ يومًا قسطًا من تفكيره ، فأمْرُها جُزءٌ من دأب المعيشة اليوميَّة الرَّتيبة ، يخلعُها فى المساء ليُعيدَ ارتداءها كل صباح. ولم يكن من عادته أن يُغيِّر سرواله يومًا بعد يوم كما يفعل

أى رجل متأدِّب فى مثل مكانته، بل كان يُغيرِّه كلما خطَرتْ الفكرة بذهنه، وكان من عادته أيضًا أن يطرحَ سرواله فى غير موْضعه ، ثم ينسى ذلك الموضع الأخير .

وفى ذلك الصباح، كان پيتر مشغولاً بالبحث عن سرواله الذى كان قد أغْفَله داخل بنطلونه قبل أن يأوى إلى فراشه فى الليلة السابقة، ولم تكن عادة نسيان مكان السراويل مُتأصِّلة فى أسرة ڤان دايك العريقة ، غير أن پيتر اكتسب تلك العادة لميْله الشديد إلى الاقتصاد فى وقته وحركاته وعدم إشغال نفسه بتوافه الأمور .

وَيئِس پيتر من العثور على سرواله حتى بلغ به الحنق مبلغًا عظيمًا جعله يرتدى سروالاً آخر ، ثم دَسَّ ساقيْه سريعًا داخل بنطلونه . ولم يفطن پيتر إلى حَشْر سرواله المفقود داخل البنطلون ، بل ظن أن سببَ هذا التكَوُّر الذى على جانب فخذه الأيمن هو انكماش ذيْل القميص ، وكان يأمل أن يتناسق القميص من تلقاء ذاته، وإلاَّ فسيُصْلحه فى فرصة أخرى. ولو كان أصْلَحه فى الحال لوَفَّر على نفسه متاعب جَمَّة كان فى غِنًى عنها، وقام إلى المرآة يُمَشِّطُ شَعره الذَّهبى أمامها ، مُدقِّقًا النظر فى عينيه الزرقاوين الغامضتين، وإذ وجد منظرهما كئيبًا اشمأزَّت نفسه، ثم أزال رَغْوةً جافة من الصابون خلف أذنه وغادر غرفته والمنْشَفة لا تزال بين يديْه ، وعندما فطن إليها وهو فى ردْهة المنزل ، ألقاها فوق تمثالٍ لأفروديت وانطلق خارجًا بقامته المديدة مُرتديًا سروالَيْن ، دون أن يشغل ذهنه الخامل الكسُول .

وإذ كان پيتر لا يزال شابا فى الرابعة والثلاثين، فقد قرصه الجوع فى الطريق، ومالَتْ شهيَّته الفتيَّة إلى قدح من القهوة وإفطار دسم شهى .

– ٤ –

وبعد ساعة أو قرابة ساعة من ذلك الوقت الذى أتمت فيه الآنسة چو ارتداء سروالها . كانت الآنسة «يُولَنْدا پِتْس ولِمونت» على وشك ارتداء سروالها بالمثل، ولم تكن الآنسة يُولندا تُعْنَى بسروالها إلاَّ فيما نَدَرَ ؛ إذ كانت خادمتها الخاصة هى المنُوطة بالعناية بهذه السراويل، وإذا شئنا أن نُقرِّر الحقيقة، فحَرِىٌّ بنا ألاَّ ندعو ذلك الشىء

الذى كانت تعنى به الخادم سروالا قط . ولا غرابة فهو نسيج وَحْده، ذو طبيعة شفَّافة هفَّافة ومَسْحة رقيقة ملساء كأنما غَزَلَتْ خيوطَه الواهيةَ أصابعُ الشيطان، وقد وُشِّىَ بأفخر أنواع المُخرَّمات «الدانتلا» .

وكانت يولندا تَعُدُّ نفسَها سيدة ذات مُثُل إنسانية سامية وأخلاق فاضلة، وتُنكر على بنات جِنْسها كلهن الانغماس فى المُلاطفات الجنسية، وإن لم تر بأسًا فى السَّماح لنفسها ولبعض خاصة صديقاتها بالخروج على ذلك المبدأ أحيانًا . وبحُكم مولدها العريق، كانت تعتقد أنها رائدة الذَّوْق الرفيع وحاملة لواء الفن العالى ، وأنها الوحيدة التى يحقُ لها دون بنات جِنْسها أن تُطلقَ على ساقيْها البديعتين لقب ساقيْن!

وبينما كانت تتأمل محاسنها فى المرآة هذا الصباح نفسه، مضَتْ تُفكِّر فى أن امتلاك مثل هذه السراويل التى ترتديها يُعَدُّ نعمة كبرى لا مثيل لها، فقليلٌ من بنات جِنْسها مَنْ يستطعن الحصول على مثلها . أما المرأة متوسطة الحال فلا يمكنها بأيَّة حال اقتناء واحد منها لفداحة ثمنه ، وإذا فُرض وحازَتْ إحدى فتيات الطبقة الدُنيا نظيره ، فهى فى غالب الأمر لن تحتفظ به لنفسها فقط ، بل إن غريزة حب الظهور الرَّخيصة المتأصِّلة فى الإناث ستدفعها بلا شك إلى الإعلان عمًّا تمتلك بشتَّى الطُرق .

ولذا كانت الآنسة «يولندا پِتْس ولْمونت» ترى أن مثل هذه الحرية المسموح بها للفتاة العصرية يجب أن تقتصر على فتيات العائلات الراقية دون غيرهن ، هؤلاء اللواتى يعرفن كيف يُفرِّطْنَ فى أنفسهن دون أن يُصْبِحْن مشاعًا .

وبعد أن أدَّت الخادمة كل حاجيات سيِّدتها ومطالبها ، ولم يبق إلاَّ أن تنوب عنها فى تفكيرها وتنفُّسها ، سمحتْ لها يولندا بمعاونتها على ارتداء قميصها الخلاَّب الذى يكشف عن مفاتن جَسَدها إلى حد فاضح مَعيب ، ولكنه ، والحق يقال، كان جميلاً فوق جسد «يولندا» ، ولا غَرْوَ «فيولندا» ليست كغيرها من النساء ، فهى مختلفة عنهن تمام الاختلاف ، كما أن الطريقة السَّخية التى تَعْرِض بها بعض أجزاء جَسَدها قد تجعل العْينَ غير المتأدِّبة تدرك أن قَسَمات جسمها تطابق الكمال الذى تحلم به كل امرأة .

فيولندا غادةٌ حسناء ، فارعةُ القوام ، بديعة التكوين ، ذات عينيْن زرقاوين ، وشعر ذهبى منساب أملس، وشفتيْن قرمزيَّتيْن زاهيتيْن، وقد امتزج فى لون بَشرتها الفاتن حُمرة الورد وبياض اللبن .

– ٥ –

فى ركن آخر من أركان المدينة، نهضت «أسپيرين ليز» من فراشها، وزَحَفْت فوقه بجسدها البدين الذى يكاد يبلغ وزنه ضعف وزن يولندا ، وتناولتْ سروالها الذى يبدو وكأنه مصنوع من قماش الخيام ، ومن ثم وارَتْ فيه جسدَها المُترهِّل وبينما كانت تجهِّز قدحًا من القهوة ، أخذتْ تبتلع بضع أقراص من الأسپيرين الذى كانت به شديدة الولَع حتى اشتهرتْ باسمه . ثم ارتدت قميصًا وثوبًا مُزَرْكَشًا وتهاوَتْ فى مقعدها متخاذلة ؛ فلم تكن قدماها تقدران على حَمْل جسدها الثقيل . ولم تكد

تعتدل فى مقعدها حتى أحسَّت بخرق واسع فى سرْوالها . والواقع أن سروالَها كان باليًا حقا يحتشدُ بالكثير من الخرُوق ، ولكن الوقت لم يَحِنْ بعد ، بل لم يكن ملائمًا لظهور مثل هذا الخَرق الكبير، ولاسيما أنه ليس بالخَرق الأول .

ولما اكتشفتْ عدم صلاحية السروال للاستعمال ، امتلأ قلبها حقدًا وكراهية تجاه العُمال المسئولين عن إنتاج هذا الصنف الهيِّن ، وأولئك الأقذار الذين أشارُوا عليها بشرائه ، ثم زمْجرت بصوتها الأجَشِّ قائلة «تبا له من سروال . لِمَ لا يْنسِجُون هذه السِّلع من نسيج قوى متين ؟ ». ويبدو أنها فى ثورتها قد أُنْسِيَتْ أن جسدها الثقيل كفيلٌ بتمزيق أمتن الأقمشة نسْجًا ، ثم استطردت قائلة : «أُف لهذا السروال ، لا أكاد أسُدُ خَرْقًا حتى يظهر آخر . لكأنه السد الهولندى العظيم!»(*) .

(*) جدران سميكة ضخمة قائمة على ساحل هولندا لمنع اندفاع مياه البحر إلى اليابسة نظرًا لانخفاض مستوى الأخيرة.

ولقد كانت أسبيرين ليز خبيرة بالرجال ، تؤمن بأنهم جنسٌ لعين ، لا تجنى المرأة من ورائهم إلا السُّكر والعربدة ، وكلما تفانَتْ المرأة فى خدمة الرجل تفنَّن هو فى تسخيرها لقضاء مآربه ، ولو أن الله خلق الرجال بلا عقول كالحيوان ، لكانت المرأة الآن أسعدَ حالا . ولكن للأسف فللرجال عقول حقيرة سافلة لاتنى عن التَّدخُّل فى حياة المرأة لإفسادها . وكانت السيدة ليز ترى أيضًا أن النساء يقدرن على التفاهم مع أجساد الرجال فحسب ، أما عقولهم فأمرها غامض عسير ، يكاد يصعُبَ على الشيطان نفسه التعامل معها .

ومن باب الإنصاف ينبغى أن نذكر أن أسبيرين كانت تعمل فى سالف زمانها نموذجًا للفنانين ، وقديمًا كانت سُوقُها رائجة ، أما الآن ...

ولم تكن فى الواقع قادرة على نسيان قوامها البديع الذى تشهدُ عليه تلك اللوحات الفنية الرائعة المعروضة بمتاحف الفن المختلفة فى نيويورك ، والتى كانت تحْظَى بزيارتها بين حين وآخر ، لعل الذكرى أن تكون سلوى لها وعزاءً عن الماضى المُدْبِر الذى لن يعود .

وبعد أن فرغتْ من تأملاتها ، تمتمتْ قائلة وهى مسترسلة فى ذكرياتها : «أظن أنه من الأوفق لى أن أبحث عن إبرة وخيْط لأرتق هذا السروال » .

- ٦ -

كان «آرثر» القزم أحد نشَّالى نيويورك المرموقين - واقفًا بحجرته هذا الصباح حائرًا وسط كومة من الملابس المُهَلْهلة المُبعثرة ، وإن كانت حَيْرته من نوع آخر غير حيرة بيتر ڤان دايك . فهو لم يكن بحاجة إلى البحث والتنقيب عن سرواله، لأنه كان يرتديه بالفعل ؛ إذ هو معتاد أن ينام فيه دون أن يخلعه عن جسده . والعجيب أنك تجد أن المجرمين أكثر تأدبًا واحتشامًا وأشد مراعاة للتقاليد البسيطة من أولئك الذين لا يزالون يحتمُون بالقانون ، فكان آرثر القزم مثلا يُفضِّل مائة مرة أن يواجه القبض عليه

والسجن المؤبَّد عن أن يكشف جزءًا من جسده . ومع أن آرثر كان معتاداًالنوم بسرواله ، فإنه كان دائم التفكير فى شأنه ، فتجدُه هذا الصباح يقطعُ غرفته جيئةً وذهابًا مفكرًا فى جدوى سرواله الرَّث الوحيد ، فقد كان آرثر يعتقد أن هذا السروال لا يؤدى رسالته على الوجه الأكمل . وأن هذا الشىء الذى يرتديه ما كان ليؤدى رسالته على أى مخلوق آخر سواه . فهو لم يكن إلاَّ حلَّة كاملة ، من الأوْفق أن يُطلقَ عليها اسم «المبذلة أو العَفْريتة» ، إذ كان يُخفى جميع معالم جسم آرثر القصير من أعلى ترقوته حتى أسفل عرقوبه . وإذا فرض أن أحدَ سُكان المريخ نزل بنا زائرًا ، لكان من الصعب عليه أن يُصدِّق أن الجَسد القابع فى هذا السروال آدمى كامل .

ولوضْع الحق فى نِصابه ، ينبغى أن نقرِّر أن الجزء الذى يَعْرِضُه آرثر القزم للرؤية بعد حُجْزَة سرواله كان لا يستهوى النفس مطلقًا ، إذ كانت تعلُو وجهه عينان زرقاوان خبيثتان تبدو فيهما مخايل اليقظة والسرعة . وحينما كان آرثر يذهب إلى دار السينما – وهو أمر نادر الحدوث – كنت ترى هاتيْن العينيْن الزرقــاويْن تذرفان الدمع سخينًا فى المواقف الحزينة ، كما تُبرقان بالسعادة حينما تنتصرُ الفضيلة وتثبتُ أن الجريمة لا تُثْمر .

نقول إن ذهن آرثر القصير فى تلك اللحظة كان مشغولا بالبحث فى موضوع سرواله، فهو لم يَعُدْ راضيًا عنه ، ويرى أنه يَلْزَمُهُ سروال جديد دون جدال، ومن ثم شرعَ يُدبِّر كيفية الحصول عليه . وسرعان ما خطر له ذلك السؤال العجيب : «أيُعْجِزُنى نَشْل سروال أحد المارَّة من بين ساقيْه؟ أأَعجز عن نشل سروال تافه وأنا أسلب أضخم حوافظ النقود وأثقلها . إن ذلك لعجيب حقا ! ».

وإذ أيقَن أن من الحِكمة أن يكتفى المرء بمهنة واحدة يُجيدها ويُتقن أصولَها ولايسمح لنفسه بالتقلب بين حرفة وأخرى ، ضَرَعَ إلى الله أن يُهَوِّن له أمرَه فى ذلك اليوم، ويوفِّقه إلى صيْدٍ أو عميلٍ ثرى ليتسنَّى له الوفاء بواجبه نحو ساقيْه. يعنى شراء سروال جديد .

وبينا كانت هذه الأفكار تتصارعُ فى مُخَيِّلته وهذا الأمل يُداعبُ فؤاده، التقط صحيفة المساء وألْقى نظرة لها دلالتها على مجريات الحوادث اليومية .

مــأزق حَــرِج

تميُّز «بُنّ» ڤان دايك عمَّا تعرضُه متاجر البُن الأخرى بأنه كان السبب الرئيسى فى حَمْلِ الأجيال المتعاقبة من سكان مدينة نيويورك على السَّهر. وفى الأيام الأولى لإنشاء الشركة ، حاول آل ڤان دايك أن يُعمِّموا شُرب القهوة بين بعض قبائل الهنود الحمر المُسالمة، ولكن سرعان ما اكتشف ڤان دايك الماكر أن هذه السُّلالة الأمريكية الأصيلة كغيرها من الأمريكيين المُحْدَثين تُفضِّل احتساء الخمر. فبدأ على الفور يبيع تلك الزجاجات مُربعة الشَّكل، ومن ثم أخذَتْ ثروته فى التَّضَخُّم . ولحُسن الحظ أن الأجيال الحديثة لآل ڤان دايك قد ألِفَتْ النَّظر إلى هذه المرحلة من تاريخ الأسرة التجارى بعيْن غامضة؛ فبِغَضِّ النَّظر عن مركز آل ڤان دايك الوقُور حتى قبل نزوحهم إلى الدنيا الجديدة ، لم يخطر ببال واحد من هذه السُّلالة أن مكانتهم الرفيعة الحالية قد قامت على المكاسب الطائلة التى كانت تعود عليهم إذا طفح الهنود الحُمْر بنشوة خَمْرِهم .

وكانت معلومات «بيتر ڤان دايك» عن البُنِّ غايةً فى التواضع بالنسبة لأى فرد آخر من أسلافه، وإن كانت معلوماته تعلُو قليلا إذا ما انتقلنا لموضوع «الچن»، إذ تكاد كلُّها تنحصرُ فى جودة مذاق قهوة هذا الصباح عن قهوة سابقه . أما صباح اليوم بالذات فقد قرر أن طعمها كان سيئًا .

كان بيتر مشمئزا من نفسه ، فلم يستسغ مذاق القهوة، ولم يرتح إلى شكل عينيه، ولم يكن هناك مايدعو إلى ذلك، فها هى ذى الزهور قد بدأت تتفتَّح ، وحالة العمل لا بأس بها إذا ما قُورنت بحالة مُنافسيه، ثم إن صحف الصباح قد أسعدته بخبر وفاة أحد كبار منافسيه فجأة . ومع ذلك فلم يُغيِّر ذلك النبأ ما بنفسه من ضيق ، كما لم يقلِّل من امتعاضه .

وفجأة طرأتْ على عقله الباطن فكرة أخذتْ تراودُه بشدة . إن عمَّته صوفى - تلك السيِّدة العصرية التى تُشرف على شئون منزله - ستقيم مساء اليوم حفلة كوكتيل تعلنُ فيها خطوبته ليولندا ولْمونت ، تلك الآنسة الفاتنة ذات الثروة الضخمة والآراء السَّديدة. وفى هذه الحفلة ستتمخَّض تلك الأقاويل الشائعة عن حقيقة واقعة، إذ ستغدو يولندا خطيبته رسميا، ولن يتجوَّل بيتر بعد اليوم حُرا فى ميدان المغازلة .

وكما عجز خبرُ وفاة منافسه عن إنعاش فؤاده ، لم يؤثِّر هذا الحادث الجليل فى مشاعره ، بل لم يجلبْ السعادة إلى قلبه الحزين، ولم ينشرح له صدره المُنقبض .

لحق بيتر بقطار الصباح السريع واتَّخذ مكانه تجاه فتاة حسناء ذات قوام متناسق بديع ، وأخذ بعينيْه الزرقاويْن الحائرتيْن يفحصُ مفاتن جسمها وحُسْنه . ولأول مرة فى حياته القاحلة من الحب والغرام ، المُجدبة من النساء ، أخذ يُحسُّ برغبة قوية فى الرقاد بين أحضان تلك الفتاة وأن يبثَّها كل خلجات قلبه المفتون .

ولم تكن الفتاة وهى جالسة أمامه لِتَدْرى ما يدور فى خلَده ، ولا ما كان يعتمل فى نفسه من شهوات ، فلم تُلْقِ إليه بالا ، وانْشَغلت فى العبَث بمُضْغة كبيرة من اللاَّدن بين فكَّيْها . ولما أحس بيتر عدم اكتراثها به ، نشر صحيفته وبدأ يُطالعها .

وما كاد بيتر يصل إلى مكتبه حتى بدأ السروال الآخر الذى كان يرتديه دون علْمه يُعلن عن وجوده ، فقد ضايقه بشدَّة ذلك التكوُّر حول فخذه ، ودُهش لذلك أشد الدهش ، فلم يكن يدرى حتى هذه اللحظة حقيقة المأزق بالضبط، ففَكَّ أزرار بنطلونه وأتاح له الهبوط بضع سنتمترات للتخلُّص مما يضايقه، متناسيًا أن مكتبه - ولو أنه خاص به ، إلاَّ أنه من المْيسُور دخوله واقتحامه .

وبهدوئها المعتاد ، دخلتْ سكرتيرته الخاصة چوزفين دوڤال بعد أن أوْصَدَتْ الباب وراءها كعادتها وعَرضَتْ عليه بريد الصباح ، ولم تكد تفعل حتى استلفتتْ نظراتها الفضولية ما بدا فى الجزء الأسفل لسروال السيد بيتر، ذلك الجزء البرتقالى اللـــون

الذى تُزيِّنه خطــوط ســوداء ، ولم تشـأ أن تتـركَ الموقف دون تعليق، فـقـالت ببـسـاطة وكأنها تخاطب نفسها لامديرها :

- سيِّدى . إن هذا المنظر يذكِّرنى بمظلاَّت «شاطئ الاستحمام» !!

فتقلَّص جسدُ بيتر بسرعة محاولا سَتْر ما ظهر من سرواله وصاح غاضباً :

- أليستْ لك ذَرَّة من عقل تدفعك إلى مغادرة المكتب فى الحال ؟

فأجابتْ فى هدوء : لى هذه الذرَّة ، ولكنى لا أملك القدرة على مغادرة الغرفة ، فقد سلَبَ منظرُك عقلى .

- بالله أرجو أن تخرجى سريعًا . ألاَ تتصورين ما عسَاه يحدث لو رآنا أحد على هذه الحال ؟

- من ناحيتى ، أنا لا أبالى بما عَسَاه يحدث، وأظن أنك أنت مَنْ يخشى التعليق على الموقف .

وخلال الحديث أحس بيتر شيئًا ينزلق رويداً رويداً داخل بنطلونه ، فتصبَّب وجهه عرقًا ، وعجب لوقوع مثل هذا الأمر المُخجل لرجل فى مثل مكانته وسِنِّه ، فتوسَّل إليها قائلا : ناشدتُك أن تتفضَّلى بالخروج ؟ ماذا يظن الناس بنا إذا ماشاهدونا على هذه الحال ؟

- لن يظنُّوا إذا رأوا بنطلونك هكذا إلاَّ أنك دَعَــوْتنى لأشــاهدك وأنت تداعب سروالك !

فصاح وقد ضاق بسلوكها أكثر من ضيقه بحديثها: أنت مفصولة . ولن تستطيع قوة فى الوجود أن تُزَحْزِحُنى عن قرارى ، فأنا أعنى ما أقول هذه المرة .

فأجابت جو ببرود : ألا تدرك أنى قادرة على أن أؤدى دورًا قذرًا ؟

فصاح وأصابعه تتحسَّس أزرار سرواله عبثًا :

- ماذا تعنين ؟

- تَصَوَّرْ ما يمكن أن يحدث لو صرخت الآن .

- يا إلهى !

- ما رأيك إذا بدأتُ فى الصِّراخ واندفعتُ خارجة . لا أظن أن أحداً من المحلَّفين يتردَّد عن إدانتك فى هذه الحالة .

- أقســم باللــه أنى لم ألتــق فى حياتى امرأةً مثلك. اسمعى ، إذا خرجت الآن وتركتنى أُتمم ما أنا بصَدده فلن أفْصِلُك .

- وكيف التَّصرف فى هذه الرسائل إذن ؟

- وهل أنا فى موقف يسمح لى بالاطلاع عليها حاليًا ؟

- لا بطبيعة الحال . ألا تدرى كم تبدو بشعًا ؟

- إذن فلا داعى لأن تُخبرينى بذلك ، واتركينى أتصوَّر منظرى بنفسى .

وهنا ألقتْ جوزفين بما فى يدها فوق المكتب والتفتتْ نحوه قائلة :

- قبل خروجى من هنا أرجو أن تفسِّرَ لى ما كان يدور بخَلدك وقت أن زَجَجْتَ بنفسك فى هذا المـأزق المُشين ؟

- لا أدرى ، ولا أرى سبباً يُسوِّغ لك التَّدَخُّل فى مثل هذه الشئُون الخاصة .

- الواقع أنه منظر لا تتمتَّع الفتيات بمُشاهدته كل يوم ، وخصوصاً إذا كان فى مكتب المدير ، وفى مثل هذه الساعة من النهار .

- أنا لا أفعل هذا كل يوم .

- لو كنت فى مكانك لما أتيت ذلك طبعًا ، خصوصًا وسيماء الشيخوخة باتتْ واضحة عليك. وبهذه المناسبة ، إذا كنت تبحث عن سروال مفقود فستجده مُستقرا فى السَّاق اليُمنى لبنطلونك ، أما كوْنك تستعمل سرواليْن فى وقت واحد فهذا مالا أفهمه ، فإن السروال الذى ترتديه يكفى منظره أن يورثَ الحُمَّى .

وما كادت تغلق الباب وراءها حتى انحنى بيتر ڤان دايك، والتقط سرواله الثانى وقذفه بسرعة فى اتجاه سلَّة المهملات حيث عَلِقَ بحافتِّها .

وبعد لحظة قصيرة دقَّت جو على باب مديرها ، ودخلتْ المكتب مباشرةً، فوجدته جالسًا إلى مكتبه يُحرِّرُ رسالة ، فقالت متعجِّبة : «ياله من تحسُّن ملموس . أظنُّك حَشَرْتَ كل شيء ! » .

وقبل أن يجد بيتر الكلمة المناسبة للرد عليها ، دخل وليام فَرَّاش المكتب منقِّبًا عما يمكن أن يُبْرِزَ فيه مواهبه ، فلما رأى السروال المدلَّىَ من حافة السَّلة رفعه إلى أعلى وصاح متعجِّبًا :

- يا له من سروال بديع حقا ! كم هو رائع! لا تؤاخذنى يامستر بيتر، هل يخصُّك هذا السروال ياسيدى ؟

آثَرَ بيتر تجاهل سؤال وليام ، فرأت جُو أن واجبها يحتم عليها أن تُكرِّر السؤال، فقالت بصوت منخفض وهى تجلس واضعة مسند الكتابة فوق فخذيْها :

- يريد وليام أن يعرف ما إذا كان هذا الـ ... الشيء الجميل المتورِّد يخصُّك ؟

فأجاب بيتر مُمْتعضًا : قولى له إنه لا يخُصُّنى .

- أظن أن رجُولتك تُحتِّم عليك أن تردَّ بنفسك على مثل هذه الأسئلة.. ومع ذلك فهو يقول إنه لا يخصُّه يا وليام .

فرد وليام بإصْرار : إذن أودُّ أن أعرف كيف وصل هذا السروال إلى هنا، فهذا النوع لا بد أن يكون خاصا بمستر بيتر !

والواقع أن بيتر كان على وشك أن يطرد وليام من خدمته لولا تلك السنوات الطوال التى قضاها الأخير فى تفريغ سلال المهملات منذ عهد والده الرَّاحل ، فآثر أن يقول : هل ثمة ما يُبرِّر تشكُّكك فى صِدق ما أقوله بخصوص هذا السروال؟ ربما وضعه شخصٌ ما هنا كإحدى العيِّنات .

فلَوَّحَ وليام بالسروال فى الهواء وصاح وهو يقهقه : مُحال . فليست عيِّناتنا من هذا الصنِّف ياسيدى، فنحن نتاجر فى البن .

– أليس لتاجر البن الحق فى ارتداء نوع فاخر من السراويل ؟

– لا . ليس تاجر البن مَنْ يلبس هذه السراويل . إن هذا السروال يناسب ابنى آلف تمام المناسبة . أظنُّه سيجنُّ فرَحًا إذا شاهد هذه الرسوم الحمراء الجميلة .

– إنه أنا الذى سيجنُّ إذا لم تُبعد هذا السروال فى الحال عن ناظرى .

فتدخَّلت چو قائلة : هذا رأى حكيم يا وليام . لم لا تمرُّ بالسروال على الموظفين كافةً لتسألهم عمًّا إذا كان أحدهم قد فَقَدَ سرواله ، فبهذه الطريقة وحدَها يمكننا الاهتداء إلى صاحبه .

فصاح بيتر قائلا بسرعة : لا داعى لذلك ، يمكنك أن تأخذ هذا السروال لآلف مع تحيَّاتى ، أو افْعل به ما يحلو لك ، طالما تُجنِّبنى سماع أى شىء عنه ، فقد سئمتُ المناقشة بخصوصه .

فقال وليام وهو يحتضن السروال أثناء خروجه : شكرًا يا سيدى ، إنه أبدع سروال وقع عليه بصرى حتى الآن . يالها من رسوم جميلة تلك التى تُزيِّنه !

وبعد خروجه حاول بيتر تغيير موضوع الحديث قائلاً : لقد تقدَّمت السن بوليام وسأحاول أن أدبر له أمر معاشه .

فردت چو دون أكتراث وهى تضع ساقًا فوق ساق ، ناظرة إلى مديرها نظرة ذات مغزى : ليس هذا من شأنى . لكن ، لم لا تدبِّر أمر معاشك أنت . فإنى لا أراك تصلح لتجارة البن ؟

– وعلام بَنيْت هذه الفكرة الـ .. البديعة ؟

– إن رجلا له مثل هذا الوَلَه بسراويله لن يستطيع حَصْر فكره فى عمله .

فقال ساخراً : هكذا !! أرى أنك على خبرة تامة بشئون الشركة منذ عهد طويل . دوِّنى هذه الرسالة من فضلك .

وعندئذٍ أطلقت چو ضحكة تهكُّمية قصيرة، فسألها مُتَشَكِكًا : ماذا يُضحكك الآن؟

فقالت : لقد طافتْ بذهنى فكرة عارضة أضحكتنى ، فبينما أنت هنا تُملى علىَّ رسالتك ، ربما يكون ليام الآن يطوف فى الوقت نفسه على موظفى الشركة عارضًا عليهم سروالك .

فردَّ عليها بمْداراة ظاهرة : ومع ذلك اكْتُبى . أتظنِّين أنى أهجر تجارة البن لأن عجوزًا غبيا يحاول أن يجعل من مسألة خاصة فضيحة علنية ؟

فأجابته بصوت يملؤه الإعجاب : يالك من رجل !

ومرة أخرى نظر إليها مُتشكِّكًا وقال : منذ كم من السنين وأنتِ تَعْملين فى هذه الشركة ؟

- أكثر مما كنت أتوقَّع لنفسى .

- أما أنا فأشك كثيرًا فيما إذا كنت ستستمرين فى هذا العمل .

وهنا شعر بارتياح نسبى إزاء هذا الرد غير المتوقَّع الذى وُفِّق إليه .

- قد يثير هذا الكلام غضب بعض الفتيات ، أما أنا فأعتبره مجاملة... ولا أظنك تعلم ؟

- أعلم ماذا ؟

- تعلم اتِّجاهاتى ، أعنى ميولى الخُلُقية .

- بالطبع لا أعلم عنها شيئًا ، ولا أودُّ معرفتها ، فأنت تمنحين نفسَك قسطًا وافرًا من الحرية لا تستحقِّينها . وإذا لم أكن قد وجدتك هنا عندما آل إلىَّ إرثى لطردتك فورَ رؤيتك .

- وركَلْتَ الشركة بقدميْك أيضًا ! أخشى أن أقول لك ياعزيزى إنه ليس لديك أدنى فكرة عن أدنى موضوع أو أى شىء فى هذه الشركة ، حتى أخَص الأشياء بالنسبة إليك. خذ مثلا سروْ ... » .

- أرجوك ألا تتطرَّقى مرة أخرى إلى هذا الموضوع .

- ليست لدىَّ أدنى رغبة فى ذلك .

وساد الصَّمت برهة حتى قطعته چو بأن سألته قائلة :

- أظنك كنت تريد أن تُملى علىَّ بعض الرسائل .

- نعـم .

ثم جلس محاولا تركيز انتباهه ، ولمـا ضجر من هذا المجهـود هبَّ قائلاً :

- يا للهول ، ليس بوسعى إملاء رسالة واحدة !!

فأجابته چو بطراوة : لا بأس ، سأجيب عنها بدلا منك ، فأنت فى حاجة إلى راحة طويلة . إنى لأعجب كيف يبدو آلف فى هذا الـ ...

فصرخَ مشيراً نحو الباب : أغربى عنى . ماذا يهمُّنى من شكل آلف أو غيره ؟

وبينما هى فى طريقها نحو باب الغرفة قالت :

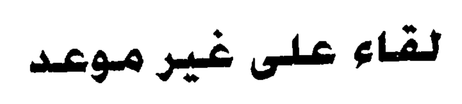
- أرى أن تستشير طبيبًا، فلا بد أن ثمة شيئًا ما يسلبك عقلك . أتتعاطى مخدرات مثلا ؟

- أتعاطى ماذا ؟

- مخدرات .

- طبعا لا . ولكنى أتوقُ إلى نزع سروالك عن جسدك . وهذا ما سأفعله إذا لم تخرجى فوراً .

فرمقته چو بنظرة ملؤها الحنان والشفقة ، ثم خرجت مُخَلِّفَةً وراءها شذَى عطرها المُتَضَوِّع فى جو الغرفة . ولقد تساءل پيتر ڤان دايك عن الأسباب التى تَحُول دون طرده لهذه الفتاة ، دون أن يفطن إلى أن أريج عطرها سبب من الأسباب .


لقاء على غير موعد

بعد أن تناول پيتر غدَاءه فى أحد المطاعم العامة بعد مرور بضع ساعات على تلك الأحداث المُخْجلة شرع يحاول مغازلة النساء . لأنه لم يكن فى وُسْعِه أن يفعل شيئًا آخر وهو ضائق هذا الضِّيق . ولم يكدْ يغادر باب المطعم حتى لمحته چوزفين التى كانت تَهُمُّ بشراء بعض حاجاتها من أحد المحال ، فأوقفتْ الصَّفقة فى الحال ، وشرعتْ فى مطاردة مديرها فى الطريق وسط الزحام ، ولم تكن هذه فى الحق أُولى المطاردات أو آخرها ، فلما لمحها پيتر وأحسَّ بتَعَقُّبِها له ، حَثَّ خُطاه محاولا الإفلات منها فهى تكاد تكون مصدر كل متاعبه ، وأخذ يْرنُو للخلف من وقت لآخر ليقف على مدى نجاح «تكتيكات» المراوغة التى يُقوم بها لإحباط مَسْعاها ، ولكن أملَه كان يخيب فى كل مرة ، فهى لا تزال فى أعقابه ، حتى تمنَّى لو تنشقُّ الأرض فتبتلعه .

وكان يُسائل نفسه وهو يسير حانقًا من جراء هذه المُضايقات الشائنة، لِمَ لا تُسْرِعُ چو خَطْوَها فتبلغه إن كانت تريد ذلك ؟ إن وراء الأكَمة ما وراء ها ، فهى تبغى أمرًا، وربما كانت تتعمَّدُ تعذيبه من غير شك .

واستحوذَ على مشاعره حافزٌ قوى يدفعه نحو العدْو حتى يمكنه الإفلات منها، لكنه مَلَكَ زمام نفسه وطرد الفكرة من رأسه لأنه يدرك جيِّدًا أنها لن تجد حَرَجًا فى مُلاحقته بالطريقة نفسها ، بل قد تبالغ فتنادى عليه بأعلى صوتها . فآثر الرضوخ قانعًا بالمُطاردة. ولكن ماذا تريد منه تلك الفتاة ؟ فالطريق غاصٌ برجال لا حصر لهم ولا نساء معهم ، فلم لا تُوجِّه نشاطها وجُهْدَها نحو أحدهم ، لا سيما وهو على وشك أن يُعْلِنَ خطوبته رسميا بعد بضع ساعات ؟ وعندما تذكَّر الخطوبة الْتَبسَ عليه الأمر ، وتحيَّر فى تحليل عواطفه ومشاعره المضطربة المُتضاربة ، المتنافرة المتجاذبة . تُرى ، أهُو يحاول التهرُّب من چوزفين أو من فكرة الخطوبة ؟ ومضَتْ الأفكار تعتمل فى ذهنه

حتى بلغ إحدى الحدائق ، فعبر الطريق ودلَف إليها ، ثم جلس على أريكة تُطِلُّ على الميناء . ولقد ذكرنا من قبل أن شذَى عطر چوزفين كان ذا أثر شديد على پيتر ، وكانت هذه الرائحة عالقة بخياشيمه دوْمًا ، فلما استَوى جالسًا ، أحسَّ بأريج العطر يتضوَّع فى الجو ثم يدنُو منه شيئًا فشيئًا ، ولما التفتَ جانبه وجد چو إلى جواره ، فقال لها دون أن يحوِّل رأسه :

- أظنُّك ستتأخَّرين عن عملك .

فردَّت بصوتها الناعم الحانى : سأتَعلَّل بأنى كنت معك .

- وسأعلنُ بدوْرى أنكِ تعمَّدت مُتابعتى فى شوارع نيويورك .

- أتحب أن أُعلنَ ذلك بالنيابة عنك لكل موظفى المكتب ؟

- لا بطبيعة الحال .

- إذن فلِمَ لا نعقد معًا أواصر الصداقة ؟

- أنا على استعداد لأُصادق أى سفَّاك ولا أصادقك ، كما أرجو أن تَكُفِّى عن محادثتى وإلاَّ ظن الناس أننا على صلة .

فضحكت چو بخبث ثم قالت :

- هل تظن أنى سأقنع برؤية سروالك فحسب ؟

وحين نظر إليها پيتر هذه المرة كان اضطرابه قد تجاوز استنكاره، فَفغَر فاه قائلا: ربَّاه! ماذا تعنين بقولك إنك غير قانعة برؤية سروالى فحسب؟

- أعنى كل كلمة قُلتها، فأنا أريد رؤية كل شىء، لأنى لا أقنع بأنصاف الحلول، وهذا مبدئى.

وعَمَّ السَّكون لحظاتٍ أخذت چوزفين تجول فيها ببَصرِها فى أركان الميناء، وقَطَعه پيتر بقوله: وماذا تريدين الآن؟

- أتَرى هذه السفينة ؟

- طبعًا أراها ، فهى تكاد تسدُّ الميناء .

اقتربت چو من مديرها حتى لا مَسَ جسَدُها الدافئ اللَّدن ثيابه ، وأشارت برأسها إلى السفينة وهى تقول: هل تحب أن تكون على ظهر هذه السفينة يا پيتر ؟

فقال پيتر مستنكرًا :

- ما هذا الهُراء الذى تلُوكِينه أيتها الفتاة ؟ أراك تحاولين الجلوس فوق رُكبتى . أنت تلتصقين بى التصاقًا معيبًا ، ثم إن الجوَّ ليس من البرودة بحيث تحلو فيه مثل هذه الجلسة الفاضحة !

- أنا آسفة ياپيتر ، فلم أفطن إلى أنى قد اقتربتُ منك إلى هذا الحدِّ إنك لم تُجِبْ بعدُ على سؤالى ، هل تحب أن تكون على ظهر هذه السفينة ؟

كانت السفينة تبتعد رويدًا رويدًا حتى كاد يبتلعها البحر بين طيَّاته ، فتابعها پيتر ببصره ، وأخذ يتعجَّب لوجوده فى مثل هذا المكان مع مثل هذه الفتاة اللَّعُوب الماكرة ، وشعر بالضِّيق يُزْهِقُ روحه وتردَّد ظَنَّه فيما إذا كانت حُمَّى الربيع هى السبب فى ذلك الضيق ، أمْ هى حفلة الكوكتيل التى ستقيمُها عمَّته هذا المساء ، ورجَحَ عنده أن الحفلة هى السبب فيما يُساوره من قلق ، إذ كان من المُتَّفق عليه أن يصطحب يولندا عقب انتهاء الحفل إلى بيت أحد معارفهم بنيو چرسى لقضاء عطلة الأسبوع ، حيث يجتمع بنفرٍ من أصدقائهم . ولم يكن پيتر يميلُ أو يرتاح إلى هذه المناسبات ؛ إذ كان دائم الاعتراض على مثل تلك الاجتماعات العائلية التى تعجُّ بلعب الميْسر وشُرب الخمر والملَل القاتل والضحكات الزائفة .

ومرة أخرى طاردته رائحة « چو » العطريَّة التى تَضَوَّعَتْ فى المكان وأخذت تُدَغْدِغُ أعصابه ، فشعَر فى الحال أنه يَهوى صاحبة هذا العطر أكثر مما يهوى العطر نفسه ، غير أنه لم يرتح لهذا الشعور أيضًا فأصَرَّ على أن يتَّخذ إزاءها موقفًا عدائيا عندما بادرته قائلة :

- لم تُجِبْ على سؤالى بعدْ يا پيتر .

- أى سؤال ؟

- سؤال السفينة ، هل تود أن تكون على ظَهرِها ؟

- نعم أودُّ ذلك .

- تعنى أن نكون على ظَهْرها أنا وأنت فقط ، حيث تُقلع بنا بعيداً ، بعيداً جدا ، فنقضى الربيــع بفرنسا ، ونُطِلُّ على البحر من كُوَّاتها . فَكِّرْ جلِيا فى مثل هذا النعيم الممتع . أنا وأنت فقط ، سـواء كـزوجيْن أم شبه زوجيْن .

جفل پيتر عند سماعه العبارة الأخيرة ، فقال :

- لو حدَثَ ذلك لقذَفْتُ بنفسى إلى المحيط .

فردَّت الفتاة وكلُّها ثقة بنفسـها : أُقسم أنك لن تفعل ذلك ، لأنى إذا استحوذتُ عليك بضع دقائق فقط لما قذفتَ بنفسك إلا فى اتجاه واحد ، وأنا امرأة تدرك ما تعْنيه من قولها جيِّداً

ثم أخذتْ تتفرَّس فى وَجْهه مُحاولة درس ملامحه التى تُوحى بالاستياء والأسى ، واستقرَّت عيناها العسليتان لحظة على شفتيْه المُعبِّرتين عن مشاعره ، واللتيْن تكاد كل حياته ترتسم فيهما ، ثم لعقت شفتيْها وتمنَّت شيئًا فى نفسها .

ومع أن پيتر لم يكن وسيماً ، إلاَّ أنها كانت تراه جذَّابا ، وتعتبرُه شابا شيخًا.. لم يكن شابا يومًا ما ، ولن يصير شيخًا فى المستقبل ، إذ كان فى رأيها ينتمى لفئة خاصة لا تحمل اسمًا . وفى هذه اللحظة كانت عيناه تفيضان بالعذاب الذى يعتمل فى نفسه ، فكرَّرت عليه سؤالها :

- ما الذى يُشْغل بالَك ؟

- لا شىء بالذات ، سوى حفلة كوكتيل بغيضة .

ولم تكن چو على علمٍ بهذه الحفــلة ، وكانت ككُلٍّ بنــات حواء شغوفة بالاستما ع إلى الأخبار الاجتماعية ، خاصة تلك التى لا تحظَى بحضورها .

واستطرد پيتر : ستُقيمها عمَّتى صُوفى فى آخر النهار ليُولَنْدا ولِمْونت حيث تعلن فيها خطوبتنا رسميا ، وما إلى ذلك .

– وما إلى ذلك ؟

– نعم ، وما إلى ذلك .

– ماذا تعنى ؟ أرجو ألا تكون قد قَصَدت ما أفكِّر فيه .

– مغفرةً ، فما أرى بأنِّى من أتدنى فأقصدُ ما تفكرين فيه .

فقالت له مُشْفقة : آه . إذن هذا هــو ســـبب رغبتك فى اللحاق سباحةً بهذه السفينة ؟

– بل وراء أى سفينة !

– بدأت أفهم الآن .

– أنت لا تفهمين شيئًا .

ونهض پيتر واقفا استعدادًا اللرحيل وقال :

– بهذه المناسبة ، أحبُّ أن أُبلِغُك بأننى رجل سعيد ، وسعيد جدا .

– طبعًا أنت رجل سعيد . هذا أمرٌ واضح .

– جِدُّ سعيد ، ونلتُ من السعادة أكثر مما أستحق .

– بل قُل إنك تتكلم أكثر مما ترغب ، وأعترفُ بأنك مخلوق تعس .

– ماذا تعنين بقولك ؟

– لا أعنى شيئًا . أرانى مضطرة إلى موافقتك .

- لا داعى لكى توافقينى ، فَلَشدَّ ما أمقتُ الطريقة التى تتَّبعينها كى توافقينى . أظن الوقت قد أزَف للعــودة إلى المكتب. تبا لكِ لقــد قضيتُ معــك أســوأ ســاعة فى حياتى .

- هل تُصدِّق أننا قضيْنا أكثر من ساعة ، فالوقت يمُر سريعًا بين فتاة شابة ورجل مُسَلٍّ فى منتصف العمر .

- منتصف العمر . هه ! وكم عُمْرك أنت ؟

- أقسم باللّه ياسيدى أننى فى الرابعة والعشرين .

إذن فأنا أكبُرك بعشر سنوات فقط .

- عظيم ، رائع ، إنها السِّن المناسبة ، رغم ما يبدو عليك من شحوب .

- السِّن المناسبة !... لماذا ؟

(فقد بلغ الغباء ببيتر حدا جعله يُلِحُّ فى معرفة السبب)

- للأُبُوَّة طبعًا .

فتصاعد الدم إلى وجه بيتر وأسْبَل جَفْنيه خجلا وقال :

- هيَّا بنا إلى المكتب .

وقبــل أن يُهمَّا بالرحيــل تابعا بنظريْهما السفينة وهى تمخــر عُباب المــاء ، وندَّ عن «جو» نَفَسٌ حار فى شبه تَنْهيدة تُعبِّر عما يُخالجها من أمل كبير ، واستجابت له عينا بيتر بإغراقهما فى الحَيْرة والارتباك ، ولا غَرْوَ فهى مُقْدِمَة على مغامرة لا مَخرج له منها .

وَحيُ السِّيقان

كان النهار على وشك الانقضاء ، والسَّفينة لا بد أن تكون قد قطعتْ شَوْطًا بعيدًا في البحر ، وما زال بيتر جالسا يفكّر والضّيق يكاد يكتُم أنفاسه . إنه ليفكّر ويُطيل التفكير ، ومع ذلك فهو لا يعرف فيم يفكّر، إذ يُحسُّ وهو على وشك الزواج بأنه سيفقد شيئًا عزيزًا، ويكاد يشعر بدنُو ذلك الفراق ، ولكنه لا يدرى مَنْ الذى سيفارقه ، وعلى أى شكل سيكون هذا الفراق. وكانت صُورَتا يولنْدا ولِمْونت وچوزفين دوڤال تلاحق إحداهما الأخرى فى مُخيلَّته أثناء ذلك التفكير .

وبرغم أن بيتر كان يُحبُّ يولندا منذ سنوات ومُتيمًا بحُسنها ومُعجبًا بثقافتها ، فإن العلاقة بينهما لم تكن لتتعدَّى حدود الأصول المَرعيَّة ، كما لم تكن الكُلفة بينهما مرفوعة، فلم تتوطَّد بينهما أواصر الأُلفة والائتناس. وجُملة القول إن طباع يولندا وخُلُقها كانا على نقيض ما كانت عليه چوزفين ، وكان ذلك من دواعى سروره ، غير أنه كان عاجزًا عن الرَّد على نفسه عندما يسألها إذا كان سعيدًا حقا ، فهو يشكُّ فى قُدرة المرء على إشباع رغبات مخلوق شديد الرغبة كچوزفين دون الاستعانة بعْونٍ خارجى ، ومثل هذا الإجراء الأخير بالذات كفيل بتحطيم السَّعادة الزوجية ، ومن ثَمَّ فمن المحال أن يُعاشرَ امرأة كچو . ومع ذلك فقد قصر فكره عن معرفة السَّبب الذى يدْعُوه إلى إطالة التفكير فى هذه المرأة مع وقاحتها وجرأتها . إنْها لم تَعْدُ أن تكون سكرتيرة خاصَّة له فحسب ، وإن كان لا يُنكر كفاءتها. فهو قد فوجئ بوجودها فى مكتبه بعدما آل إليه إرثه عقب وفاة أبيه ، فأصبحتْ أحد الأركان الهامة التى يقوم عليها صرح العمل فى مكتبه . وكان من صفات والده – ڤان دايك الكبير – أن ينقلب إلى مخلوق ماجن بمجرد انتهاء العمل ، ولابد أنه قد أُعجب بمفاتن چو، فقد كان ذلك شعوره نحو كل صبيَّة جميلة تُحرِّك الشَّهوة فى نفسه، غير أن بيتر لم يكنْ على شاكلة أبيه، إذ لم

تَسْنحْ له مثل هذه الفُرص. وهكذا بدأ الابن يحسدُ أباه على خَرْقه المستمر للتقاليد المرعيَّة ، إذ إن ڤان دايك العجوز قد سجَّل أكثر من أى ڤان دايك آخر فى الأسرة الرقم القياسى فى الإضرار بسُمْعتها. كما أنه كان متنبهًا على الدوام لكل ساق ناعمة تخطرُ فى مكتبه. ومع ذلك، كان بيتر العجوز محبوبًا من الجميع، حتى من ابنه بيتر الذى كان دائم القلق على مصير تجارة البن ، والذى كان يخشَى أن تعصفَ بها النتائج الوخيمة المترتِّبة على استهتار والده بها .

وفجأة ، دخلت چو الغرفة ، فقطعتْ عليه حبل تفكيره ، وتقدَّمت نحو مكتبه ، وبعد أن ألقَتْ بمُدَوَّنَة المكتب أمامه ، وبدون أن ترفع عينيها إليه ، أدَارتْ ظَهْرها له ، وتوجَّهت نحو الباب ، ثم لم تلبث أن تريثت قليلاً ، وبعينيها الواسعتين المتألقتيْن حدَجته بنظرات مُتَحدِّية خارَتْ لها عزيمته المُتردِّدة . وقد أزعَجَه استفزاز هذه المخلوقة المضطربة المشاعر له ، فكثيرًا ما يَعنُّ لها أن تتصرَّف كما لو كانت تؤدِّى دَوْرًا فى مسرحية ، وأحيانًا تأتى من الأفعال ما يُسبِّب له أشدَّ المضايقة. إنها بلاشك مخلوقٌ شاذ غير طبيعى .

تَمَطَّى بيتر وتثاءب ، ثم تناول مُدَوَّنَة المكتب المطروحة أمامة بتكاسل، ولم تكد عيناه الغائرتان تقعان على سطورها حتى استحال الملل المرتسم على وجهه إلى ذُعرٍ ورعب .

« السيد المدير بيتر ڤان دايك .

فى اللحظة التى يتمُّ فيها عقد قرانك على يولندا ولمونت (وما أبشَعَه من اسم) أرجو أن تتقبَّل استقالتى. وعلى ذلك، فإلى أن تحين الفرصة ، أعتبر أن الحرب سِجَالٌ بينى وبينها ، والعبرة بالنتيجة أيتها الفريسة البلهاء .

المخلصة چوزفين دوڤال .

حاشية : يمكنك الحصول على صورة من الأصل لهذه المذكرة ضمن إضبارتى تحت عنوان : أعمال لم تُنجز بعد » .

ومالبث بيتر أن مزَّق هذه الورقة بسرعة كما لو كانت تحرق أصابعه ، ودقَّ الجرس يدعو سكرتيرته التى بادرها قائلا :

– أجُنِنت حتى تأتى معى مثل هذه الأعمال الصِّبيانية ؟

فقالت مؤكِّدة : إن ما أنوى إتيانه معك بعيد كل البعد عن لهْو الصِّبيان .

ففكَّر بيتر مليًّا ثم قال :

إذن فلتجلسى حتى نعالج الموضوع بصراحة وحزم .

فارتمت جو جالسة ، وباستهتار عجيب وضعتْ ساقًا فوق ساق ، وبدأ بيتر يسألها :

– أولاً: لماذا وقع اختيارك على هذا اليوم بالذات لكى تتصَّرفى هذا التصُّرف الأحمق ؟

– هكذا تصُّرفاتى أبدًا ، وإن كنت أحيانًا أشذُّ عن هذا السلوك .

– أتعنين أنك تتصرَّفين هذا التصرُّف مع كل شخص أم معى فحسب ؟

– معك فحسب. ولو كنت كذلك مع كل شخص لقضيتُ وقتًا أكثر متعة .

– تعنين وقتًا أفضل، لا أمْتع .

– وما الفارق بين الكلمتينْ ؟ ولكى أُصْدُقُك القْول أعترف لك أنى لا أغازل سواك .

– ولماذا أنا بالذات؟ إذا كان يحقُّ لى سؤالك، فهل تظنيننى أحد زملائك بالمكتب ، أم تبغين إثارتى وحسب ؟

– لا ، ولكنى أرى وراء شبابك ضعْفًا .

– إذن هل تسمحين وتُغازلين غيرى .

- لن أفعل ذلك .

فقال لها دون أن يقصد ما يقول :

- وهذا ما أفعله لو أنى فى مكانك .

- هل تعنى أنك تغار إذا غازلتُ غيرك ؟

- كلا ؛ فأنا لا أبالى حتى لو غازلتِ « المهاتما غاندى » نفسه ، مع احترامى التام لهذا السيد الفاضل .

- أظن أنه من العسير مغازلة هذا الرجل ؛ لأنى لن أحصل منه على بُغيتى .

- إذن أرجو أن تُقْلعى عن مغازلتى وإلاَّ غازلتك بَدوْرى .

- ليتك تفعل ، ولكم يُسعدنى هذا ويُثلج صدرى .

فصحَّح عبارته قائلا :

- أعنى وإلاَّ طردتك !

- أنت لا تملك طردى طالما لم تستحوذ علىَّ بعد .

- وأنا لا أودُّ الاستحواذ عليك .

- وكيف تُقرِّر ذلك وأنت لا تعلم عنى شيئًا ؟ أتعرف أنى أعيش فى نيويورك ، وأنى أعولُ عمِّى السِّكير، وأنى يتيمة الأبويْن، وأنى أرقدُ على جنبى الأيسر فى أثناء النوم، وأعشق اللوز الملح، وأن مُرتَّبى تافه حقير لا يكاد يكفى لشراء ملابس داخلية لائقة ؟ أما أنت فترتدى سروالا من الحرير الطبيعى الخالص . لا تتكلم ، فقد رأيته بعينىْ رأسى . أى نوع من السراويل تظُننى أرتدى ؟ حرير خالص ، هه ؟ بالطبع لا .

- لا رغبة لى فى أن أعرف ، وأرجو ألاُ تُكَرِّرى سؤالك مرة أخرى .

- لا تَقُلْ إنك لا تريد أن تعرف ، بل قل إنك نذل جبان . وإذا لم يكن هناك بُد من أن تعرف، فاعلم أنه من الحرير الصناعى، حرير غير نقى كحرير سروالك ، غير أن الدنتلا التى تُزيِّنه بديعة ومن صنف ممتاز ... !

- هل حتمٌ علىَّ أن أُحاط عِلْمًا بكل هذه التفاصيل ؟

- نعم ، إذ عليك أن تعلم أنك تتعامل مع بشَر .

فرد پيتر ساخراً : كنت أود لو أتعامل فى تجارة البُن ، فأنت لا تمنحيننى من الوقت ما يكفى لكى أبيع فيه حَبَّة واحدة .

فاستطردتْ چو قائلة: كم تثيُر تلك السراويل التى ترتديها اشمئزازى، إنى لا أتمنَّى أن أقضى نحبى وأنا فى أحَدِها أبدًا ، فإن سراويلى برغم رخص ثمنها لأفضل ...

وهنا ضحكت چو بأسلوب مُفعم بالإغراء ، ولم يرتح پيتر إلى نظرة الإيعاز التى تَلَتْ ضحكتها ، فلم يسَعْه إلاَّ أن يستدير برأسه نحو النافذة ، ولم يملك إلاَّ أن يقول : الواقع أنى عاجز عن اكتشاف سرٍّ هذه الحملات التى تشنينها علىَّ . ألمْ يَحِنِ الوقت بعدُ لكى نعمل قليلاً وننجزُ بعض الرسائل ؟

- حسنًا . أنا مُصْغِية ، فابدأ فى الإملاء ، أو أعطنى بعض هذه الرسائل ، فأنا لا أنال منك شيئًا ، ولكن ما دُمنا نناقش هذا الموضوع ، فلا بأس من أن أذكر لك شيئًا لا تعرفه .

- لقد فرغتُ من مناقشة هذا الموضوع ولن أعود إليه .

- ومع ذلك فأنا مُصِرَّة على قول ما أريد ، فربما لا تعلم أن إحدى الرغبات الأخيرة التى أبْداها لى أبوك هى أن أجعلَ منك رجلاً .

- أخشَى إذا اتَّبعتِ آراء «المرحوم» بصدد هذا الموضوع أن تجعلى منى حُطامًا لا رجلاً !

- طبيعى أنك لم تبلغْ بعد مرتبة الرجولة مثل أبيك ، ولكنى سأبذل قصارى جهدى لاستغلال ما فيك من مواهب ، وإن كانت تافهة بسيطة .

- هذا كرم عظيم منك ، ولكنى أريد أن أسألك بدوْرى سؤالا : أتنوين أن تجعلى منى رجلاً أم حطامًا ؟

- سأجعل منك حُطامًا ، لأنى أجدْ فى ذلك لَذَّتى .

- يالك من صبيَّة جميلة ، وياله من سلوك رائع !

- إن كنت تتكلم عن الصَّبايا الجميلات . فاعلم أن أباك لم يكن يرتاح إلى تلك الصَّبيَّة الجميلة ذات الاسم الخُرافى التى ستعقد عليها قرانك ، وأما عن السلوك الرائع فسأحاول جهدى أن أكون أكثر منها زَهْوًا .

- أفى قُدرتك اكتساب الميْزتيْن ؟

- إننى مثلها مكتملة النمو ، بل أكمل منها نموا فى المواضع التى لن أُرِيكَهَا أبدًا .

- أحب أن أُطمئنك فأقول لك إنه ليست لدىَّ أدنى رغبة فى زيادة معلوماتى .

- أليستْ لك مطامع ؟

- ما رأيك فى إنهاء بعض هذه الرسائل ؟

- لا مانع ، فكم أتمنى لو أتخلَّص من هذه الرسائل كلها .

- أرجوك أن تنزعى أصْل استقالتك من إضبارتك ؟

- إذا لم تُسرع بإملاء رسائلك فسأنزعها فعلاً ، ولكن لألصقها بلوحة الإعلانات .

وما كاد بيتر يسمع هذا التهديد حتى ارتعدتْ فرائصه واضطربت أعصابه ، فقَلَبَ صندوق الدبابيس ، فتبعثرتْ محتوياته على الأرض . وبينما هو ينحنى لالتقاطها وجد نفسه مواجهًا لرُكبة چوزفين دوڤال . وقديمًا ادَّعى الفنانون أن رُكبة المرأة ليست أنموذجًا جماليا ، ولكن هذا القول لا يسرى على رُكْبة چوزفين دوڤال ، إذ لو حَظِىَ أىُّ فنان برؤية رُكْبتها ، ولم يأت شيئًا أكثر من مجرَّد رسمها ، لما استحق أن تُمسك يده بفرشاة قط ، فما بالك وچوزفين لها رُكبتان لا واحدة !

ثبَّت بيتر ڤان دايك نَظَرَه عليهما ، ولم يستطع أن يُحوِّله عنهما فقد كانت تجربة فريدة لم يصادفْ مثلها فى حياته ، ولن تغيب عن ذاكرته أبدًا ، حتى بَدتْ وكأنها رؤيا لا حقيقة ملموسة !

ولأول مرة فى حياته أدركَ أن رُكْبة المرأة وساقها يُفصحان عن شخصية صاحبتهما ، وعندئذ فطن إلى سبب إعراضه عن حفلة الكوكتيل، ففى ماضيه الحافل ما أكثر ما شاهد بيتر سيقانًا كثيرة مثل ساقَىْ يولندا ، فلم تُحَرِّكْ فيه رغبة أكثر من مجرد التطلُّع إليها ، وحتى تلك الرغبة كانت فاترة ساكنة .

اكتشف بيتر وهو جاثم على الأرض أنه خُدِع ؛ فَسَاقَا يُولندا ليْستا غير وسيلة لفصل جَسَدِها عن سطح الأرض ، أو آلة تنتقلُ بهما من مكان إلى آخر ، فبدتا له كأنهما زوجٌ من الطوالات(*) أو العَجلات .

أما ساقا چو فشىء آخر ، إذ كلما دقَّق فيهما النظر زاد شوقُه إلى مشاهدتهما ، ولم يجد غضاضة فى أن يعترف بذلك صراحة، فهما لم تكونا جميلتين فحسب ، بل مُمْتِعتيْن للغاية. إنهما ساقان من النوع الذى يُطيلُ العمر ، ساقان لا يصادفهما الإنسان فى حياته إلاَّ مرة واحدة . وندم بيتر لأنه لم يفطن إلى وجودهما من قبل . لِمَ يشاء القدر السُّاخر ألا يهتدى إلى هذا الاكتشاف الباهر إلاَّ وهو على وشك إعلان خطوبته رسميا إلى زوج آخر من السِّيقان هو النقيض تمامًا من تلك التى يود لو يقضى معها بقية أيام حياته ؟

وقطع صوت چوزفين عليه حَبْلَ تأمُّلاته وهى تقول :

– أقرَّرْت أخيرًا اتخاذ هذا الوضع المُستهجن لإنجاز أعمالك ، أم أنك أُصِبْت بتقلصٍ عضلى ؟

(*) دعائم خشبية طويلة يستخدمها عادة لاعبو السيرك فى الفقرات الهزلية المضحكة .

– لا ، فلم يسبق لى أن أُصبت بتقلُّصات . دعينى مستغرقًا فى التأمُّل ، فإذا فرغتُ فسوف أنهض .

– إذًا فأنت تُفْرطُ فى التأمل . أخْشَى أن يندفع الدم إلى رأسك .

– لقد اندفع بالفعل .

واستقام بيتر فى تمهُّل ، وتهالك فى مقعده ثم غرق فى بحر من التأمُّلات . ومع أنه كان ينظر فى اتجاه چوزفين مباشرة ، إلاَّ أن نظرته كانت مثبَّتة فوق جزء معين منها، فتطلَّعت إليه الفتاة متسائلة عمَّا طرأ عليه، ولم تَدْرِ أن ما كانت تصبُو إليه قد تحقَّق بالفعل دون أن تعلم به أو تتحايل عليه .

أخذ بيتر يفكِّر ويُعيد التفكير، منتبهًا لأول مرة فى حياته إلى موضوع السيقان، متعجِّبًا كيف أن ساقًا – مجرد ساق – لها مثل هذه القُدرة على إثارة رجل فى مثل مكانته، ومن ثم قلب نظرياته رأسًا على عقب . فالسِّيقان كلها سواء.. جميعُها من لَحْمٍ وعظم. خُذْ مثلا ساقًا كساقه، فلا يذْكُرُ بيتر وهو يتأمل استدارة ساقه – إن كانت ثمة استدارة فيها تستحق التأمُّل – أنها حرَّكت فيه شعوراً بِرضى أو إحساسًا بنَشوة ، بل على العكس ، فما كان ينتابه سوى شعور واحد هو الاشمئزاز ، لذا فَضَّلَ تجنُّب النظر إلى ساقيْه حتى يوفِّر على نفسه مثل هذا الشعور . وبدأ يُسائل نفسه عن أى خلاف بين ساقه وساق چو ؟ لقد خُلقتا من عنصر واحد ، وتؤديان الغرض نفسه ، حتى إن البَعُوضة لا تُفرِّق بينهما ولا تُفضِّل إحداهما على الأخرى عند اللَّدغ ، إلاَّ أن ساق چو تمتاز بقِحَةٍ مُتَطرِّفة وطابعٍ شيطانى خاص .

ثم أنبرى بيتر قائلا :

– اكْتبى هذه الرسائل .

– آه . هذا تغيير مُسَلٍّ حقا !

– هل هناك تغيير غير مُسَلٍّ ؟ اكتْبى هذه الرسالة . إلى مستر بنيامين كلارك . طبعًا لديك عنوانه . عزيزى بِنْ . (وهنا أطرق مليا ثم استطرد قائلا) : عزيزى بِنْ ..

– هل أكتب «عزيزى بن» مرتيْن ؟

– مرَّة أو مرتين . مالكِ ولهذا ، فهو يعرف اسمه . عزيزى بِنْ . إيماء لمحادثتنا الأخيرة عن السِّيقان والرُّكَب .

– لا تؤاخذنى ياسيدى . هل قُلت السيقان والركب ؟!

– أ ..أ .. أقصد الطرق والوسائل !

– آه . هل كنت تخاطب مستر بِنْ عن الطرق والوسائل المؤدية إلى السيقان والرُّكب ؟ لقد جعلت الأمر يختلط علىَّ .

– لا عليكِ ، فأنا لا أُشارك بالحديث فى مثل هذه الموضوعات ، وعليك أن تتأكَّدى من ذلك .

– ليتك تتحدَّث فيها . إذن لجنيتَ كثيراً .

– احتفظى بمثل هذه النصائح لنفسك .

ولم تفطن جو إلى موضع نظرة مديرها المُسلَّطة على ساقيْها إلاَّ فى هذه اللحظة فقط . وما إن أدركتْ ذلك حتى اغتبطتْ أيَّما اغتباط ، وسألته بصوت ينُم عن مدى سرورها :

– هل أستنبط من نظراتك أنك تتأمَّل ساقَىَّ ؟

– نعم ، فالمرء لا يَسَعَه إلاَّ التَّطلُّع إليهما .

– إذن فهما جذَّابتان .

– لم أقل ذلك ، ولكنهما أجمل ما فى الحجرة .

– اغفر لى جرأتى . ولكن هل يمكن أن تدلى إلىَّ بفكرة عامة عن رأيك فى ساقىَّ ؟

– لا رأى لى فيهما . وإعجابى بهما لا يعدو إعجابى بمقعد جميل أو بمائدة جميلة أو ، أو بالأهرام مثلا .

فزمجرت قائلة : ولم تُقْحم الأهرام فى حديثنا ؟

– لأنى أحاول أن أشرح لك وجهة نظرى «غير الشخصية» بالنِّسبة لساقَيْك .

وعندئذ قفزتْ چو من مقعدها ووَجْهُها مُحمَرٌّ متَّقد يكاد لهيب الغضب يتطاير من دمعتيْن غاضبتيْن سكبتهما من عينيها، وصرخت قائلة: أمَّا أنا فأحبُّ بدَوْرى أن أشرح لك وجهة نظرى «الشخصية» بالنسبة لحديثك . فمن حقِّك انتقاد رسائلى واختزالى كما تشاء ، ولكنى لا أسمح لك أبداً أن تنبسَ بكلمة واحدة تنتقصُ بها ساقىَّ . فقد ترتدى صاحبتك يولندا جورباً أثْمن ، ولكن إذا وُضعت ساقى وساقها موضع المقارنة رأيت البَوْنَ شاسعاً ، فالشبه كبير بين ساقها وظهر الأحدب .

فقال پيتر بصوت جَهْوَرى : ولكن ألا ترين أن «تشريحك» قد بدأ يتجاوز حدوده ؟

فصرخت چو قائلة : لا أرى إلاَّ أنى أود لو أشرع فى «تشريح» جسدك كلِّه وألْكُمك لكمةً مباشرة فى بطنك. سأغادر هذه الغرفة القذرة ولن أعود إليها أبداً وإذا أردتَ أن توجِّه لى الإهانات ، وتحدِّثنى بصوتك المنخفض وطريقتك الداعرة ، ففى الخارج مُتَّسع للجميع حتى يمكن للناس جميعاً أن يعرفوا أى مخلوق فاجر فاسق أنت .

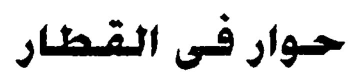
– هل تسمحين وأنت فى طريقك إلى مكتبك أن تبعثى إلىَّ بالآنسة «برايانت» ؟

– سأفعل ، ولكنى أخشى أن تقارن هذه المرة بين ساقها وبين بُرج إيڤل أو الإمپايرستيت(*) .

– لابد من رؤية ساقها أولا قبل الحُكم عليها .

وخرجت چو، وأغلقت الباب خلفها بعنف شديد وقد أرْخَتْ للسانها العنان للنُطق بأقذع ألوان السِّباب والشتم .

(*) أعلى ناطحات السحاب بنيويورك فى ذلك الزمن .



حوار فى القطار

لم تكن الآنسة « برايَانْت » قد حُرمت حقَّها من الجمال ، بل كان لها منه الكثير ، ولم يدرك بيتر هذه الحقيقة إلاَّ بعد مرور بضع دقائق على خروج جُو من حضرته ، إذ دخلتْ الفتاة إلى مكتبه ووقفت فى انتظار أوامره . وقد بدأ بيتر يحسُّ أنه ينظر إلى النساء من خلال منظار جديد منذ تلك الرؤيا التى صادفها عند مشاهدته ساقى سكرتيرته الحسناء . فأخذ يعضُّ بنَان الندم لأنه لم ينتهز الفرصة التى سنحتْ له عندما اكتشف ساقَيْ جو ، وكذلك الفُرص التى ستسنح له فى المستقبل ولن يستغلَّها أيضًا ، ولا غَرْوَ فقد بدأت دماء ڤان دايك الفائرة الآثمة تتدفَّق بقوة خلال شرايينه ، ولما فطن إلى وجود الفتاة بادَرَها قائلا وهو يخفى تعابير وجهه وراء إحدى الرسائل :

- أنسة برايانت . أرجو أن تخرجى الآن لشراء ستة أزواج من الجوارب من أفخم متاجر الحى ، فهل تجدين فى ذلك مشقَّة ؟

وطبعًا لم تكن الآنسة برايانت لتجد أدنى مشقَّة فى ذلك ، بل كان يسعدها أن تذهب لأبعد من ذلك فى سبيل مستر ڤان دايك ، بل قد يزيد سرورها لو وقفتْ على سر ذلك الدافع الخفىِّ الذى شجَّعه على أن يطلب منها أداء هذه المُهمَّة الغريبة ، فقالت :

- وهل يُوصى سيدى بلون خاص ؟

- لون خاص ! آه . نعم ، طبعًا . لون اللحم . أعنى كل الألوان . أقصد الألوان الحديثة طبعًا . ألوان الشباب التى لا تخفَى عليك ، فهى من أجل عمَّتى صوفى ، وهى امرأة طموحة لها أحيانًا بعض الآراء المستهجنة .

- إذن فهى للعمة صوفى .. !

- طبعًا للعمَّة صوفى ، ولكن لم تسألين هذا السؤال ؟ هل ثمة غرابة فى مطلبى ؟

– كلا ، على الإطلاق . إنما أسأل لاختيار المقاس الذى يناسب عمتك ، وهذا كل ما فى الأمر .

فقال وهو يحاول أن يُضفى على صوته شيئًا من الهدوء وقلة المبالاة :

– أى مقاس ترينه ، وحبَّذا لو كان المقاس مناسبًا لمن هم فى مثل قوام چوزفين دوڤال أو أى فتاة مماثلة لها .

– أظن أنى بدأت أفهم الآن .

فردَّ وهو يتصنع الضَّحك :

– أحمدُ اللَّه أنْ بدأتِ تفهميننى . وبهذه المناسبة ، أرجو أن تُضيفى زوجًا آخر لنفسك كَهَديَّة متواضعة منى .

فخرجتْ لتوِّها وأتمَّت مُهِمَّتها ، ثم رجعت وسلَّمت الجوارب لپيتر الذى دعا سكرتيرته فى الحال، فأتتْ إليه مسرعة، برغم إنذارها له بأنها لن تخطو عتبة مكتبه مرة أخرى . وما إن رآها حتى بادرته قائلة :

– أى اقتراحات فاسقة كنت تعرض على هذه المرأة المَدْعُوة برايانت ؟

– لم أعرض أى اقتراحات ، ولكن الفتاة أسَرَتْنى بأدبها ورقَّتها . وبهذه المناسبة ، إليك ستة أزواج من الجوارب الحريرية الأصيلة ، وتذكَّرى أنها من الحرير الطبيعى ، فالْبسى أحدها ، وأرجو ألا نخوضَ مرةً أخرى فى هذا الموضوع ، فنحن – كما ترين – لم نَجْنِ شيئًا من مناقشة اليوم ، ولن نجنى منها شيئًا .

تناولت چو الصندوق وفضَّتْ غلافه ، وخيَّم الصمت بضع لحظات فى الغرفة اختبرت چو فى أثنائها محتويات الصندوق وأحْصَتها بسرعة ، ثم استدارتْ إليه قائلة :

– أتظن نفسك قد ملكتَ روحى وجسدى بإهدائى هذه الجوارب ؟

– أما روحك فلا : إذ لستُ مغرمًا بها !

- آه ، لقد اتفقنا . يالها من صفقة ! .. الجوارب نظير جسدى !

- أنت لا تفهمين مقصدى ، ولم يَدُرْ بخَلَدِى قَطُّ ما تُفكرين فيه ، واعلمى جيداً أنه ليست لدىَّ أدنى رغبة فى امتلاك روحك أو جسدك .

فاقترحت عليه جُو قائلة : وما رأيك فى اقتراضهما ؟

فرد بيتر قائلا : هَلاَّ خرجت الآن بعد أن تُحكمى إغلاق فكّيْك وتكُفِّى عن الثرثرة !.. أرجو أن تدركى أنى هنا رئيسُك ، والمفروض أنك تعْمَلين هنا ولا تهزلين .

فردَّت عليه مغتاظة وهى تجزُّ على أسنانها :

- لو لم تكن هذه الجوارب من الحرير الخالص لمزَّقتها شرَّ ممزق .

- أحمد الله أن نالت إعجابك وتقديرك . وبهذه المناسبة ، لو كنت فى مثل موقفك لما حملتها معى هكذا إلى مكتبى ، فللناس ألسنة سليطة .

- سأُخْفيها هنا . (ودفعت بالجوارب داخل ردائها من ناحية صدرها حتى أصبح منظرها مضحكاً إنْ لم نَقُلْ فاضحاً) .

- أما وأنت على هذه الصورة فلن يكتفى الناس بالتعليق إذا خرجت عليهم وأنت على هذا النحو ، بل قد يُغْمَى على بعضهم من روْعة المنظر ووَقْع المفاجأة . وحتى أنا - أنا الذى أعلم كل التفاصيل - قد بدأت أشعر بِغُصَّة .

- أنت المسئول الأول والأخير عن هذا الموقف .

- لنفرض هذا ، ولكنى لست مسئولا عما سيتقوَّل به الناس عليك .

- على أية حال سأخرج هكذا . ولا تنس أننا نطوى بيننا سرا .

- يلوح لى أننا نكتم شيئًا أكبر من ذلك .

ثم وضعت جو يديها فوق بطنها وقالت :

- لن يلحظوا شيئًا إذا خرجت ويداى فوق بطنى .

– طبعًا لن يلحظوا ولكن قد يتخيَّلون أنى لَكَمْتُك فى هذا الموضع .

– أرجوك الإسراع بالخروج ، فمنظرك يثيُر اشمئزازى .

وبينا چو تستدير لدى الباب ، رَمَقَتْه بنظرة فاحصة مُغْرية وقالت :

– ألا تزال مُصِرا على عدم الاعتراف بما تُكِنُّهُ نحوى وأنت تُهْدينى تلك الجوارب ؟

ثم أغلقْت الباب وراءها بهدوء ومضَتْ ، فاستلقى بيتر فى مقعده وبدأ يُسائل نفسه عن حقيقة شعوره نحو چوزفين دوڤال . ومر الوقت سريعًا دون أن يُنْجز بيتر أى عمل ، فقد مضى اليوم كله دون أن يأتى بيتر بجديد فى تجارة البن التى آلتْ إليه عن أسلافه. ولما نال منه الضَّجر ، نظر إلى ساعته ثم قارنها بساعة المكتب ، ولكى يتأكد من صدْقها نهض وفتح باب مكتبه وأطلَّ على ساعة الحائط ، ثم سار بتمهُّل حتى مِشْجب القبعات وتناول قبعته وعصاه . وبينما هو يُلقى تحية المساء على موظفيه ، أحسَّ كأنه يُودِّعهم الوداع الأخير ، كما فطن إلى أن چوزفين دوڤال قد غادرت المكتب .

قصد بيتر موقف القطار ، وكان مكتظا بالكتل البشرية المتلاصقة . وما إن وصل القطار حتى زجَّ بنفسه وسط الكتل البشرية من رجال ونساء .

وبدا الألم على وجه بيتر وهوَ يُزجُّ بجَسده بين هذه الأجساد المتلاصقة، فعانى الكثير من جراء امتهان كرامته وضيق تنفُّسه .

وفجأة بادره صوتُ نسوى بالقُرب من صدره ، وهو يصيح :

– إذا لم تكف عما تفعله يا هذا ، فسأصفعك على وجهك .

كان أول شيء فعله بيتر ردا على هذا الإنذار أن رمى ببصره بطريقة غريزية حوله ليتأكد مما إذا كان مَن فى المركبة قد استمعوا إلى قول هذه المرأة ، ثم ردَّ بصوت خافت خفيض مِلْؤُهُ التوسُّل والضَّراعة :

– لست أنا من فعل ذلك !

– لا تتصنَّع البلاهة ، فأنا أعرف مَنْ فعل ذلك . آه . ها أنتذا تُعيد الكَرَّة ، وأنا أحذِّرك يا سيِّدى مَغَبَّةَ فِعْلتك ، فأنت تحصل على أكثر مما تستحق نظير القرش الذى دفعته لركوب القطار .

فتمتم قائلاً : يا إلهى !

واستطرد وهو يحاول الابتعاد عنها : ما هذا الهراء الذى تهذى به هذه المرأة ؟ ثم انحنى فوق رأس المرأة الماثلة أمامه وقال : سيدتى ، لا يمكننى ، أأ ...

– آه ، أتعنى أنه لم يَعُدْ فى إمكانك السيطرة على نزواتك والتحكُّم فى يديْك .

– لا بطبيعة الحال ، فأنا لا أنحدر إلى مجرد التفكير فيما تدَّعينه .

– كفى ثرثرةً ، فأنا لا يهمُّنى ما تفكر فيه ، ولكن يهمنى أن تبتعد عنى فورًا . هذا كل ما فى الأمر ، وإلا صحتُ مستغيثة .

ولما أدار رقبته قليلا أفلح فى تمييز تلك المرأة التى تتهمه ، ولشدَّ ما كانت دهشته إذ اكتشف أنها چو كما كان يتوقَّع ، ولم يَدرِ بيتر ما إذا كان وقوفه على هذا النحو سيكون مصدراً لخلاصه من هذا المأزق أم للتمادى فى التورُّط فيه ، فقال لها مستعطفًا :

– ناشدتُك اللّه ألا تُمعنى فى تمثيل هذه المهزلة .

– وأرجو بالمثل ألا تمعن فى نزواتك . كان الأجدر بك أن تخجل من نفسك أيها الرجل ، وما كان يصحُّ أن تتردَّى إلى هذا الفعل الشائن .

– على رسلك ، ولكن باللّه خبِّرينى ماذا فعلتُ بك ؟

– يا إلهى ! أتجسر فتطلب منى أن أشرح ما فعلته بى . إن مثل هذا الشرح لأشد وقاحة من الاستسلام له . تصوَّر ما قد يحدث لو أحاط موظَّفو متجرك علمًا بهذا الحادث !

- وبمَ يُحاطون علمًا ؟

- لا تتغافل ، فأنت تعلم تمامًا ماتفعله . كم أمقت هذا الصنف من الرجال !

- وأنا كذلك .

- آه .. إذن فأنت ممن يؤمنون بالحكمة القائلة لا تدعْ يدك اليسرى تحيط علمًا بما تأتيه اليمنى ؟

- كلا ، فكِلْتَا يدىَّ مشغولتان .

- أعلمُ هذا جيدًا ، ولكن دَعْنى أضيفُ أنهما مشغولتان بحماسة . وطالما ناديتُ بمنع العُزَّاب من ركوب القطارات خلال ساعات الزحام .

فقال بيتر محاولا تغيير موضوع الحديث : ماذا فعلت بالجوارب ؟

- أخشى ألا يمكنك الدُّنُو منها أو التطلُّع إليها إلاَّ بصعوبة .

إذَنْ فهى ما زالت فى موضعها الأول ؟

- وما شأنك بهذا ؟ ربما تكون فى موضعها ، وربما أكون قد علَّقتها فى عمودى الفقرى .

- ما أبشع ألفاظك !

- أتنكر أنك المسئول ؟ وبهذه المناسبة ، ألا تزال تنوى المُضِىَّ فى مشروع زواجك الهَزْلِىِّ المضحك ؟

- وما المانع ؟

- المانع أنك لم تعُدْ تسيطر على أعصابك بعد ما حدث الآن فى القطار .

- كفى حماقة وغباء .

- لست غبية ، ولكنى أؤكد لك أن خطوبتك لن تتم اليوم .

نظر بيتر بسرعة إلى سِحْنتها المتجهِّمة ورأى علامات الإصرار مُرْتسمة عليها بوضوح ، ولسبب خفى لم يلمس بيتر فى نفسه استياء من هذا التهديد أو الإنذار . والواقع أنه وجَد فى عبارتها المَنْفَذَ الوحيد لنجاته وخلاصه ، فلم يكن لديه أى مانع كى تقع أى كارثة يتَخلَّص بها من تلك الخطوبة ، إذ كلما طاف بذهنه موضوع خطوبته ليولندا ولْمونت لَزم الحياد التام ووقف وقفةَ المُدافع، فهو لم يكن ينوى فض هذه الخطوبة نهائيا والانتهاء منها إلى الأبد ، لأنه لم يكن يدرى ما يريده على وجه التحقيق . وبدأ يُسائل نفسه لِم لَم يتم هذا الزواج منذ سنين بدل هذا الانتظار الطويل حتى غدا مشروع الزواج فكرة راكدة ؟

وبالطبع لم يكن هذا فى الإمكان ، لأن يولندا كانت عازمة على الرحيل إلى أوروبا وحدها دون أن يصطحبها أحد . ولا غَرْوَ فهى تتوقُ إلى إذكاء الفن الذى تجيده ، أعنى الرغبة فى الاستمتاع بمركزها الجديد كفتاة تغزو المجتمع لأول مرة ، فقد كانت من أولاء الفتيات اللواتى يتطلَّعن إلى الاستمتاع بالحياة إلى أقصى درجة ممكنة ، وإن كانت لا تدرى كيف تَنْعَم بهذه المُتعة إذا واتتْها الفرصة . وقد تمنَّت أشياء كثيرة تحقَّقت جميعًا ، كما أنها كانت تتمنَّى بيتر . ولكن كان عليه أن ينتظرها حتى تنتهى من تحقيق سائر مآربها وهو صامت ساكن لا ينبس ببنت شَفة .

كانت يولندا مغرورة مُعْتدَّة بنفسها ، وعلى يقين من أنها لا تفعل غير الصَّواب ، والصَّواب وحْدَه ، وأن الحق دائمًا فى جانبها ، كما كانت منغمسة إلى أبعد الحدود فى ملاذِّ الحياة الاجتماعية على اختلاف صنوفها. وكانت تبدو فى أحسن حال عندما يَفِدُ الضيوف إلى البيت - أولئك الضيوف الذين كانوا لا يجدون مفرا من الحضور كالقطعان الخرساء - فى أبْهى حُلَل وأصْفى حال. وكان بيتر يتساءل وهو فى أشدِّ حالات الضيق عما سيفعلونه بكل أولئك الناس الذين سيستضيفونهم ، وكيف يعاملهم .

والواقع أن السنوات القادمة كانت تتراءى لبيتر كأعمدة مُتراصَّة بعضها خلف بعض فى بَهْوٍ مُمتد لا نهاية له ، يحفُّه أناس ظرفاء يتصافحون بالأيدى ويتشدَّقون فى حبور بموضوعات تافهة لا قيمة لها .

وظل فى هذا الضرب من الحيرة والتفكير حتى كاد ينفجر من الغيظ ، على حين كانت چـو ترمقُه من تحت أهدابها الوَطْفـاء إلى أن قال لها :

- أنصحك ألاَّ تمضى فى هذا التيار الوَعِر ، فلن تقوى عليه . ولكنى أتساءل عن سبب محبَّتك لى وسر هذا الغرام العنيف ، خاصة أنى أراك غير جديرة إلاَّ بالوقوع فى هَوى سائق سيارة أو مُصارع محترف أو « بلطجى » ذى عضلات فولاذية ، أو إحدى تلك الشخصيات المنحطة التى لا نفتأ نشاهدُها على شاشة السينما . وأنت إذا أمْعَنْتِ النَّظر إلىَّ وجدْتِنى حُطامًا تبدو علىَّ سيما الغباء ، كما أننى دائم الإصابة بالزكام ، ويَحْمَرُّ أنفى شتاءً ، وتشتدُّ حُمرته صيفًا حتى لكأن الصقيع ووَهَج الشمس يتباريان على حساب أنفى . وفضلا عن ذلك ، فإنى معتادُ الشَّخير بصوتٍ عالٍ مزعج ، ودائم السَّهْو ، وأنت تذكرين أنى لا أعلم عدد السراويل التى أرتديها فى أثناء النهار، ولا أرتدى شيئًا خلال الليل . وهكذا ترين أنى مخلوق غير محتمل !

- أعرف ذلك كله . ولكنى متأكدة أنك تحفظ الكثير من القَصَص المَعِيبة القذرة ، وهذا وحْدَه يروقُنى كثيرًا .

تنهد بيتر من أعماق قلبه .. ولا عَجَب ؛ فهذه المرأة تُجاوِزُ التصوُّر والتصديق . وإذ تذكَّر أنه أمضَى إلى جانب هذه الفتاة زهاء سنوات ثلاث فى المكتب ، ومن قبله كان والده واقعًا تحت هذا التأثير الفاسق ، فقد انطوى على نفسه . ثم بدأ يدرك أن هذا السَّبب ربما كان مصدر ذلك الانتعاش الصِّحى الدائم الذى كان يلوحُ على والده الكَهْل .

واستطردتْ چو قائلة : ثم إن أولئك المصارعين وسائقى السيارات الذين ذكرتهم يتمسَّكون عادة بأهداب التقاليد ويتعلقون بمكارم الأخلاق، ويتشبَّثون بعادات ويتميَّزون بصلابة الرأى . أما أنت فشىء آخر ؛ لأنى أعلم عنك أنك شديد المرونة من الناحية الخُلقية حتى لَيُخَيَّلُ إلىَّ أنك وُلِدتَ والفساد يسرى فى دمك . وأخيرًا، فإنى أفضِّل الحياة وسَط الفساد الجنسى عن الركود بين ذَوِى الكمال الخُلقى .

- ترى ، أى فساد تدَّخرينه وتعدِّينه لى للعيش إلى جانبك ؟ أهو سلب العِرضْ أم الفسق اغتصابًا ؟

- كلاهما .

- أرى محطَّتك قد قَرُبَتْ فهلا تأهبت للمغادرة ؟

فأجابت والقطار يتهادى فى المحطة :

- نعم . وإلى اللقاء، ولا تدهش إذا حدث جديد ، وتَذَكَّرْ أنى فى صَفِّك . ثم نزلَتْ وبيتر يتعقَّبها ببصره حتى غادرت رصيف المحطة ، ولكنها لم تشأ أن تفارقه دون أن تودِّعه بنظرة أخرى ، فلم يَفُتْها ما ارتسم على عينى بيتر من بؤس وتعاسة . وبطبيعتها الفطرية أخذتها الشَّفقة عليه ، ثم مضَتْ وهى تدبِّر الخطة اللازمة لإنقاذ فتاها ، وبالتالى إنقاذ نفسها ، فضربتْ صفحًا عن مشروع مشترواتها واستقلَّت القطار التالى العائد إلى المدينة .

النشال يَنْشُدُ سروالاً

وإذا خَطَر على بالنا «آرثر» - النشال القزم القصير - نجد أنه كان للخواطر التى دارت بذهنه عن المزايا التى يجنيها لصوص البيوت من الحصول على ما يلزمهم من السراويل أثر كبير فى تطوير أفكاره ، حتى قادته فى نهاية الأمر إلى الإذعان لذلك الإغراء الذى يدفعه إلى عدم التقيُّد بحرفته ، والتحرر منها قليلا عله ينال ما يريد .

ولما قدح زناد فكره رأى أن «سنترال پارك» ليس بالمكان المناسب لمثل هذا النوع من السرقات الهيِّنة المتواضعة، فعزم على أن يتوجَّه إلى شوارع غرب المدينة ، وفعلا أسرع إليها، فلما بلغها أخذ فى التَّسَكُّع باحثًا عن منزل مناسب يكفل له تأدية مهمته على الوجه الأكمل . وشرع يزن الأمور ويناقش نفسه بخصوص النتائج المنتظرة فى حالتى النجاح والفشل ، وبعد أن قر قراره ، عرج على بيت آل ڤان دايك . وفى الحال تسلَّل إلى المطبخ ، حيث وجد «مارتا» إحدى خادمات أسرة ڤان دايك الأكفَّاء .

وبدهائه المعهود ، حمل « مارتا » على أن تدعوه إلى تناول قدح من الشاى ، بعد إقناعها بأن مساعدتها له ليست إنقاذاً لأحد ضحايا الأزمة الاقتصادية العامة فحسب ، بل لزهرة من زهراتها .

وبينما هما جالسان إلى مائدة المطبخ يتبادلان الحديث ، كان كلاهما يُحدِّق بعيْنيه فى البريق المنبعث من خاتم فى أصبع آرثر ذى فص من الياقوت الزائف. ثم علَّق آرثر القزم محاولا إغراءها : هل تعلمين أن هذا الخاتم كان لأحد زعماء الهنود الحُمر فى سالف الزمان ؟

وتطور الحديث بينهما حتى كاد آرثر أن ينحرف عن الغرض الذى جاء إلى الدار من أجله ، فتدارك نفسه عندما قالت الفتاة وقد بدا الإعجاب فى نظراتها :

- والآن .. ما القول فى هذه الجوهرة ؟

فأجابها النشال القصير وهو يُكْسِبُ صوته رنَّة الموافقة : آه ، أراك تعودين إلى حديث الجوهرة . إذن سأمنحك هذه التحفة النادرة بأبخس ثمن ، نظير سخائك وقدح الشاى الذى أسرتنى به .

فقالت : وكم يساوى هذا الثمن البخس من الدولارات ؟

- حوالى دولارَيْن فقط .

- ليكُنْ يا سيدى ، وأرجو أن تنتظر حتى آتى بكيس نقودى .

- وأين كيس نقودك هذا ؟

- فى جناح الخدم بالطابق العلوى .

لم تناسب هذه الصفقة خطـــة آرثر فحسب ، بل سَهَّلتها كثيراً ، فقال وكأنه يُنْذرها :

- أرجو ألاَّ يطول غيابك .

وما إن تلاشى صوت أقدامها حتى وضع آرثر الخاتم فوق المائدة وحَثَّ خُطاه نحو الدَّرَج ، ولما بلغ الطابق الثانى زحف إلى أقرب الأبواب وأصاخ السَّمع ، ثم تسلَّل كالأشباح إلى إحدى الغُرَف بخفة وهدوء وقد لاحظ آرثر بسرعة أن هذه الغرفة تخص أحد الرجال ، وكانت غرفة فسيحة ، فعبرها فى الحال ، واختبأ وراء إحدى الستائر الفاخرة التى تتدلى أمام نوافذها ، ثم أطل برأسه من فُرْجَة فيها ليستكشف أيْسَرَ الطُرق للهروب ، ولم تكن هناك أية طريقة للفرار ، فقد كان الموت واقفًا بالمرصاد يتلقف كل من تحدثه نفسه بالتدلى من النافذة . وبينما هو يدبر الخطة اللازمة لذلك ، سمع صوت صرير مِغْلاق الباب وهو يدور ، فكان ذلك الصوت أبغض ما سمعه آرثر طول حياته !

دخل بيتر حجرته مهمومًا تشغله حوادث الدنيا عامة ، وحادث القطار خاصة ، فلما رأى آرثر هذه العلامات مرتسمة على وجهه ، اقتنع بأن هذا الرجل إذا قبض عليه فلن يكون للرأفة سبيل إلى قلبه ، وبدأ يلوم نفسه .

وفجأة كتم النشال القصير البائس أنفاسه صائحًا كأنما يحدّث نفسه : « يا إلهي ! وماذا بعد ؟ » ، ولا عجب ؛ فقد كان صاحب الحجرة ينزع ثيابه . تُرى ، هل يأوى إلى فراشه فى مثل هذه الساعة المبكرة ؟ ثم إنه من الجائز أن يستلقى الرجل فوق ذلك المقعد المريح ويبدأ فى المطالعة، فهو نفسه اعتاد ذلك بعد قضاء أعمال النهار الشاّقة ، وفى هذه الحالة سيضطر إلى البقاء مختبئًا حتى يغشى عليــه من الإنهاك الشــديد . وما إن بلغ تفكيره هــذا الحــد حتى ارتعــدت مفــاصله وأصابه الجَـزَع .

وبينما كان هذا المشهد يدور فى الطابق الثانى ، كانت چوزفين دوڤال تخطو أول خطوة فى مسكن آل ڤان دايك . ولم يكن فكْـرُها الخَصْب قد انتهى إلى خُطةٍ ما عندما بلغتْ الدار ، فقد كانت چو تعتبر أولى مَنْ ينتهزن الفرص فى العالم ، إذ هناك دائمًا ثغرة يمكنها الولوج منها . كانت چو واثقة من ذلك . ولكن الثغرة التى صادفتها اليوم لم تكن مطمئنة كل الاطمئنان ، فقد كانت متمثلة فى شخص ساندرز رئيس خدم أسرة ڤان دايك الذى بادرته قائلة : هل لك أن تحيط سيدتك علمًا بأن هناك من تنتظرها ؟ .. وأبلغها أنى على وشك الاقتراب من حادث سعيد .

وقد يعترض البعض على أن الأسلوب الذى اتبعته چو فى تقديم نفسها كان معيبًا للغاية ، فضلاً عن أنه طريق قد يودى بصاحبه . وكانت چو معذورة ، فقد وجدت نفسها فى مأزق يتحتَّم عليها فيه التَّرَسُّل فى الكلام ولو لم يكن لديها ما تقوله ، ولكنها قرَّرت أن تقول أى شىء طالما أن قولها لن يُسفر عن أى ضرر . كما أنه لا يسعنا إلاَّ الاعتراف بأن المقدمة التى استهلت بها حديثها لم تكن تخلو من عنصر المفاجأة ، فحتى ساندرز – المعصوم من الخطأ – قد استغلق عليه استْيعاب ما أدْلَتْ إليه به من معلومات وهو يخطو خطواته الواسعة فى ردهة الدار .

قال ساندرز مجيبًا : حسنًا يا سيدتى، ولكن هل هناك سبب خاص يجعل سيدتى تبالى بحادثك السعيد ؟

– قد لا تعبأ به هى بالذات ، ولكن ابن أخيها الفاضل قد يبالى بذلك كثيرًا . وبهذه المناسبة ، أود أن أحيطك علمًا بأنى لست بسيدة بعد ، فلازلت آنسة ولو اسميا

فقط . وأرجوك الإسراع قليلا ، فحالتى تزداد سوءًا بمرور الوقت ، وقد لا تمضى لحظة حتى يصبح الأمر جد خطير .

وقد صادف ساندرز الكثير من الفتيات الغريبات فى حياته الطويلة الحافلة بالحوادث ، ولكنه لا يذكر قط أنه قابل فتاة بمثل هذا الشذوذ والغموض ، لذا أجاب قائلاً :

– لقد استوعبتُ الموقف جيدًا يا آنسة . فإذا أذنت لى بالانسحاب أمكننى الذهاب لاستشارتها .

– إذا لم تجدنى هنا لدى عودتك فابحث عن جثتى فى أقرب نهر . وبهذه المناسبة ، ما اسم هذا النهر القريب ؟

– الهدسون يا آنسة . وتجدينه على بعد ثلاثمائة متر إذا اتجهت إلى اليسار فور خروجك .

فردت چوزفين وساندرز يدير ظهره متجهًا إلى أعلى :

– يلوحُ لى أنك شديد الحماس لهذه الفكرة .

وما إن غادرها الخادم حتى تطلعت چو حولها ، فسمعت صوت مناقشة صادرة من غرفة تطل على الردهة على بعد حوالى ثلاثة أمتار ، كما ميزت صوت قرع أكواب زجاجية . إذن فحفلة الكوكتيل معقودة على قدم وساق . فانبسطت أساريرها لأنها كانت مَشُوقَةً إلى معرفة كيف يعيش هؤلاء القوم ، وما الذى ينوونه حِيَالَ پيتر – الذى أصبح منذ الآن فى نظرها رجلها بغير منازع – فقد عقدت عزمها على الحيلولة دون هذه الخطوبة بأية وسيلة ، لذا التجأت إلى باب صوان الملابس ، إذ كان أفضل الوسائل المؤدية إلى تحقيق غرضها ، فتسللت إلى داخل ذلك الصوان وهى متأكدة أن هناك شيئًا سيحدث من شأنه تعطيل خطوبة پيتر لتلك الحية الرقطاء المسماة يولندا ولمونت . وكان الصوان مريحًا وإن كان معتمًا لا ضوء فيه ، وقد تدلى حولها عدد لا حصر له من الثياب النسائية التى لم تستطع تمييزها فى الظلام ، سواء منها المصنوع

من الفراء ، والخاص بالأمطار ، أو بقيادة السيارات ، والواقى من الغبار ، وغير ذلك من مختلف الأنواع التى تشتهيها امرأة مثلها .

لندع جو مختبئة فى صوان الملابس برهة ، ونصعد لنشهد ما يجرى بالطابق العلوى ، حيث كان پيتر يسأل نفسه ما إذا كان الحَمَّام الذى ينوى أخذه كفيلا برد نشاطه وحيويته إليه ؟ والواقع أن پيتر كان يشعر فى قرارة نفسه أنه مثل المحكوم عليه بعقابٍ قاسٍ ، فهو على وشك أن يعقد قرانه اليوم . ولكن لم الحيرة والتساؤل ؟ ففى السم متسع للجميع . فهل يتناول السُّم بنفسه ، أو يدسُّه ليولندا فيتخلَّص منها ؟

وبينما كانت هذه الأفكار المحيرة تَتْرَى متتابعة فى مخيلة پيتر فى الطابق العلوى، كان ساندرز يعانى واقفًا وحده بالردهة يبحث دون جدوى عن الآنسة التى اختفت فجأة دون سابق إنذار ، ولما يئس من العثور عليها ، هز كتفيه كما لو كان يطرد الأمر من فكره ، إذ لابد أن تكون الآنسة آثَرت إلقاء نفسها فى النهر كما قالت .

كان پيتر وهو ينزع ثيابه يقترب رويداً رويداً من الستار الذى يختبئ وراءه آرثر لدرجة خُيِّل معها إلى النشال القصير أن أمره قد صار قاب قوسين أو أدنى من الافتضاح ، فقد كان من المحتمل أن يسدل مضيفه الستار حتى تحجب النظر عن بدنه العارى . وهذا ما كان يفعله آرثر لو كان فى مثل موقفه ، ولكن ربما كانت طباع أولئك الأغنياء مختلفة ، ويجوز أنهم لا يلقون بالا إلى مثل هذه الأمور . آه لو كان فى استطاعته أن يأتى ما من شأنه تحويل نظر هذا الرجل إلى اتجاه آخر حتى يمكنه الفرار بأمان من الحجرة .

ترى كيف يتخلص من هذا المأزق ؟

لقد استدار پيتر متطلعًا نحو الستار !

ترى هل لاحظ شيئًا ؟

هل سمع صوتًا ينم عنه ؟

تصبب العرق بغزارة من آرثر القصير حتى كاد يغرق فى لجته ، وما كاد پيتر يدير ظهره حتى امتدت يد آرثر إلى المائدة المجاورة للستار وتناول من وسط الزجاجات المطروحة فوقها زجاجة ضَخَّاخة .

ولم يدر بخلد آرثر أى فكرة عما ينوى أن يفعله بالزجاجة الضخاخة ، ولكنها كانت سلاحًا فى يده على الأقل ، بدل أن يجابه صاحب البيت العارى صُفْرَ اليدين . ومرة أخرى تطلعت عينا پيتر إلى الستار .

لِمَ يتطلع إلى هذا الستار بالذات دون سائر الستائر ؟

لابد أن يكون الشك قد تطرَّق إليه . نعم ، فقد بدأ الشك يغزو قلبه بعد أن فطن إلى وجوده . وها هو ذا يتجه نحو الستار مرة أخرى .

كان پيتر قد وصل إلى منتصف الغرفة عاريًا كما ولدته أمه فتوجَّس آرثر من المنظر الماثل أمامه وفَزِعَ من المصير المُتوقَّع له ، فتقلَّصَتْ يداه على الزجاجة المُمْسك بها . وما إن بلغ پيتر ثلثى الحجرة حتى كف عن السير وأدار ظهره العارى ، ثم انحنى ليحك قدميه ببعضهما كما يفعل سائر الناس . وظن آرثر فى الحال أن پيتر إنما يقوم بخدعة .

وفى هذه اللحظة بالذات استولت عليه فكرة جنونية ، واستحوذت عليه رغبة لا إرادية فى أن يصوِّبَ محتويات الزجاجة الضخاخة إلى ظهر ذلك الرجل العارى المشغول بحكِّ قدمه .

وليس من الصعب على الإنسان أن يفهم سر مثل هذا الدافع ، فكلٌّ منا يخالجه مثل هذا الشعور ولو مرة واحدة فى حياته .

ولم يكن آرثر يملك القدرة الكافية لمقاومة مثل هذا الحافز القوى ، فرفع الزجاجة ووجه صنبور الضخاخة نحو السطح البشرى العارى الماثل أمامه، ومن ثم ضغط على ذراع الصنبور فانساب السائل المقذوف بلطف على ظهر پيتر . وسرعان ما ظهر أثر هذا جليا ، إذ انتفضَ پيتر واقفًا . وتطلع حوله ونظرات الدهشة والمفاجأة وعلامات

الغضب لكرامته المفقودة مرتسمة على وجهه ، لكنه تراجع ظَنا أنه من الجائز أن يكون قد توجه صوب «الدش» فى أثنــاء انهماكه فى التفكير دون وعى منــه . ولكن قطرات الماء المنسابة على جنبيه سَعَّرَتْ نيران غضبه ، وإن كان لها الفضل فى تعريفه بحقيقة الأمر الواقع . وهنا بلغ منه الُحنق مبلغًا عظيمًا ، فإن أى فرد من أسرة ڤان دايك لا يحجم عن ولوج أصعب المخاطر إذا أغضبته ، وبخاصة إذا كان عاريًا .

اعتقد پيتر أن المخلوق الدنىء الذى أثار غضبه لابد أن يكون مختبئًا فى مكان ما بالغرفة ، والأرجح أنه وراء إحدى الستائر ، لذا اندفع ثائرًا نحو إحداها . أما كونه لم يحسن الاختيار - إذ لم يوفق إلى الستار التى يختبئ وراءها النشال - فلم ينقص ذلك من مقدار اللذة التى وجدها پيتر فى هذا الضرب الجديد من النشاط ، على حين وجد آرثر فى هذه الدعابة الجديدة تسلية وأى تسلية ، فقد جعلته ينطلق من إسار نفسه قليلا ، ويجد فى هذه المطاردة لهوًا مسليًا . ولا عجب ، فصورة رجل عار يتسلل وراء ستار خال لاشك تدعو إلى الضحك .

وما إن قفز پيتر نحو الستار وهو يرجف من فرط تلهفه للقبض على غريمه حتى قفز آرثر من خلف ستاره واندفع نحو الباب وهو لا يقل رعدة عن مطارده من فرط اهتمامه بالفرار من قبضته . انتهز آرثر هذه الفرصة وولى هاربًا قبل أن يستدير له پيتر ، ولم يفته أن يوصد الباب خلفه بعد مغادرته الغرفة ، فكان صوت ارتطام الباب حافزًا آخر دفع پيتر إلى الإصرار على مطاردته . وبعد أن صب جام غضبه على الستار اللعين ، أسرع نحو الباب وفتحه على مصراعيه ، ولكن اللص الصفيق كان قد ولى ونجح فى أن يجعل الدرجات الأولى من السلم تقف حائلاً مؤقتًا بينه وبين مطارده .

وبعد أن رمى آرثر بالحكمة والتعقل جانبًا ، أطلق لقدميه الأسطوريتين العنان لتنزلقا سريعًا فوق الدرجات ، على حين وقف پيتر فوق قمة الدرج مترددًا لحظة ، ولكنه بعد أن أضاف كبرياءه إلى الحكمة والتعقل ، ضرب بكليهما عرض الحائط ومضى فى المطاردة ، فهبط الدرج بسرعة وراء النشال الذى كان قد بلغ ردهة الدار . وبينما پيتر فى طريقه إلى أسفل إذ قابل مارتا الخادمة التى صرخت قائلة :

- ربَّاه ! ما هذا الذى تأتيه يا سيدى ؟

فقال لها باقتضاب ، إذ لم يكن لديه متسع من الوقت ليفسرلها سلوكه :

- إننى أعدو كما ترين .

- أتظن نفسك أبانا آدم ؟ !

الصّوان التَّرْثار

ولحسن الحظ ، انطلق بيتر عريانًا كما ولدته أمه فى البهو دون أن يلحظه أحد من المدعوين الذين بدأوا يفدون إلى الدار ، مما جعله يدرك مدى حرج موقفه . ولأول مرة ظهر بيتر لنفسه كما يظهر فى أعين الناس الذين لا يجدونه رجلا بريئًا يسعى وراء الحق والعدالة ، فها هو ذا بكل بساطة ، تاجربن عارٍ يحيى ضيوفه على عتبة دار أسلافه . ولكن هذه الصورة التى شكلها لنفسه كانت زاهية جدا بالنسبة لأعصابه ، لذا فقد ترك روح طريده الجبان إلى يد الله العادلة تذيقها جزاءها ، ثم ألقى بنفسه داخل صوان الملابس قبل ظهور ساندرز لاستقبال الضيف الجديد بلحظة واحدة .

وفى ظلمة الصوان الحالكة أخذ بيتر يتحسس بيده ما حوله ، فراعه وجه آدمى ناعم الملمس تحسسته أنامله . فكان لهذا الاكتشاف وقع سيئ بعيد الأثر لا بالنسبة إليه فحسب ، بل بالنسبة لأى شخص غيره يجد نفسه فى مثل هذا الموقف . فالحق أنه من أكثر الأمور إزعاجًا أن يلمس الإنسان وجه إنسان آخر لم يكن يتوقع وجوده إلى جواره ، وبخاصة فى الظلام .

وهذا الشعور بالضبط هو ما انتاب بيتر ، فلو لم يكن على تلك الحال العارية المخزية لأطلق الصرخات الواحدة تلو الأخرى من فرط الفزع والروع .

وكذلك كان آرثر القصير خائفًا منزعجًا عندما سأله بيتر قائلاً بصوت يشوبه الذعر : من أنت ؟

فرد عليه صوت من غياهب الظلام قائلا : أنا « آرثر » القصير ، ذلك الفتى الذى كنت تطارده منذ لحظات .

ولو لم تشمئز غرائز «بيتر» كلها من فكرة لمس هذا المخلوق ، لكان «آرثر» القصير قد فقد حياته بين يدى «بيتر» فى الحال .

قال اللص معتذرًا: كم أنا آسف لنثر الماء على ظهرك يا سيدى !

فقال بيتر متأدبًا : لا تعر ذلك اهتمامًا ، فقد كنت على وشك الدخول إلى الحمام ، ولكن ألا تخبرنى بهذه المناسبة عن سبب وجودك فى غرفتى؟

- الحقيقة يا سيدى أنى لص . وقد جئت أبغى سروالا . نعم يا سيدى .. سروالاً واحدا فقط .

- أوه ، ليتك قد أتيت قبل ذلك بقليل ، فقد كان لدىَّ هذا الصباح سراويل كثيرة جدا ، أكثر مما أحتاج ، وأكثر مما يمكننى ارتداءه ولكن ماذا تفعل هنا أيضًا ؟

- إنى أفعل ما تفعله أنت تمامًا ، فأنا أتوارى عن أعين الناس .

وخيم الصمت لحظة على أهل الصوان حتى قطعه بيتر فجأة بصوت يدل على شدة انفعاله :

- بالرغم من ثقتى بأنك واقف أمامى ، إلا أنى أشعر بأنفاس ساخنة تكاد تلهب ظهرى . فبم تفسر ذلك أيها اللص ؟

- لست أنا الذى يتنفس وراءك يا سيدى ، فلقد فقدت القدرة حتى على التنفس .

فاستدار بيتر غاضبًا وقال :

- يا إلهى ، إن هذا لايطاق ، إنه موقف غريب . أرانى محاطًا من كل اتجاه !

وبينما هو يلوح بيده إذ نفذ أحد أصابعه فى فم چوزفين ، فعضت عليه بأنيابها بحكم طبيعتها وطبيعة الموقف الذى لا يدع لها مجالا لتتصرف غير ذلك وقالت :

- انزع يدك من فمى فوراً .

فأخرجها وهو يقول :

- وماذا تفعلين هنا مع أرثر القصير ؟

- ما ظننتُ أنى سأشرف بمقابلة هذا الـ « أرثر » فى مثل هذا المكان ، فقد وصل سيادته إلى هنا عقب دخولى .

- يا له من مجرم قذر ! .. سوف أخنقه بكلتا يدى حتى أزهق روحه .

فانكمشت عينا أرثر حتى بات من المتعذر عليه أن يميز بهما فى الظلام غير ذراعى بيتر العاريتين ، وصاحت چو مشجعة :

- هيا أسرع وأزهق روحه : فالمكان كما ترى ضيق لا يتسع لثلاثتنا .

فقال بيتر : ولكنى لا أحب البقاء وحدى معك إلى جوار جثة لص زنيم .

قالت چو : لا دخل لجثة ذلك اللص الزنيم فيما بيننا قط .

فقال أرثر : يا لك من امرأة فاجرة ! من أى بؤرة أتيت ؟

قال بيتر : وأنت لم تبعتها إلى هنا ؟

قال أرثر : لم أكن أعلم قط أنها هنا . ولن أعود لمثل ذلك مرة أخرى .

فقالت چو : لا تصدقه : فهو كاذب . لقد تبعنى إلى هنا عامداً .

فقال أرثر : بل لاتصدقها هى ، فهى تحاول إثارتك ضدِّى . ألم تفطن بعدُ إلى مآربها ؟

فصرخت چو قائلة : أطبق فمك أيها الفأر الحقير ، وإلا نزعت لسانك الدنس من بين فكيك .

فقال أرثر : لا تشجعها على مهاجمتى بهذا الشكل يا سيدى ، فهى تريد إثارة المتاعب لكلينا .

فقال پيتر : نحن غارقون حتى أذقاننا فى المتاعب التى لا تنتهى وليس لنا منها خلاص ، ثم ما الذى سنفعله لو فرض أن أحداً فتح هذا الصوان ؟

قالت چو : سأقسم أننى استُدرجت إلى هنا .

قال پيتر : وما حُجتك التى تثبتين بها صدق الادعاء الفاحش ؟

قالت : سأقول إنك وعدتنى بمعطف من الفراء .

قال : لن يدل هذا إلا على انحراف سلوكك .

قالت : وسلوكك بالمثل ، وإذا لم توافق على ذلك فسأقول إنكما تعاونتما ودفعتمانى إلى هنا عنوةً .

فتدخل آرثر مرة أخرى وقال : لا تجهد نفسك معها ؛ فهى امرأة لعوب ماكرة ، وأحمد الله أن أراحنى الظلام من رؤية وجهها الذى يقطر شرا .

فصاحت چو : اخرس أيها المجرم القزم الذى لن يجد من يقبل الدفاع عنه فى أى محكمة .

فقال پيتر : الزما الصمت ، وإلا فستجدان أهل المنزل قد جاءوا عن بكرة أبيهم جميعًا على صوتكما .

فتمتمت چو : أواه ، كيف الخلاص يا رب ؟.. أأظل محبوسة هكذا فى صوان بين رجل عارٍ ومجرم حقير ، لا أدرى أىَّ وجهة أتجه ؟

فقال پيتر : الأفضل أن تستديرى نحوى ، ولكن كيف عرفتِ أنى عارٍ ؟ أوه ! يا إلهى ؟ أهذه يدك ؟ لقد كنت أظنها يدى طول الوقت . إذن لا غرابة أن تعرفى أنى عار ، هه !

فضحكتْ چو بخبث فى الظلمة الحالكة وقالت : لقد لحظتُ ذلك فى أثناء دخولك المثير يا سيدى .

فقال بيتر : وإن لم ترفعي يديك في الحال فسوف تشهدين خروجي المثير كذلك .

قال آرثر : لن تُجْدِى المناقشة مع هذه المرأة يا سيدى ، فأنا خبير بهذا الصنف من النساء .

فقال بيتر : ولم لا تفعل شيئًا وأنت الذى سقتنى إلى هذا الموقف الشائن ؟

فصاح النشال محتجا : لا يا سيدى ، لست أنا الذى ساقَك إلى هنا . فقد كنتُ أحاول الإفلات منك ، وأنت الذى أصررت على مطاردتى .

قال بيتر : لم يكن هناك بد من ذلك .

قال النشال : أأنا الذى أرغمتك على متابعتى وأنت على هذه الهيئة المزرية ؟

قال بيتر : لقد أردت الفتك بك ، وما زلت أتوق إلى ذلك .

قال آرثر : أرجو ألا تفكر فى ذلك بعد الآن .

وبصـوت ينم عن الدهشة والاستغـراب صـاحت « چو » مخاطبةً «بيـتر» :

– أوه ! أنت غاية فى النحافة يا بيتر !

فقال بيتر منفعلاً : ارفعى يـدك عن جسـدى . ألا تخجلين من نفسك ؟

– إنه أنت الذى لا يخجل من نفسه . ففى هذا الصباح تخلع سروالك فى المكتب ، ثم تعتدى علىَّ فى القطار ، وبعد ذلك تتبعنى عاريًا إلى هذا الصوان المظلم ، ثم تتوقع بعد ذلك أن استشعر الخجل فى تصرفاتى معك !

فتدخل آرثر ظانا نفسه قد وقع بين براثن قوم داعرين :

– أحقا ما تقولين يا سيدتى؟ . هل فعل هذا السيد ذلك كله ؟ أعنى خلع سرواله ، إلى غير ذلك مما ذكرتِ ؟

– نعم . لقد تجرد صباح اليوم من سرواله فقط ، أما الآن فقد تجرد من كل ثيابه، ولا أدرى ما سيفعله بعد ذلك .

ثم أردفت « چو » بصوت رخيم يفيض دلالاً :

- بيتر ! قل لى : هل تبدأ سلسلة ظهرك من هذا المكان ؟

- لا ، بل تنتهى فى هذا المكان .. !

فقالت بسرعة : أوه ، لشدَّ ما أنا آسفة .

- إذن أرجو أن تُبعدى يديك عنى .

فتمتم آرثر قائلا :

- أحمد اللّه أن المكان مظلم ، وإلا احترتُ أين أدير وجهى .

فصاحت چو قائلة : ألا تقذف بهذا المتسول خارجًا ؟

فقال آرثر : الواقع أنى أفضل الخروج عاريًا على بقائى هنا تحت رحمة محاولاتك الفضولية السَّمِجة .

كان ساندرز فى ذلك الوقت يتسمع على باب الصوان عندما خرجت العمة صوفى من غرفة الجلوس مع بعض ضيوفها وعلى رأسهم يولندا ، فلمحت رئيس الخدم وهو يقــرب أذنه من باب الصوان حتى كاد يلاصقه ، فسألته :

- مـاذا تفعل عندك يا سـاندرز ؟ إن منظرك يوحى بأنك قد رأيت شبحًا . فهز ساندرز رأسه بهدوء وقال بصوت خفيض :

- أظن أنى أسمعهم جيداً يا سيدتى ، ويبدو أن اللّه قد وهب هذا الصوان القدرة على النطق .

- ما هذا الهذيان ؟ هل سمعتَ عن صوان ناطق ، يبدو أنك تخرف يا ساندرز !

فقال مؤكداً : لكنه بالفعل ينطق ، وها أنذا أصيخُ سمعى إلى مناقشة تدور بين ثــلاثة أشخاص مختلفى الصوت ، وأحدهم له صوت امرأة .

- ماذا ؟ امرأة ! فى الصوان ؟ هذا عجيب !

فقالت العمة صوفى فى الحال : افتح باب الصوان ياساندرز .

وحاول ساندرز فتح الباب ، ولكنه استعصى عليه ، ولما عاود الكرة مرة أخرى بكل قوته ، انفتح الباب على مصراعيه فجأة ، مصحوبًا بأنين طويل يدل على يأس صاحبه ، فارتد الخادم للخلف وهوى مرتطمًا على الأرض بشدة . وفى الحال أُغلِق الباب من تلقاء نفسه كما لو كان يحتج على هذا الاعتداء الصارخ ، فصاحت العمة صوفى :

- ما الأمر ياساندرز ؟ لقد سمعتُ صوتًا يشبه صوت الحيوانات .

فقال ساندرز مترددًا : هل حتم علىَّ أن أتكلم يا سيدتى ؟

قالت العمة صوفى : بلا شك ، تصوَّر ما قد يحدث لو حضر بيتر الآن ووجد هؤلاء الناس فى الصِّوان ، وأنت تعلم شدَّة مقته لهذه المواقف !

تطلَّع ساندرز إلى الصوان عندما قالت يولندا :

- تكلم وأسرع يا ساندرز . ماذا رأيت بداخله ؟

- يبدو أن هناك أشياء أخرى غير الفراء يا سيدتى . لقد لمحتُ بعضَ الناس .

فقالت العمَّة صوفى : مُرهُمْ أن يخرجوا فى الحال .

فقال الخادم مأخوذًا : لا أوافقك على هذا الرأى يا سيدتى .

فتدخل «پرسكوت» - أحد الضيوف - قائلا: سأعالج الأمر بنفسى. وسأرغمهم على الخروج مَهْمَا كلَّفنى الأمر ، ومهما كانت شخصياتهم .

فقال ساندرز : أنا لا أنصح بذلك، خصوصًا فى حضرة السيدات . وأرجو ألا تواخذنى إذ أجدُ نفسى مُرْغمًا على التصريح بذلك .

وهنا صاحت فتاة تدعى مادچ يبدو من عينيها أنها قد شاهدت كل ما يمكن مشاهدته فى الحياة ولا ينقصها سوى ذلك المنظر لتتم دورة مشاهداتها :

- ما هذا الهراء الذى تقوله يا ساندرز ؟ إنى لن أبرح مكانى هذا حتى أرى من أولئك المتوارُون فى هذا الصِّوان .

ورأت سيدة من المدعوات أن الموقف ما زال غامضاً ، فقالت :

- لم لا تخبرنا يا ساندرز بما رأيته حتى يمكننا التصرف وحسم هذا الموضوع .

وقالت العمة صوفى موافقةً : نعم ، تكلم أيها الرجل فقد نفد صبرنا .

- إه ، أمركم . الواقــع أنه قد خُيِّل إلىَّ أن بالصوان «چنتلماناً» عـارياً .

- مستحيل !

- كنت أود أن أقــول غير ذلك ، ولكنها الحقيقة . فإما أن يكون هذا الرجل قـد تجـرَّد من ثيابه بمساعدة الفتـاة الماثلة إلى جــواره ، وإما أن يكون قـد تجرَّد منها بنفسه وأوشك أن يساعد الفتاة على نزع ثيابها هى الأخرى .

فقالت يولندا : أكان ينبغى أن تكون بمثل هذه الدِّقة والأمانة فى نقل الصورة ؟

- لقد كانت الصورة أمامى ساطعة مَجْلُوَّة .

- أنا فى أشدِّ العَجَب من هــؤلاء النـــاس ! أين يظنون أنفسـهم ، بل مـا الذى يمكنهم أن يفعلوه داخل صوان ؟ !

فأجابتْ الفتاة التى يلوح أنها شاهدتْ كل شىء فى الحياة :

- بالطبع ، يمكن أن يفعلوا أى شىء تتصوَّرينه ، خصوصًا إذا أفلح الرجل فى تنفيذ مقاصده .

فتساءلت يولندا : تعنين فى هذا الصِّوان ؟

فنفَد صبر العمَّة صـوفى التى اندفـعت قـائلة بصوت مؤثر : اللَّه وحده يعلم ما يحدث داخل هذا الصوان الآن ونحن مشتبكون فى حديث لا طائل وراءه .

ثم سألت العمة صوفى رئيس الخدم : لقد سمعتك تقول إنه «چنتلمان» ، فهل أنت متأكد من ذلك ؟

- هذا سؤال دقيق شائك يا سيدتى . فأنا لم أرَ شيئًا يستُر بدَنَه على الإطلاق .

وهنا التفتتْ يولندا إلى ساندرز قائلة : هل أمعنتَ النظر فى وجهه يا ساندرز ، وكيف شكله ؟

– لم أرَ وجْهه يا سيدتى .

فسألته مادج بشغف : إذن فماذا رأيت ؟

– ظهرَه فقط يا آنسة ؛ لأنه استدار بسرعة فائقة .

فعلقت إحدى السيدات بقولها : إذن فلديه طبائع «الچنتلمان» على الأقل .

فاعترضت مادج قائلة : لا يمكن الحُكم بذلك ، فحتى اللص الخبيث قد يشعر بالخجل فى مثل هذا الموقف .

استدار پرسكوت نحو رئيس الخدم وراح يسأله : وهل رأيت المرأة ؟

– يلوح لى أننى قد شاهدت وجهها من قبل ، فهى تشبه فتاة أتَتْ إلى هنا منذ فترة قصيرة تعلننى فيها أنها على وشك الاقتراب من حادث سعيد .

فصاحتْ العمة صوفى : أنت كثيراً ما تحتفظ بالمعلومات الهامة لنفسك يا ساندرز ، فهل تعنى أنك وَضَعْتَ هذه المرأة فى الصوّان لتلد طفلها ؟

– لا يا سيدتى . فلقد كنت على وشك أن أخبرك بأنها غادرتنى لكى تنتحر . فقد طرحت علىَّ بضعة أسئلة بخصوص بعض الأنهار ، والتزمت بدوْرى الدقّة فى الإجابة عليها .

فقالت مادج : ربما تكون قد عادت حتى تعرف أى الأنهار أعمق !

فصاحتْ العمة صوفى: يا إلهى ! ماذا تُرانا فاعلين؟ ففى هذا الصوان رجل عارٍ ، وامرأة على وشك أن تضع طفلها أو تنتحر ، أو ربما ما هو أسوأ من ذلك ! پرسكوت ، أنت رجل ، ألا تقترح شيئًا ؟

فأجابها پرسكوت بلهجة حازمة وهو يتّجه نحو الباب : سأدعو الشرطى .

فعَدتْ مادج وراءه وهى تقول: أظن الأفضل، فى مثل هذه الظروف، أن تدعو كاهنًا أو طبيبًا .

ولكنها لم تستطع اللحاق به .

همس بيتر إلى زميليه بالصوان قائلا : لقد قُضِى الأمر بذهاب ذلك الحِمار لاستدعاء رجل الشرطة .

فتمتم آرثر : لعنة اللَّه على هذا السروال الذى أوقفنى هذا الموقف المشين !

ولم تشأ «چو» أن تدع الحديث يسترسل دون أن تتدخل ، فقالت :

- آه . وما رأيك فى سروالى يا آرثر ؟

قال آرثر : باللَّه مُرْها أن تلزم الصمت يا سيدى ، فنحن فى مأزق خطير .

قال بيتر : أنا أدرك الآن نهاية هذه المهزلة . وسأخرج عليهم حالاً .

فصاح النشال : لا ، لا تقل إنك ستخرج عليهم بحالتك هذه .

فرد بيتر قائلا : بل هذا ما سأفعله بالضبط ، ولكن بعد أن أرتدى هذه السترة .

ثم أخذ يتحسس فى الظلام ، حتى صادفت يده أول سترة ، فتناولها وأحاط بها جسمه ، ولحسن حظ بيتر أنه لم يكن ليستطيع رؤية نفسه وإلا فقد ثقته واعتداده بنفسه ، فقد كانت السترة من الفراء وتخص عمته صوفى ، ومع أنها كانت قصيرة إلا أنها حجبته إلى حد ما .

قالت چو : انتظرلحظة ولا تتركنى وحدى مع هذا المجرم ، فقد انتويت التنكر بالمثل .

فانفجر آرثر قائلا : لا داعى لخوفك : فأنا لاأهاجم أمثالك .

قالت چو : أنا على أتم استعداد الآن . اخْرج أمامى . وأنا أتحدى من يستطيع أن يميزنى .

فقال لها پيتر وهو شديد الرغبــة فى معرفة ما انتوته : ماذا ارتديت ؟

– نظارة ومعطفًا واقيًا من التراب.

– ما رأيك لو تبادلنا الملابس ؟

– قد سبق السيفُ العَزْلَ ، وجـاء اقتراحك هذا متـأخرًا جدا ، فعلينا أن نُسرع بالخروج .

وهنا صاح آرثر مستعطفًا : بالله لا تتركانى وحدى .

فردَّت چو قائلة : كم أتمنى لو تركتك هنا جثـة هامدة .

فقال آرثر : ليتك تفعلين .

وصـادف أن وصل الشرطى يتبعه برسكوت فى اللحظة التى يمكنهمـا فيـها مشاهدة خروج پيتر ڤان دايك المثير . أما ما عقد لسـان الشرطى وأثار دهشته – برغم أنه خبير بمثـل هذه المواقف الحَرجة العجيبـة – فـهو طول سـاقى پيتر وظهورهمـا عاريتين . ومع أن سـاقى پيتر طويلتـان ونحيفتـان ، إلا أنهما غير شائهتين أو بشعتين ، بل كانتـا سـاقين عـاديتين لا يعيبهمـا شىء إلا أن ظهورهما عـاريتيْن متـدلِّيَتَيْن من معطـف نسـائى من الفراء قد أثار الدَّهشة .

وفـعـلا بدَتْ الدَّهشـة على الشـرطى الذى لا يذكـر أنه رأى مـثل هاتيْن السـاقيْن الغريبتيْن تحملان إنسانًا أو حيوانًا ، وبرغم شذوذ منظرهمـا ، فقد حَملتا صـاحبهما نحـو الدَّرَج المؤدى إلى الطابق الأول ، وتسلل وراءه شىء غريب لم يكن يبدو عليه أنه مخلوق بشرى فى أول الأمر . ولم يكن هذا الشىء غير « چوزفين » بنظارتها السوداء القاتمة ومعطفها الفضفاض الوسيع .

اتَّجهت چو بسرعة نحو باب الخروج ، فـأوقفها الشرطى بصوت أجش قائلاً : «الزمى مكانك ، ولا تبرحى هذا المكان» .

وفى الوقت نفسه ظهر «آرثر » بعد أن أمْعَنَ فكْرَه وفضَّل جحيم السجن على الانزواء وحده داخل الصوان . ولذا خرج سائرًا بتوتُّر ظاهر على أطراف أصابعه متتبعًا پيتر ، فأوقفه صوت العمة صوفى وهى تصيح :

- پيتر ! پيتر !

فأجاب «پيتر» بصوت طبيعى يتناقض مع مظهره ، حتى إنه أذهل رجل الشرطة الذى كان يتوقَّع منه إجابة مُناقِضَة تمامًا لما سمع :

- نعم يا عمَّتى ، هل تنادينى ؟

- بربِّك ، ماذا كنت تفعل هنا يا «پيتر» ؟

- لاشىء البتة يا عمَّة . لقد كنت آخذ أهبتى استعدادًا للحفلة .

فقالت وهى تشير بازدراء نحو «آرثر» القصير : وهل هذا تابعك ؟

ففوجئ «پيتر» وبدأ يفقد تماسكه ، ثم قال : مَنْ ؟

فلما التفت ورأى نظرات الاستجداء والاستعطاف تنبعث من عينى اللِّص التعس، لان قلبه له وقال: آه ، هذا الشخص. أجل هو تابعى .

وهنا فطن «پيتر» إلى أن آداب اللياقة تدعوه لينحنى مُحَيِّيًا ضيوفه، ففعل ، ثم أتبع ذلك بقوله :

- كيف حالكم جميعًا أيها السادة ؟

ثم استطرد قائلاً: نعم ، لقد طلبتُ منه أن يتبعنى لكى يعاوننى على ارتداء ثيابى ، فهو خادمى الجديد ، ألاَ يروقك مَرْآه ؟

فانفجرت العمة قائلة : لا بالطبع ، فله سحنة المجرمين .

وهنا تدخل رجل الشرطة قائلاً : أمَا زال هناك غيركم فى هذا الصِّوان ؟

- بالطبع لا !

فسأل الشرطى العمَّة : هل أصيب ابن أخيك بخَلَل فى عقله يا سيدتى ؟

فردَّت يولندا بدلا عنها قائلة : لا ، ولكنه يعانى كثيراً من إنهاك العمل .

وقال بيتر بعد أن رسم ابتسامة ضعيفة باهتة على شفتيه :

- شكراً يايولندا ، ولكن الحقيقة هى أنى أعانى كثيراً من المبالغة فى عرض جَسَدى .

وفجأة صاحت مادج : السُّترة تنزلق . خذ حذرك يا بيتر !

فكان لإنذارها أثر طيب ، إذ أنقذ بيتر نفسه فى آخر لحظة ، وأومأ نحو مادج التى لم تحوِّل عينيها عنه وقال :

- شكراً يا مادج ، فقد كنت حريصاً ألا يحدث هذا .

وهنا انبثق صوت عال ممزوج بشهقة حادة اتضح أنه صوت ذلك المخلوق المتنكر وراء النظارة السوداء والمعطف الفضفاض قائلاً :

- جواربى . جواربى . لقد نسيتُها !

وأسرعتْ لتقتحم الصوان ، ولكنها لم تكد تبلغه حتى اعترضَتْها يدُ الشرطى وهى فى منتصف الطريق وعاقتها عن دخوله ، وقال الشرطى :

- ولا هذا أيضاً ، فأنت ستظلين هنا .

فركَلَتْه چو بقدمها فى ساقه ركلة فرنسية حاذقة وقالت : أسأظل هنا حقا ، لا وربك فسأبحث عن جواربى .

وعلقت مادج على ذلك بقولها : آها .. إذن فقد نزع عنها ثيابها !

لم يُعِرْ أحد من الحاضرين أى اهتمام بما أصاب رجل الشرطة من ألم ، فقد كانوا يعتقدون أن هذا الأمر جزء لا ينفصل عن عمله ، باستثناء آرثر الذى شرع فى الضحك وهو فوق الدرج متناسياً متاعبه وقال :آلمتك كثيراً !؟

فرد الشرطى قائلاً : آلمتنى ؟ لقد حطمتنى وستبعث بى إلى القبر .

وبينما چو تنهض وجواربها فى قبضة يدها ، بادرتها العمة قائلة بحدة :

– أيتها المـــرأة ، هل ســبق أن قلت لرئيس خــدمى إنك على وشك الولادة ؟

فـأجابت چو بتؤدة وهى تـضع الجوارب فى مخـبئـهـا الرقيق الناعم ، وقـد تدلى أحدها فوق المعطف :

– أخالنى لن أدهش إذا وضعت أربعة أطفال . أتستغربين ذلك ؟

فلم تشأ العمة أن تَخُوض فى المناقشة أكثر من ذلك ، فسألتها قائلة :

– هل لى أن أسأل عما إذا كنت ترتدين شيئًا تحت هذا المعطف ؟

– وما الذى تظنين أنى أرتديه، أو يرتديه بيتر تحت هذه السترة ؟

وأشـارت نحـو المخلوق الغريب الواقف على رأس الدرج ، فتحولت الأنظار تلقـائيا نحوه ، وفطن الجميع إلى أنه لا يرتدى شيئًا تحت سترته يوارى سوأته . وفى الوقت نفسه تمكن الشرطى من النهوض وتطلع نحو آرثر قائلا : ما الذى يثير ضحكك ؟

فرد آرثر مشيراً نحو ساقى بيتر : هذه الـ ...

فاستدار بيتر نحو النشال غاضباً وقال : ماذا تقول أيها الـ ...

– أرجوك ، لا تقلها يا سيدى ، فأنا لم أضحك على الإطلاق .

فرد الشرطى المهان واعداً آرثر : لأجعلنك تُجَنُّ من الضحك فى المَخْفَر.

وبعد هنيهة قالت يولندا بصوت منخفض يبدو فيه الحزن والأسى :

– طبعًا لن تتم الخطوبة اليوم ياعمتى . فقد أفســـد هذا الحادث كل شىء .

– الحق معك ، ولكن لنتصرف بحصافة كما لو لم يحدث أى شىء ، والآن قودى ضيوفنا إلى غرفة الاستقبال .

فصاحت «چو» وهى تلوح بذراعها مهللة ويداها مختفيتان داخل الكمّين الطويلين :

- الحمد للّه ، لقد نجوت يا پيتر ، لقد نجوت ، وستبقى لى وحدى .

فرد پيتر : «ولعنة الله على الحياة إلى جانبك» !

وهنا دق الجرس ، وقدم ساندرز بعض الضيوف الجدد الذين دهشوا للمشاهد التى صادفتهم ، فصاح أحدهم وقد شحب لونه بمجرد وقوع نظره عليها : ما هذا ؟

فردت سيدة كانت تصحبه : لا أدرى ، إنه أمر عجيب ، إن پيتر ڤان دايك يكاد يكون ...

ثم احتبس الكلام فى حلقها ولم تستطع النطق .

قالت العمة صوفى محاولة أن تفسر ما غمض عليهم : لا تدهشى يا عزيزتى ، فقد كنا نلهو قليلا . قوديهم يا يولندا ليتناولوا شيئًا من الشراب .

فامتثلت يولندا للأمر وذهبت بهم ، واستطردت العمة قائلة وهى توجِّه حديثها بقسوة نحو چو :

- لقد كان سلوكُك معيبًا مخجلاً أيتها الفتاة ، ولا أدرى ماذا أصنع بك. بديهى أنكِ لصّة، وربما تكونين أسوأ من ذلك . عليك بمغادرة الدار فى الحال بهدوء ودون صخَب . وطبيعى أنكِ ستتركين ما سلبته هنا قبل خروجك .

- ليس ما سلبته بذى قيمة على كل حال .

فتدخل پيتر محاولا مساعدة الفتاة المنبوذة الواقفة بالردهة قائلاً :

- إنها لم تسلبها يا عمتى ؛ فأنا الذى أعطيتها هذه الملابس لتوصلها إلى صديق لى يزمع القيام برحلة وطلب استعارتها منى ، فأرسل إحدى خادماته لتسلمها ، وهذا كل ما فى الأمر .

- إذن فلِمَ ترتديها بهذه الصورة المضحكة ؟

– لأن هذا يُسَهِّل عليها مهمتها، فلا يكلفها مَشَقَّة حمل هذه الثياب، ولعل هذا التصرف يسليها . من يدرى ؟

– ولكنه لا يسلينى أنا .

– تعال يا آرثر لتعاوننى على الاستعداد للحفلة .

توقف بيتر لحظة ، ثم ألقى بنظره نحو چو التى خلعت نظارتها وظلت ترنو إليه مستنجدة كما لو كانت طفلا يرغمونه على التوجه نحو فراشه ، ولكنه فطن إلى أنه طفل من ذلك النوع الذى لا يجوز السماح له بالنوم وحده .

قالت «چو» : وداعًا يا سيدى ، وأشكرك على ما فعلته بى ، ولو لم يكن لك أى حق فى أن تفعله .

ولأن «چو» أنثى ماكرة ، فقد حرصت على أن تقول قولها هذا عندما تأكدت أن «يولندا» ستسمعها ، فصاح فيها الشرطى : أطبقى فمك أيتها الفتاة . ألا تخافيننى ؟

فردت «چو» قائلة : أنتَ لا تخيف إلا نفسك . أراك تكاد تنام وأنت واقف على قدميك .

ثم لم تلبث أن غادرت المنزل وأغلقت الباب وراءها .


مفاجآت الضباب

ما كاد بيتر يخطو أول خطوة داخل غرفته حتى أوصد بابها وراءه بعنف شديد ارتعدت له فرائص النشال المسكين ، ووقف آرثر إزاء الباب يفكر في رجل الشرطة الذى كان صوته لا يزال يدوى فى الردهة السفلى ، حتى قطعه صوت العمة صوفى وهى تقول لساندرز : اصطحب حضرة الضابط إلى المطبخ ، وأعطه زجاجة من الخمر ، لعلها تزيل بعض ما سببناه له من متاعب .

كف قلب آرثر عن الخفقان لحظة ، فقد قطع عليه خط رجعته إذا حاول الفرار ، فضلاً عن أن أمامه حساباً طويلاً داخل الغرفة ، إن لم نقل عسيراً خطيراً . وبرغم ذلك فقد بسط كتفيه ، ورفع يده بخجل وتردد ، وطرق الباب بهدوء .

فصاح بيتر من داخل الغرفة: ادخل أيها المجرم ، وقل لى منذ متى تعلمت الطرق على الأبواب ؟

وبطريقة آلية اتخذت كتفا آرثر وضعهما الأول الدال على الإجهاد العصبى الزائد وهو يدلف إلى الحجرة .

فلما لم يجبه آرثر صاح بيتر مكرراً السؤال بلهجة عنيفة : منذ متى وأنت تكلف نفسك مشقة النقر على الأبواب أيها الشقى ؟

فأجاب آرثر وهو يرقب بيتر الذى كان يكرع أكواب الخمر بشراهة زائدة :

- إنى أطرق الأبواب دائماً يا سيدى ، باستثناء أوقات العمل .

قال «بيتر» وحَلْقُه مشغول فى شكل دائب بجرع كؤوس الويسكى : أيتها الحشرة الخبيثة ، أنت لا تساوى فى نظرى قَمْلَة ، بل أقل من قملة .

فرد «آرثـر» محتجًا : أيليـق بك يا سيدى أن تخاطبنى بمثـل هذا الأسلوب ؟

– اللائق بى ألا أخاطبك على الإطلاق ..

– تأكد يا سيدى أن هذه هى المرة الأولى التى أسطو فيها على أحد المنازل لغرض السرقة . فمهنتى الحقيقية هى النشل فحسب .

عب بيتر قدحًا آخر ثم قال : أتظن أنك تخدعنى بادعائك أن هذه هى أول مرة تحاول فيها السرقة من البيوت ؟

– ثق يا سيدى أن هذه المرة الأولى التى أقوم فيها بهذه المحاولة ، ولم أكن أبغى فى الواقع سوى بعض السراويل القديمة .

– أنت كاذب ، فمثلك لا يمكن أن يرتدى سراويلى ، لأنها حتمًا ستتدلى تحت ركبتيك المشوهتين .

– أنا لا أبغى الأناقة، وحسبى أن أشبكه بدبوس أو شريط أو حتى بمسمار قديم .

شرد ذهن بيتر لحظة عندما سمع هذا التفسير ثم صاح قائلا : أراك مهتما بهذه السراويل ، وعليه فسوف أحقق لك أمنيتك .

ثم قدم لآرثر سروال الصباح الذى كان قد ألقى به على أحد المقاعد ، فتناوله آرثر وهو يقول : ولكن ألا ترى معى أن هذه الخطوط البرتقالية تجعل لون السروال فاضحًا وشكله جالبًا للسخرية ؟

– كيف أبحت لنفسك الوضيعة الحكم على سروالى ؟ ثم كيف تجسر على نقده أمامى ؟ إن فخذك العجفاء لم تشرُف بعد بالدخول فى مثل هذا السروال الحريرى الأنيق طول حياتك .

– نعم يا سيدى، فإنى لم أرتد هذا الصنف من السراويل من قبل ، لأنى لا ألبس إلا السراويل العادية ، أعنى السراويل «الرجالى» . وبعد أن رأيت هـذا السروال ، أرى أن كل ما تكبدته من مشاق حتى الآن كان مجهوداً ضائعًا .

فرد « بيتر » وقد جحظت عيناه من فَرْط ما شَرِب : « سأمنحك أجمل سراويلى لتلبسها ، ولَدَىَّ ما هو أكثر من ذلك رونقًا وشذوذًا » .

وأسرع بيتر نحو خزانة الملابس وأخذ ينبش فيها ، ثم تناول أحد السراويل وقال : خذ هذا ، فهو أجمل سراويلى وأبدعها زركشة . ألا ترى عناقيد العنب الحمراء والقرمزية البديعة ! أسرع بلبسه فإنه سروال رائع . اخلع عنك هذا البنطلون وعَجِّلْ بارتداء السروال .

ولكن آرثر اعترضه قائلا : مهلا ، إذ يتحتم أن أنزع كل ما علىَّ وأغدو عاريًا حتى أستطيع ارتداء هذا السروال ، فأنت ترى أنى أرتدى سروالا كالمِبْذَلة ذا سيقان طويلة .

فرد بيتر قائلاً : وما العيب فى ذلك ؟ يمكنك ارتداء هذا السروال فوق سروالك الطويل . أسرع بالله ، أسرع .

فقال آرثر لائمًا : ولكن أخشى ألا يبعث المنظر على الرضا يا سيدى .

– لابد أن ترتدى هذا السروال ولو أدى الأمر أن أشجَّك نصفين لأدخلك فيه ، أسرع أيها الفتى ولا تجعلنى أفقد أعصابى .

– أخشى إذا ارغمتنى على ارتداء هذا السروال أن أفقد صوابى .

فقال « بيتر » وهو يخطو نحو الرجل : أظنك ستفقد شيئًا آخر إذا لم تلبسه فى الحال .

فتمتم المخلوق التعس وهو ينزع ثيابه الخارجية : يا إله السموات ، أأعانى كل هذه المصاعب والمشاق لأنى تطلعت إلى أن أكون نظيفًا فحسب ؟

فقال بيتر وهو يطرح الأسمال البالية التى كان يرتديها النشال مطمئنا : أنا لا أرى فيك ما يخجل ، اللهم إلا ظهرك ، فإنه مثير ، بل هو أسوأ ظهر يمكن أن يكون لرجل ما .

فقال آرثر مرتبكًا والألم يحز فى نفسه كمـن لدغته عقـرب : ناشَدْتُكَ السكوت !

فـقـال «پيـتـر» آمـراً : والآن البس هذا فـوق سـروالك حـتى تخـفـى منظرك المنفِّر وبخاصة ظهرك .

وهنا دقَّ الباب دقات خفيفة أعقبها دخول ساندرز . والواقع أن هيئة رئيس الخدم كانت تعبر تمامًا عن مدى دهشـته إزاء ما يحـدث فى الغرفـة من أمور غريبـة. ولكن تقاليد مـهنته حملته على التغاضى عما رآه ، وإن كانت عيناه قد فضـحتاه ، والتغير الذى ارتسم فيهما صار واضحًا جليا : فقد كان منظر آرثر القصير وهو واقف وسط الحجرة كالعذراء الخجول فى سوق الرقيق يفوق كل وصف . وبعد أن أدرك النشال حرج موقفه ، أرخى عينيه لأسفل خجلاً .

أما ساندرز فقد تنحنح من وراء يده الضخمة الغليظة ثم قال :

- لا تواخذنى يا مستر پيتر . هل هذا هو الخادم الجديد ؟

فقال پيتر : آه ، نعم ، وقد رأيت أن أجرب كيف يبدو منظـره فى مثل هذاالنوع من السراويل ، فطلبت منه القيام بالتجـربة . وبهذه المنـاسبة : قل لى ما رأيك فيه يا ساندرز ؟

- نِعْمَ السروال يا سيدى .. وإن كان من بداخله شديد القذارة .

فرد پيتر معلقًا : هذا أمر سهل ، إذ يمكننا نَزْع من بداخله ، ثم نطهره بالغسيل . فاقترح ساندرز قائلاً : بل بالحرق .

فانفجـر آرثر مستـعطفًا : لا ، ليس هذا من اللطـف فى شىء ، إنى لأفضِّل أن تستدعى الشرطى ليقودنى إلى المخفر .

واستطرد ساندرز قائلا: نسيت أن أذكر لك أن الآنسة يولندا وعمتك تنتظرانك فى الردهة . وقد حان الوقت لاستدعاء المركبة إذا كنت تنوى السفر «بالمعدية» .

فسأله پيتر : ولم بالمعدية ؟

فقال ساندرز ، والله وحده يعلم ما كان يجول بخاطره : لأن الآنسة يولندا تجد « قطار الأنفاق » مزدحمًا بطبقة العامة من الشعب ، وهى لا تكاد تستطيع التنفس بينهم .

ازدرد پيتر قدحًا آخر ثم التفت نحو آرثر بسرعة وقال :

- احزم الحقيبة يا آرثر .. وتذكر أنك تعدها لى لا لنفسك .

- وهل أعدها وأنا بهذا الشكل الذى ترانى عليه ؟

- بكل تأكيد ، فذلك يسرِّى عنى وأنا أرتدى ثيابى .

ثم التفت نحو ساندرز واستطرد قائلا: أرجو أن تخبر الآنسة يولندا، بعد أن تبلغها تحياتى ، أنها إذا لم تكن راغبة فى ركوب «قطار الأنفاق» فعلينا أن نستقل القطار العادى، فأنا لا يمكننى أن أقود السيارة أو يقودنى أحد فى مثل هذه الليلة الحالكة ذات الضباب الكثيف .

فأومأ ساندرز قبل مغادرته الحجرة وهو يقول : أجل يا سيدى .

ثم ألقى بنظرة تعبر عن مدى شكه فى أمر آرثر ، وغادر الحجرة .

وما كاد الباب يغلق خلف ساندرز حتى صاح آرثر قائلا : ما كان ينبغى لك أن تدعه يرانى على هذه الصورة ، فهذا أكثر مما يحتمله أى إنسان .

- ثق يا آرثر أن ساندرز قد أعجب بك إعجابًا شديدًا . وما من شك فى أنه قد أُخذَ بمنظرك. فلا تعد إلى التفكير فى هذا الأمر بعد الآن . خذ الحقيبة واتبعنى بسرعة .

وبعد نصف ساعة غادر پيتر ويولندا دار ڤان دايك لقضاء عطلة الأسبوع بنيو چرسى . وكان آرثر فى إثرهما ينوء بحمل حقيبتين على كاهله الواهن . وكان پيتر ثملا إلى حَدٍّ ما ، على حين كانت يولندا ساخطة متبرمة بحماقات پيتر التى لم يفلح فى إقناعها بما ساقه لها من مبررات . فقد كان يتوقع منها أن تتقبل أمورًا كثيرة ، وكثيرة جدا على علاتها . كما أنها رأت بثاقب فكرها أنه طالما لم يُشْفَ الناس بعد من موجة

الهوس التى سادت البلاد أخيراً ، فلن تجنى فائدة تذكر من فسخ خطوبتها نهائيا مع خطيبها الذى هو لا شك قد جاوز به الخبل حده ، ولا سيما أن تجارة البن مازالت عملية رابحة ، فلا مانع إذن من مجاراتها لخطيبها المجنون والتغاضى عن شذوذه .

وبينما هما يسيران قالت له : أعتقد أن قضاء عطلتنا عند أولئك الأصدقاء سيفيدك حتماً يا بيتر ؟

فرد ببرود: أنا لا أميل إلى مصاحبة هذه المخلوقات، لأنها تضجرنى وتقض مضجعى .

- أعرف هذا عنك يا عزيزى ، ولكن ألا تعلم أنه لابد لنا ، ولمن كان فى مثل مركزنا فى الهيئة الاجتماعية من الظهور ؟ فإنه لايمكن الركون إلى الخمول والدعة فى هذه الأيام التى تستلزم الحركة والنشاط .

واستمر الحديث حتى مرا بامرأة ترتدى معطفًا مضحكًا كانت تراقبهم بعينين حادتين ، وإن كانتا تفيضان حبا وهيامًا بأحد أفراد الجماعة . وما إن مر آرثر القصير بها بحمله الثقيل حتى أزاحت المرأة المعطف الفضفاض كاشفة عن جسدها الرشيق الخلاب . ثم مضت خلفهم بقلب مترع بالعزم على قتل عصفورين بحجر واحد ، فإن لم تستطع قتلهما فلا أقل من تعكير صفوهما .

كانت تلك المرأة هى چوزفين دوفال الفاتنة ، ذات الجسد البض البديع، والعقل الخبيث الآثم ، وبذلك يكون المثل الأعلى للمرأة قد توفر فيها واكتمل .

ظلت چو تتابع هذا الجمع خلال الضباب الزاحف من ناحية النهر سائرة خلف آرثر القصير، الذى كان يتمنى طوال الطريق لو استطاع أن يلقى بحمله ويلوذ بالفرار، غير أنه كان يعزُّ عليه أن يفعل ذلك ويهرب بدون حمله .

وتشاء المصادفات العجيبة أن يكون القس ولر مدعوا إلى حفل دينى فى نيوچرسى تلك الليلة، هذا إلى ميله الشخصى لقضاء عطلة نهاية الأسبوع هناك ، لذا عزم على التوجه إليها بشخصه وفى سرواله الجديد . ولما كان القطار شديد الازدحام ، فقد فضَّل القس ركوب المعدية .

قال القس لخادمه وهو يحاول أن يضفى على صوته رنة دنيوية : لاتنس يا بلا كلى أن تضع بالحقيبة سروالاً آخر من تلك السراويل الجديدة ، من النوع الذى اشتريته خصيصاً للربيع .

وبعد لحظات غادر القس داره ، وقفز إلى سيارة « تاكسى » طالبًا إلى السائق الانتهاء به إلى المعدية ، ثم أسند ظهره إلى مسند المقعد ، وجلس فى انتظار المستقبل بقلب مطمئن ، عامر بالإيمان ، غير مثقل بالآثام .

وفى الوقت نفسه الذى كان أبطالنا السابقون يتأهبون فيه للتوجه إلى المعدية ، شعرت أسپيرين ليز برغبة شديدة ملحة فى تناول الجعة والجلوس إلى مائدة لا يفسدها غطاء ، تضم صحبة جميلة من الرجال تبدد بهم وحشتها ، وتحتسى ما شاعت من الشراب . وكانت أسپيرين ليز فى شبابها المنقضى تجنى من وراء جسدها الفاتن كلا الفائدتين : اللذة والربح ، وقد درجت على شرب الجعة بانتظام ، فلما ولى شبابها ولم يخلِّف لها شيئًا، انغمست فى تناولها لدرجة الإفراط، ولم تكن أسپيرين ليز لتحرم نفسها إلى جانب هذا من صحن تستقر فيه شرائح اللحم المقددة كصخرة جبل طارق وسط بحر زاخر من القنَّبيط «المخرط» .

وقد اعتادت أسپيرين ليز أن تفر من عزلتها الانفرادية بين جدران غرفتها إلى حانة على الضفة الأخرى من نهر الهدسون مستخدمة المعدية، ومن ثم تبحث عن إحدى الحانات التى تطل على النهر، حيث كانت معروفة لدى الجميع باعتدالها ودماثتها، واتزان تفكيرها، وولعها الشديد بالجعة، ثم قدرتها العجيبة على عبِّها . وفى ذلك اليوم الذى قضته النموذج «الموديل» السابقة فى تناول الأسپيرين، أحست بأنها مشوقة إلى الجعة . والكثير من الناس يحب الجعة ، والكثير منهم أيضًا يشربها بكثرة ، ولكن القليل بل النادر هم الذين يشعرون أنهم لا يرغبون فى احتسائها فحسب ، بل يحسون أن أبدانهم فى مسيس الحاجة إليها ، وعلى رأس هؤلاء كانت أسپيرين ليز . لذلك ، ولغرض طبى أيضًا ، بادرت أسپيرين ليز إلى تزيين وجهها وإصلاح وضع قبعتها ، بعد أن حَشَرَت ردفيْها فى وضعهما الصحيح داخل مشدٍّ وسطها ، وبعد أن بحثت عن حقيبة يدها ألقت نظرة على محتوياتها وغادرت غرفتها متجهة نحو النهر .

وهكذا شاءت المقادير أن تجمع هذه المعدية شخصيات متعددة المشارب، مختلفة الأهواء ، فتختلط بينها، وتتغير مصائرها، وتفسد آمال بعضها .

وما إن حطت هذه الشخصيات رحالها بالمعدية حتى انتشر ضباب كثيف حجب وجوههم وملأ صدورهم ، وكان لفرط كثافته يعجز المرء عن تَبَيُّن ما أمامه إلا لحظة واحدة ، ثم ما يلبث أن يطويه الضباب .

واستقرت السيارات في أماكنها بالمعدية، وكانت أصواتها مكتومة ، وأضواؤها قاتمة ، وقد تلاشت المسافات كأنما حمل كل إنسان حدود عالمه معه .

وسط هذا الضباب القاتم، بدأت الصفارات تدوى من اتجاه النهر ، وبدأت المعدية تمخر عباب الماء، وما إن غادرت مرساها حتى حلت محلها غشاوة كثيفة من الضباب ، ولم تكد تبتعد عن الميناء حتى انطلق فجأة طلق نارى انزعج لصوته ركاب المعدية ، وانطرح شبح منهم على سطح المركب. ورد الركاب هذا الصوت إلى انفجار عجلة إحدى السيارات، غير أن آرثر القصير لم يكن يشاركهم هذا الرأى .

رَصَاصَة طائشة

لا يعنينا فى الحق أن نعرف من الذى أطلق الرصاصة ، ولا من أصابت. ولكن ما يعنينا هو أنه على إثر دويها خر أرثر القصير مستلقيًا على سطح السفينة ، فاقد النطق ، وهو أكثر الركاب اقتناعًا بأنها قد أصابته .

وعندما تمدد آرثر على سطح السفينة، شعر بيتر بوخز أليم فى ذراعه الأيسر اضطرب له فؤاده ، غير أنه تغاضى عنه لا نشغاله بالنظر فى وجه الرجل المطروح على الأرض ، ذلك الوجه الذى لم يكن جديرًا قَطُّ بالنظر إليه .

تذكر بيتر فجأة سرواله الذى أعطاه النشال الطريح ، والذى كان وقتَ ذاكَ يكسو هاتين الساقين المتخشبتين . ثم واتته فكرة أخرى كانت للأسف أشد سوءًا من سالفتها .

ترى ماذا سيقول الحنوطى حين يرى هذا السروال الفاضح ؟

هل يمكنه تحمُّل الصدمة ؟ فلم يخلق بعد ذلك الحنوطى الذى ينظر إلى مثل هذا السروال بلا اكتراث مهما بلغت قوة احتمال أعصابه .

لقد أثار هذا السروال مشكله كبرى !

كم هى ساخرة هذه الحياة ! فهى دائمًا تلقى بالمرء فى أحضان المصائب والمتاعب ! وبينما كانت هذه الأفكار المحيرة تتلاحق فى ذهنه ، التف حوله حشد من الناس وهو مُنْحَنٍ فوق الجسد المسجى على ظهر السفينة محاولا إسعافه ، ولكنه لم يعثر على أى أثر لجرح أو دم ينزف .

حاول بيتر أن يدير جسم آرثر ليتحقق مما إذا كان قد أصيب فى ظهره، ومرة أخرى أحس بالوخز فى ذراعه ، وصاح لأول مرة محادثًا خطيبته :

- هل تسمحين بمساعدتى يا يولندا فى نقل آرثر . فقد أصيب بطلق نارى ؟
فأجابته يولندا ببرود : وهل تظن مثلى يمس هذا اللص الحقير ، أنا فى انتظارك حتى تأتى فتصحبنى إلى مقعدى .

ومن وسط الضباب صاح صوت مألوف : سأساعدك يا بيتر . أليس لديك من القوة ما يعينك على حمل هذه الذبابة الحقيرة ؟

وكان هذا الصوت لجو .

حاول بيتر عبثًا أن يخفى ارتياحه عندما التقت عيناه الزرقاوان المنهكتان بعينى چو العسليتين النجلاوين، وتمتم قائلا : بوسعى ذلك بطبيعة الحال ، ولكنى مضطرب الأعصاب قليلا .

فقالت الفتاة بلهجة تنم عن ألفة مكينة : لا بأس ، سأعاونك .

فقال بيتر : تَرَوَّىْ قليلا، أتظنين المهمة مباراة رياضية ؟ لا تتسرعى هكذا ، لقد كدت تدفعينه فى البحر .

وتعاون الاثنان على تقليب الجسد المُسَجَّى أمامها ، ولكن بيتر لم يجد أثرًا لأى طلقة فى ظهر النشال . ولم يكن لبيتر من الوقاحة ما يجعله يواصل البحث تحت بنطلونه، ولذا ترك هذه المهمة لچو التى لم يخالجها أى اضطراب عندما طلب إليها ذلك. وبينا هى منحنية فوق الجثة ، كانت معظم رءوس الركاب تطل بالمثل من فوق كتفيها .

وبعد هنيهة صاح أحد الحاضرين : يبدو من كثرة الثقوب المنتشرة بالبنطلون أنه قد أصيب بعدد لا يحصى من الطلقات .

وعلق آخر قائلا : الراجح أن مصدر الإصابة كان مدفعًا رشاشًا .

فقالت چو بصوت حاد : لو كان قد أصيب من مدفع رشاش لنفذت الإصابات من سرواله بالمثل ، ولكنى لا أرى أثراً لأى ثقب بسرواله . أما وقد أنِفَ الرصاص عن مس سرواله اشمئزازاً ، فلا لوم عليه إذا فوجئ بهذا المنظر الماثل أمامى منه .

فصاح پيتر محتجاً : لا تنسى أن هـذا السـروال كان لى من قبلُ يا چو.

فتساءل صوت يبدو من لهجته مدى اهتمام صاحبه : وماذا يفعل سروالك على هذا الرجل ياسيدى ؟

وهنا بدت علامات الضجر على پيتر وهو يقول : وهل يعنيك ذلك إلى هذا الحد ؟ إن أمرك لغريب ! ماذا يفعل سروالى على هذا الرجل ؟ لقد أصيب هذا الرجل إصابة قاتلة، وهذا ما يعنينا الآن، وسواء كان سروالى علىَّ أم عليه فليس لذلك أيه أهمية ، بل حتى إذا لم يكن يرتدى سروالا على الإطلاق ، فلا أرى مبرراً يسوِّغ لك أن تسأل هذا السؤال الوقح .

فرد عليه صاحب الصوت مصرا : ولكن العُرْفَ جرى بأن يرتدى المرء سروالا على أى حال .

فأجابه صوت : ليس هذا النوع من الرجال يا صاحبى .

وكان پيتر على وشك الرد على هذه الإهانة عندما قاطعته چو بصوتها الهادئ المتزن قائلة : لِمَ تزج بنفسك فى مثل هذه المناقشات عديمة الجدوى ؟ أليس من الأوفق أن نبحث عن أمل فى نجاة النشال القصير .

ثم أعادا الجثة إلى الوضع الذى كانت عليه ، وشرعا يحدقان فيها من جديد . وبمحض الصدفة لا مست يدُ پيتر الوجه الشاحب ، وبعد أن سحبها ، شاهد بقعة حمراء فى وجه آرثر القصير. فهمس أحد الواقفين قائلا : يا إلهى! لقد بدأ المخلوق الضئيل ينزف ، كيف تفسرون ذلك ؟

فأجابه آخر : لا يمكن أن يكون نزيفه وليدَ جُرْح .. لعله ينزف عَبْرَ مسامه .

سأل بيتر چو بصوت خافت: هل تصدقين أن تتمخض الدنيا عن مثل هؤلاء الأغبياء الذين يتشدقون بهذا الهراء فى حضرة الموت؟

فردت چو : إن عيبك هو أنك تطلق العنان لنفسك فى التمادى للاستماع إليهم حتى صرت مثلهم ، ألا تساعدنى على ...

ولكنها سكتت عن الكلام إذ رأت الدم ينزف ببطء قرب مرفق بيتر ، فوقفت مشدوهة هنيهةً ، ثم رفعت يدها نحو فمها بعد أن أطلقت صرخة خافتة ، وتمتمت بهدوء وهى تحاول كبت انفعالها : لقد أصبت فى ذراعك يامستر ڤان دايك .

فقال متسائلا : أنا ؟ لا تمزحى فلســت أشعــر بأى ألم فى ذراعى .

فصاح أحد الحاضرين وهو فاغر فاه من الدهشة : ما أعجب تصاريف القدر ! ! كيف ينزف الدم من مخلوق على حين يكون المصاب شخصًا آخر ؟

فتطوع أحد الحاضرين مفسرًا وقال : لعل الطلقة بعد أن أصابت من هذا مقتلا ، استمرت فى اندفاعها حتى اصطدمت بهذا المأفون.

وهنا انبرى صوت يقول : لقد كنتُ متأكدًا أنه لم ينزف على الإطلاق ، فهو لم يُصَبْ قَطُّ ، وما الثقوب التى ببنطلونه إلا ثقوب طبيعية نتيجة البِلَى وكثرة الاستعمال .

فقال آخر مستفسرًا : أتعنى أن الرجل الفارع هو المصاب على حين سقط القصير بدلا منه ؟ هذا غير معقول .

ولما اكتشف بيتر هذه الحقيقــة استشــاط غضبًا ، فنظر بحقد شديد نحو جثة آرثر المسجاة فى أمان ، وكانت چو عندئذٍ تضمد له ذراعه وقال :

– إذن فهذا الكلب القذر ، هذا اللص الزنيم ، كان يستمتع بالراحة التامة طوال هذه الفترة وأنا المصاب أشعر بالرثاء نحوه . !

فقالت چو وهى ترمق النشال الراقد : إن كنت ستستمر فى اختيار خدمك من بين حثالة الأفاقين ، فتَوَقَّعْ من الآن أن يحدث لك ما هو أنكى من ذلك .

فقل بيتر : لم يدر بخلدى قط أن يحدث ما حدث .

وبينما هما فى هذا الحديث إذ قاطعهما صوت تبدو فيه رنة الإعجاب يقول :

– لابد أنك اعتدتَ الإصابة بمثل هذه الطلقات أيها السيد حتى إنك لا تكاد تلحظ أصابتك ؟

فرد صوت آخر من بين الحاضرين قائلا : بالضبط ، فإما أنه قد اعتاد ذلك ، وإما أنه جماد لا يحس .. فلو كانت هذه الطلقة قد مستنى لشعرت بها على الفور .

فأجابه بيتر : ليتها مستك أنت يا أخى .

ثم استدار إلى الفتاة الواقفة إلى جواره وقال : لَشَدَّ ما أنا مَشُوق إلى خلع بنطلونه للتحقق مما إذا كان قد أصيب أم لا . إذ لابد أن يكون قد حدث له شىء ما .

فأجابته چو : إذن هيا انزعه ولا تتردد .

وإن كان ثمه جزء من جسد آرثر القصير لا تزال الحياة تدب فيه ، فلابد أن يكون هذا الجزء هو نصفه السفلى ، فما جاء ذِكْر بنطلونه على لسان بيتر حتى تشبثت يده به بشدة ، وجحظت عيناه فجأة ، ثم قام متثاقلا وهو يقول :

– لا ، لا! بربكما لا تفعلا ذلك .

فسأله أحد الواقفين : ألم تُصَبْ بشىء يا صاحبى ؟

فأجابه النشال : وكيف أعرف ؟ لقد سمعت صوت الطلقة وشعرت بمسيرها بالقرب منى .

فقهقه المتسائل بصوت حاد ، ثم عَقَّب ساخرًا : إذن فأغلب الظن أنك سليم معافى لم تصب ، فإن سماعك صوت الطلقة شىء، وشعورك بالطلقة شىء آخر . لقد أصابك الإغماء من فرط الذعر .

فأجابه آرثر : على أى حال لو مَرَّ بك مثل ما مَرَّ بى لكنت الآن ملقى كما كنتُ أنا من لحظة .

ثم استدار آرثر نحو بيتر وعلامات الذل والوضاعة مرتسمة على وجهه ، فلقيه هذا بنظرة ملؤها العطف والإشفاق ، ثم قال له : ألا تَكُفَّ عن هذه المناقشة السقيمة ؟ وبهذه المناسبة ، لا أظن أن لديك مانعًا من النهوض فورًا والذهاب إلى الجحيم حيث تركتَ الحقيبتين لتأتى بهما إلى هنا .

فأجابه النشال قائلاً : أرجو ألا يكون لديك أنت مانع من إحضارهما بنفسك ريثما أسترد أنفاسى وأتمالك قواى .

فرد بيتر وهو يكاد ينفجر غيظًا : آرثر . أخشى أن تكون قد فهمت الأمر على خلاف حقيقته . فالواقع أنه كان ينبغى أن أرقد أنا حيث كنت أنت راقدًا منذ قليل ، وتكون أنت حيث أقف الآن ، وبمعنى آخر : إنه حين كنتَ تنال قسطك من الراحة مستلقيًا على ظهرك النجس ، كنتُ أنا أنزف دمى بالتدريج وأنا أبحث عن الجرح الذى أصاب روحك الشريرة أيها اللص الدنىء سارق «المحافظ». هل فهمت الموقف الآن أيها الوغد ؟ انهض أيها الخسيس .

فنهض آرثر دَهشًا فى خفة وسرعة وهو يقول : أتقصد أنك أصبت ياسيدى ؟

- بالضبط ، أفهمت أخيرًا أيها الوغد ؟

فتساءل النشال قائلا : إذن فلم إصرارك على الوقوف فوق قدميك ؟

فأجابه بيتر ساخرًا: لأنه لا يمكننا الاستلقاء معًا على هذه الأريكة فى وقت واحد . ولما كنتَ أنتَ السابق ، فلابد لى من انتظار دورى . اذهب الآن للبحث عن تلك الحقائب فقد نال منى التعب .

وبينما چو تقود بيتر نحو الأريكة ، إذا بهما وجهًا لوجه أمام يولندا التى خرجت عليهما من مدخل مقصورة السيدات وصاحت بمجرد رؤيتهما : لقد لاقيتُ مَشَقَّةً كبيرة للوصول إلى هنا .

ثم رمقت چو بنظرة ذات مغزى وقالت ببرود : أراك قد وُفِّقْتَ بسرعة إلى اتخاذ صديقة يابيتر ؟

فقالت چو بظرف : ألا تذكرينني ؟ أنا الفتاة ذات المنظار الأسود التى كانت داخل الصوان مع خطيبك العارى .

فصاحت يولندا : رباه؟ كنت أظنك تخجلين من ذكر هذا الحادث الشائن بدلا من التفاخر به على الملإ. وبهـذه المناسبة ، أأوشكت حقا على أن تضعى طفلا ؟

فـقـالت چو : لا ، ليس بعـد . وإن كنت أتمنى أن أضـع أطفـالا كـثـيـرين فى المستقبل . آن أن تعرفى يا آنسة ولمونت أن خطيبك السابق قد جرح ؟

فدهشت يولندا وقالت متسـائلة : لم تقولين السـابق ، فما زال السـيد ڤان دايك خطيبى ؟

فقالت چو : أبعد كل ما حدث فى الصوان ترضين أنْ ... ؟

فقاطعها پيتر والوهن باد عليه: أستحلفكما بالله أن تلزما الصمت . ولتتطوع إحداكما بفحص ذراعى .

فتمتمت يولندا قائلة : لحظة واحدة ، إذ أريد الوقوف على ما حدث بالضبط فى ذلك الصوان . هل ما ادعته هذه المرأة صحيح ؟ إنى أصر على معرفة ما حدث بدقة .

فقالت چو مؤيدة : نعم .. وبالتفصيل يا پيتر .

فردت يولندا قائلة : كُفِّى عن طَرْح بذاءاتك ، فأنا أريد اعترافًا كاملا من السيد ڤان دايك .

فقـالت چو وهى تهـز كتفيها المغـريتين : إذن فلا سـبيل أمامنـا إلا الاعتراف يا پيتر ...

ثم استدارت چو نحو الفتاة الأخرى وأشارت بيدها إشارة اليأس واستطردت قائلة :

– لم يحدث طبعًا إلا ذلك الشـىء المـألوف فى مثل هذه الظروف . ولا شىء أكثر من ذلك .

فقالت يولندا : أظن أنى بدأت الآن أفهم ، ولكنى ما زلت لا أستطيع أن أصدق أن ما حدث بينكما هو الشيء المألوف . أهى تقول الحقيقة ياپيتر ؟

فصاحت چو بانفعال : يا للعجب ! ألم تَرَيْه بنفسك ؟ ألم تشاهديه عاريًا كما ولدته أمه؟ إذن فما الذى تحسبينه قد حدث غير ما قلته لك؟

فقالت يولندا : لا غرابة فى أن تكونى أنت معتادة هذا الشيء المألوف، ولكن الأمر يختلف مع السيد ڤان دايك، وبخاصة إذا كان حبيسًا فى مثل ذاك الصوان . أليس كذلك يا پيتر ؟

فرد پيتر كمن يفيق من حلم : إه ؟ ماذا تقولين ؟ أوه ، لا بالطبع ، لا ، فمن غير المعقول أن يحدث هذا فى صوان . هذا مستحيل !

فصاحت چو مهللة : أسمعت ؟ إنه يعترف ، فبرغم قوله إنه غير معقول ، يَقْصُرُ استحالة وقوعه على الصوان فقط .

فصاح پيتر : كُفَّا عن هذا الحوار قبل أن أَهْوِىَ من فرط الإعياء ، أريد القُعُود ، أريد أن أستريح قليلا .

وبعد أن وجد مكانًا على الأريكة ، ألقى بنفسه إلى جوار امرأة بدينة أنيقة ترتسم على محياها رغبة قوية أكيدة فى فِعْل شيء ما لم يفطن إلى كنهه . ويمكن التصريح الآن بأن تلك المرأة كانت تفكر فى الجعة ، وكانت درجة استغراقها فى التفكير ومدى انغماسها فى تخيل الزجاجة بالغة ، حتى إنها لم تفطن إلى أن المعدية أخذت وقتًا أكثر مما ينبغى للوصول إلى مرساها . كانت أسپيرين ليز تتمتم بأغنية شائعة عند ما سقط پيتر إلى جوارها بغتة فتحولت أفكارها من الحانة إلى الوسط المحيط بها ، ثم انبرت تتفحص پيتر بسرعة ، واستدارت نحوه مشدوهة عندما وقع نظرها على أثر الدم الظاهر فوق ذراعه . وما لبثت أن استنتجت أنه لا بد أن يكون أحد رجال العصابات ، وأنه يتهرب بحكم مهنته من جذب انتباه الناس نحو ما أصابه من جراح . ولكن حالة

الرجل كانت تبدو لأسپيرين ليز سيئة تستثير الشفقة بغَضِّ النظر عن الوظيفة التى يؤديها فى المجتمع ، فحرك منظره شعورها وقلقها فسألته بصوت خافت : أأنت فى مأزق ؟

دهش پيتر وأتى بحركة عصبية عَزَتْها ليز إلى شعوره بالإثم والندم ، ثم قال :

– نعم . فى مأزق خطير : إصابة نارية فى الذراع .

فسألته ليز : وهل الإصابة فى ذراعك أنت أم فى ذراع غيرك ؟

– إنه أنا المصاب . هل تظنيننى « ثملا » ؟

– أنت الخاسر على أى حال إذا لم تكن قد جربت « الثمل » .

– ماذا تعنين ؟ هل كنت تظنيننى مدمنًا ؟

– ليس بإمكانى الحكم فى ذلك الآن . المهم أن تفعل شيئًا لذراعك .

– وماذا أفعل لها ؟

– أخْرِجْ ذراعك من كم ردائك وقميصك حتى ألقى عليها نظرة ؟

– أمام هؤلاء الناس جميعًا؟

– ولم لا ؟ ألم تخلع قميصك قبل الآن ؟

فقال پيتر وهو يذكر أحداث الساعات القليلة الماضية : بل خلعت ما هو أخطر من ذلك ، وقد لا تصدقين يا سيدتى إذا قلت لك إننى كنت أعدو عاريًا منذ حين .

وسرعان ما تغيرت الفكرة التى كونتها ليز عن الرجل ، فقالت :

– آه ، الآن بدأت أفهم ، هذا يفسر كل شىء . إذن فلست من رجال العصابات ؟

فقال مزهوا : لا ، بكل تأكيد .

فقالت ليز : إن مثل هذه الإصابة إذا لم تكن قد حدثت فى أثناء تأدية عملك، فلا بد أن تكون قد أصابتك خلال سعيك ورا . اللذة والمتعة . رباه ! هل وُلد كل الأزواج والمدفع فى أيديهم ! هيا .. انزع عنك هذه السترة .

فقال بيتر محتجا وهى تعاونه فى خلع السترة : لا . لا يا سيدتى ، لم يكن هذا هو السبب ، بل أقسم لك أنه لم يحدث قط ما تعنينه .

وفى هذه اللحظة ظهرت كلٌ من چوزفين ويولندا أمامه بعد أن أشبعت كلٌ منهما رغبتها فى الكيل للأخرى .

قالت چو وهى تشير بأصبعها نحو بيتر مخاطبةً يولندا : أتذكرين ما قلته لك ؟ ها هو ذا مرة أخرى يعود إلى طبعه وعادته ، فهو يخلع ملابسه من جديد . وإنى أراهن أنه لم يمض على تعرُّفه بالمرأة التى إلى جواره أكثر من خمس دقائق .

فقال بيتر : أيتها الحية الخبيثة ، إنك تفضلين أن أنزف حتى الموت على أن تكفى عن إشاعة أكاذيبك .

فعلقت ليز قائلة : آه . أراك قد جلبت معك مصدر متاعبك . أهاتان صاحبتاك ؟

فقالت چو وهى تشير نحو يولندا: لا ليس كلانا، فهذه هى صاحبته، أما أنا فمعشوقته الأثيرة !

فردت ليز وهى تبتسم ابتسامة لطيفة : ليس هذا ما يهم الآن ، ولا يعنينى البتة إن كانت كلتاكما من الراهبات المتبتلات أم الغانيات الفاجرات . فهذا الرجل جريح ، ويمكنكما أن تغسلا ثيابكما الدنسة فيما بعد .

فصاحت يولندا متعجبة : ثيابنا الدنسة ؟ بماذا تهرفين ؟ هل أُهَان أمام عينيك يا بيتر وأنت أصَمٌّ كالصنم ؟

فقال بيتر بامتعاض : أراك قد أُهنت بالفعل ، وليتنى أهنتك بنفسى .

- إذن فأنت قد أهنتنى بالفعل !

فأضافت چو قائلة : وبمناسبة الحديث عن الثياب الدنسة ، أود أن أحيطكم علماً بأنى أعرف لون سرواله .

فصرخ پيتر صرخة الأليم المتوجِّع ، ولكنها لم تمنع چو من استئناف حديثها ، فتابعت تقول : ولكى أقنعكم بالمدى الذى وصلت إليه علاقتنا معًا أعترف أمامكم بأن سرواله من الحرير .. الحرير الخالص النقى .. ومُخَطَّط بخطوط برتقالية زاهية ، وإذا لم تصدقونى فاكشفوا عنه بأنفسكم .

فصاحت يولندا مستفسرة : أجب يا پيتر . أهذا الكلام صحيح ؟

فرد بيتر وقد شرد ذهنه وهو بين يدى ليز : ربَّاه ! لا أعرف شيئًا ، ولا أتذكر شيئًا ، قد تكون صادقة ، وقد تكون كاذبة ، لقد نسيت كل شىء . وبهذه المناسبة ، لم لا تنتهزن الفرصة وتخلعن بنطلونى ثم تَدْعُوَنَّ الجمهور كله للتمتع بمشاهدة لون سروالى ؟

فعلقت يولندا قائلة: ليس هذا الاقتراح بمستغرب منك ؛ فأنت لا يهمك أن تقوم أى امرأة بنزع ثيابك طالما كانت النتيجة هى التخلص من هذه الثياب .

- نعم . فأنا أعشق مثل هذه المواقف .

وبينما الحوار يدور بينهما على أشده ، إذ تقدم سيد فى ثياب القسس عارضًا خدماته ، فقال بطريقة من اعتاد أن يسمع بإصابة الركاب من وقت لآخر :

- قيل لى إن أحد الركاب قد أصيب بطلق نارى ، فهل يمكننى تقديم العوْن ؟

فقالت چو وهى ترمق القس بابتسامة مغرية : أخشى القول إن جريحنا لم يبلغ بعد المرحلة التى تتطلب تدخلك [لإجراء مراسم الدفن] . ولكن إذا لم تحط هذه السفينة رحالها بسرعة ، فقد يكون لك شرف إيداع جثته فى اليم .

أتاح القس الفرصة لابتسامة محدودة شاحبة ترتسم على فمه ، ثم انحنى فاحصًا ذراع پيتر، وكانت أسپيرين ليز ترمقه باحترام وتقدير يبعثهما شعورها بماضيها الملوث .

وفى لمح البصر كان كلٌّ من القس وليز يتعاونان على مداواة جرح بيتر ، وكان الدور الذى تؤديه أسبيرين هو حمل إناء الماء لرجل الدين الصالح. وعندما حان الوقت لتضميد الجرح برباط ، بحثت عبثًا عما يقوم مقام الرباط .. وأخيراً ، لم تجد إلا حلا واحداً تحسم به الموقف . فقالت بعد أن رمقت القس بنظرة حَيِيَّة :

- الوقع أنى لا أملك غير هذا، وإنى أشك فى أن إحدى هاتين السيدتين ترتديانه ، أما أنا فأرتدى واحداً لا أنزعه أبداً .

وبعد أن أدارت ظهرها للقس الذى لم يكن ، والحق يقال ، موافقًا على هذا الإجراء الشاذ ، انهمكت أسبيرين فى تمزيق سروالها وقد احْمرَّ وجهها بشدة ، لا من فضول عشرات الركاب الذين وقفوا يتطلعون إليها ويتابعون حركاتها بصبر واهتمام عجيب ، بل من المجهود الشاق الذى بذلته فى أثناء التمزيق . وأخيراً ، التفتت إلى القس وناولته شريطًا من القماش أخذه شاكراً ، ثم شرع يربط به ذراع بيتر ، وما إن فرغ من مهمته حتى قال :

- هذا أقصى ما يمكن عمله بطبيعة الحال فى مثل هذه الظروف ، ولكنى أنصحك يابنى أن تتوجه إلى أحد الأطباء فور نزولك إلى الشاطئ حتى لا تتفاقم حالتك . وبهذه المناسبة : كيف حدثت الإصابة ؟

قال بيتر : ما حدث هو أحد الأخطار التى يتعرض لها الجمهور فى خِضَم الحياة الأمريكية العادية . إنها إحدى الرصاصات الطائشة .

فقال القس : هذا حق ، ففى هذه الأيام النَّحِسَات لا يكاد المرء يدخل مقصورة التليفون حتى يجد نفسه مرشوقًا بالرصاص .

ثم جلس القس إلى جوار بيتر بالطريقة التى يدرك منها أنه أعد نفسه كى يقضى الليل كله إلى جواره .

قالت چو : أرى أن كل من يدخل مقصورة التليفون يستحق إحدى هذه الطلقات ، فهذه هى الوسيلة الوحيدة الكفيلة بإخراج الناس منها وإقناعهم بالكف عن الثرثرة فيما لا طائل من ورائه .

وما هى إلا هنيهة حتى ارتفع ضجيج شديد صادر من آلات المعدية. وبينما الآلات تعج عجيجها العالى ، كانت الدفة تتخبط فى الماء خلال الضباب المحيط، ثم أعقب ذلك صفير مزعج أطلقه شخص شبه مجنون ، وسمعوا صوتًا ينادى :

- الخطر على بعد عشرة أمتار منا !

فقالت أسبيرين ليز : يبدو لى يا صاحب النيافة أن ثمة متاعب تلوح فى الأفق .

فرد القس بهدوء : اسمى القس ولر يا سيدتى ، وأعمل قسيسًا بكنائس الولايات الشرقية . فَلْنَتَحَلَّ بالشجاعة حتى يخفف الله عنا وطأة الكارثة ، ولنواجه الأمر ببسالة المسيحيين الحقيقيين ، أعنى المسيحيين المتحضرين .

وفجأة لاح شبح ضئيل لشخص يتهادى بين حقيبتين ، متقدمًا فى اتجاه پيتر ڤان دايك . وصاح النشال وهو يحتفظ بتوازنه بينهما : ها هى ذى حقائبك يا سيدى . فقال له پيتر : أشكرك يا آرثر ، وإن كنت أخشى ألا نجد من الوقت متسعًا ، ولا فى المكان خلوة ، نستطيع فيها ارتداء هذه الثياب قبل أن نغرق .

فقال الرجل الضئيل بصوت آخذ فى التلاشى : وهل سنغرق حقا ؟

فرد القس على النشال بصوت يفيض عطفًا: من الأفضل لك يا بنى أن تهيئ نفسك للقاء ربك ، إما فى التو واللحظة . وإما فيما بعد .

فتمتم آرثر القصير قائلاً : لا تؤاخذنى ياصاحب السعادة ، فلست على أهبة الاستعداد للقاء ربى الآن ، وأفضِّل أن ألاقيه فما بعد .

فراحت چو تؤكد له قائلة : مثلك لا يمكن أن يلقاه على الإطلاق أيها الصعلوك الحقير .

وكانت يولندا تكبت مخاوفها محاولةً التحكم فى نفسها ، غير أنها لم تملك ذلك ، وانفجرت قائلة :

- پيتر ، بالله افعل شيئًا ، إن أعصابى على وشك أن تتحطم .

فقالت ليز : لا تنزعجى يا أختاه . فكلنا قد يصيبه البلل .

فصاح آرثر مذعوراً : هه ! ! ماذا سيحل بنا ؟

وفى هذه اللحظة دوى صوت هائل خلال الضباب فَسَّرَ لآرثر القصير بأسلوب مؤكَّدٍ يَسِيرٍ ما سوف يحل به .

الدَّجاجة الخرساء

أرعد الجو بصوت ضخم صارخ كأنه يحاول أن يضيف إلى مآسى هذه الأمسية مأساة جديدة وهو يقول : امض ياغبى من طريقنا .

قال القس : يا لأعصاب هؤلاء البحارة المتوترة دائمًا !

وعلق بيتر قائلاً : لشد ما أمقت أن ينعتنى أحد بالغباء . إنى لن أغفر لمخلوق يوجه إلىَّ مثل هذه الإهانة التى تصيب المرء فى صميم كبريائه .

ويبدو أن ربان المعدية قد أحس بمثل شعور بيتر ، فصاح وهو فى عزلته من برج المراقبة يرد على الصوت الصادر من السفينة الأخرى :

- مَن الغبى أيها الحيوان ؟

وتواصلت المشادة الكلامية بينهما ، وزاد من سعيرها تَدَخُّل ركاب المعدية والسفينة فيها ، ولم تخمد نيرانها إلا بعد افتراق السفينتين .

تساءل بيتر : كم مضى علينا من الوقت ونحن على ظهر المركب ؟

فأجابه القس وهو ينظر إلى ساعته : نحو ساعتين ونصف الساعة .

فصاح آرثر متذمرًا : لشد ما أنا جائع !

فردت عليه چو فى الحال : وما شأننا ؟

وفجأة غيرت من فظاظتها نحوه ، وقالت بصوت معسول : تعال معى يا آرثر ، فلى معك حديث ودى .

ففغر فاه مشدوهًا ، وقال وهو غير مصدق : أهو حديث ودى حقًا ؟ لقد كفانى ما عانيته من المتاعب فى يومى هذا .

فأجابته جو مطمئنه إياه : لن تصادف متاعب بعد الآن ، وسوف تعجب بفكرتى . وراحا يتجاذبان أطراف الحديث معًا بحماسة بضع لحظات، ثم ألقيا نظرة سريعة على زملائهما ، وانطلقا بهدوء تجاه مجموعة من عربات النقل المحتشدة فى ركن من أركان المعدية ، مستترين بالضباب وأبخرة الغازات المتصاعدة من المركب . أما بيتر وزملاؤه فقد ذهبوا لينالوا قسطًا من الراحة فى « المقصورة » وهم منهكو القوى بعد المجهود الذى بذلوه فى ذلك العراك . وجلسوا وكل ينظر فى وجه زميله .

وانكفأ رأس بيتر هابطًا بالتدريج ، فأدركته أسبيرين ليز ، وأسندت وجهه إلى كتفها المكتنزة ، حيث راح بيتر فى غيبوبة شبه واعية وسط الضباب .

على حين كانت جو وآرثر يحومان كذئبيْن حول رتل من السيارات ، يفحصانها بتَراخٍ مقصود ، وإن كانت أعينهما تحصى كل صغيرة وكبيرة ، فلم يتركا عربة إلا دخلاها ، ونَقَّبَا خلالها وفتشا مكانها ، ولاعجب فأيديهما مدربة ماهرة .

ولحسن الحظ عثر آرثر على عربة حافلة بصنوف البقالة ، وسرعان ما أخرج مطواته، وبعد أن ألقى نظرة سريعة حوله أعملها فى غطاء العربة بمهارة الجراح أثناء إجرائه عملية جراحية. أما يدا جو فكانتا مشغولتين فى عربة أخرى ، فهى تؤمن بفائدة الخبز ، وظلت تنقب فيها حتى عثرت على بغيتها ، واختطفت قطعة من الكعك وزجاجة «ترموس» يلوح أنهما خاصتان بسائق العربة ، ولم تكن جو بالطبع لتهتم بمعرفة صاحبهما ، فحسبها الحصول على ما يقيم أودها على أى نحو .

وهمس آرثر فى أذن جو وهو يشير إلى جيبه المنتفخ قائلاً : هذه أول مرة أسرق فيها دجاجة .

- أعِدها إلى محلها لئلا تصيح فتفضح أمرنا .

- ولكنها ليست من النوع الذى تظنين .

- أتعنى أنها دجاجة خرساء ؟

- لا .. بل دجاجة مذبوحة .

- ولكن .. أليست طازجة ؟

- بل طازجة جدا ، وباردة .

- إذن .. هيا بنا إلى غرفة الموقد، فلابد أن تكون هناك نار موقدة . فاتبعني أيها اللص القصير ، ودع الكلام لي .

وما إن خطت داخل الغرفة حتى طالعها وجه أغبر معفر برماد الفحم لشخص جالس فوق صندوق خشبي وقد أخذ يحملق فيها متسائلا عن سر وجود هذه المرأة في هذا المكان ، فقال مرحبًا : ماذا تريدين ؟

فردت چو ببساطة : جئت لأمر جد بسيط ، وأودك أن تعرف أولا أني ابنة ربان مثلك .

- أنا لست بربان بعدُ يا ابنة الربان .

- لا تكن غبيا ياهذا ، فأنا أريد شَيَّ هذه الدجاجة فحسب .

فأجابها مشيرًا نحو آرثر القصير : أهذا هو الطائر الذي تطلبين شيَّه ؟

- لا ، فإن حرارة جهنم ذاتها لاتكفي لشي هذا المخلوق التعس .

وهنا تدخل اللص مُظْهِرًا احتجاجه فقال : إن هذا المكان شديد الجَلَبَة .

- وما ضَيْرُكَ . أتبغي غناء ؟

- لا ، ولكن الضجيج يؤذي أذني .

تحولت چو عن آرثر متجهة نحو باب أسود صغير تندلع من ورائه ألسنة النار وقالت : أيمكن شَيُّها هنا ؟

فأجابها الوَقَّاد : نعم ، فوق الفحم .

- ألا يمكنك تثبيت سَفُود حديدي فوق هذه الجمرات نضع الدجاجة فيه ؟

- طبعًا، طبعًا .. أين تظنين نفسك ياسيدتى! في مطعم الريتز ؟

- ناولنى الدجاجة .

فأخرج آرثر الدجاجة كما يُخرج الحاوى أرنبًا من جيبه وناولها إياها ، فأعطتها بدورها للرجل ذى الوجه المُغْبَرّ وقالت : كتكوت صغير لطيف ، هه . ضعه على النار من فضلك ، فثمة فتى مريض بحاجة إليه .

وصَبَّ الوَقَّادُ بعض الماء من علبة يبعث منظرها على الشك فيما تحتويه إلى وعاء صغير ، ثم قذف بالدجاجة إلى النار بعد أن غطاها ، وصاح معلقًا على ما صنع بزَهْو :

- أظنك لن تهتدى إلى موقد أفضل من هذا .

فردت چو بإعجاب : يالك من عبقرى . ألك فى قضمة من الكعك ؟

ثم أخرجت صندوقًا مليئًا بالكعك من داخل المعطف الذى ما زالت محتفظة به ، ومزقت غلافه وقدمته نحوه ، فقال الوقاد : سأتناول قطعة صغيرة فحسب .

- لاتخجل ، خذ ما يحلو لك .

فقبل عرضها، وتناول الكعك وشرع يقضمه ، ثم قال : كعك حَسَن . أنا أحب الكعك ، وبخاصة إذا كان لذيذًا مثل هذا الصنف .

ثم تناول الوقاد قضيبًا من الصلب رفع به الغطاء ، فتطلعت ثلاثة أزواج من العيون الشرهة نحو الدجاجة ، وصاح الوَقَّاد : إن رائحتها جميلة ، ولقد أوشكت على النضج فى وقت أقل مما تستغرقه فى الموقد العادى .

والواقع أن الدجاجة أصبحت على وشك النضج فى وقت جد قصير، ولما دعت چو الوقاد إلى تناول نصيبه من الدجاجة ، أبى وقال لها : شكرًا يا آنستى ، فقد تناولت طعامى قبل أن نبحر ، خذيها إلى رجلك المريض مع أطيب تمنياتى .

ولسببٍ ما ، بدأت الحمرة تتطرق إلى وجه چو ، وحين أحست ذلك زادت من شدة احمراره ، فقد فوجئت الفتاة بقول الوقاد إن لها رجلا ، فالأمر لم يكن يعدو مجرد مغازلات بينها وبين بعض الشبان ، ولم يحدث قَطُّ أن كان لچو حبيب واحد بعينه ، فكل معارفها كانوا من النوع الذى يُجتذب بسهولة ويمضى أيضًا بسهولة . وراحت تفكر فى وجه پيتر الشاحب ، بفمه الذى ينم عن الحزن، وعينيه الهادئتين الزرقاوين ، وأخذت تسأل نفسها : هل يحبها حقا ؟ ويعلم اللّه مدى ما كان يضمره لها من هوًى شديد ..

وفى وسط هذا الضباب ، وبين هذه الضجة الصاخبة على المركب ، أدركت چو مكانة پيتر فى قلبها، فعقدت العزم على أن تظفر به بأية وسيلة رغم أنف يولندا ولمونت. ونهضت تصافح الوقاد ، إذ خشيت أن يكون پيتر قد قضى نحبه خلال هذه الفترة التى انقضت بعد أن كادت تنسى أمر جرحه ، وقالت : شكرًا أيها الربان ، هاتِ الدجاجة ياآرثر واتبعنى بسرعة .

فصاح ذو الوجه الأسود :

- صبراً صبراً .

ثم أخرج كوزًا واسعًا صب فيه ما فى الوعاء ، وأردف قائلا: خذى هذا الحساء ، فسيعين فتاك المسكين حتمًا .

عشاء دسِم

بعد لحظات ، أيقظت جو السيد بيتر قائلة : إليك هذا الحســاء يابيتر ، أما أنت يا أرثر فمزِّق لنا هذه الدجاجة بمطـواتك السحرية حتى أقـدم إليكما ما معى من الكعك والقهوة .

ومن ثم أخرجت الكعك وزجاجة الترموس ، ووضع آرثر القصير الدجاجة فيما بين القس وأسبيرين ليز ثم انهال عليها بمطواته يمزقها إربًا . وأخذ بيتر يعبُّ بشراهة من السائل الذى كان أقرب إلى شحم الدجاج منه إلى حسائه ، وعلى أية حال فقد كان السائل ساخنًا ويحوى قدرًا غذائيا لا بأس به هو فى أشد الحاجة إليه . وأخذ بقية الركاب يتطلعون نحوهم بعيون يملؤها الشره والحسد. وقد اضطرت جماعتنا الصغيرة أن تعامل الدجاجة المسكينة بخشونة واضحة . نظرًا لعدم توفر أدوات المائدة معهم . وحتى القس ولر ، انقض ينهش نصيبه بأسنانه وأظافره . أما يولندا فقد حاولت الترفع أول الأمر ، ولكنها – بعد أن قدرت موقفها وشعرت بأنها ستفقد نصيبها من جراء هذا الاستعلاء – اضطرت إلى استخدام أنيابها وأصابعها كبقية أترابها .

وبعد أن اختفى نصيب القس داخل كرشة البارز ، تنحنح وقال : ياعزيزتى! أيتها العزيزة الشابة ، هل لى أن أسأل كيف أمكنك الحصول على هذه الدجاجة ؟ فأجابت : لقد سرقتها أنا وآرثر القصير .

فرنا القس الورع لحظة مقطبًا ما بين حاجبيه علامةً على الاشمئزاز، ولكن ما لبثت قَسَمات وجهه أن استرخت وعادت إلى وضعها الطبيعى ، ومنح جو ابتسامة لطيفة ، وقال معترفًا وأمارات الغبطة مرتسمة على وجهه : أحمد اللّه أنى طرحت هذا السؤال بعد أن أكلت ، فقد كانت دجاجة لذيذة برغم الظروف الغامضة التى أحاطت بالاستيلاء عليها . وعلى العموم ، أنا لا أنصح بالخـوض فى هذا الموضـوع ثانية ، وإلا فلن تستطيع معداتنا هضمها .

تساءلت أسبيرين : وهل حصلتِ عليها مَطْهُوَةً ؟

فردت چو : لا ، كانت مذبوحة وطهوناها فى غرفة الآلات ، حيث التقينا رجلاً لطيفًا ساعدنا على شيها وإن كان ذا وجه أسود ويديْن قذرتيْن .

فتمتمت يولندا بامتعاض كمن ابتلع سما : ربَّاه ! رجل أسود . ياللقذارة !

فاعترضت چو قائلة : لا ليس كله ، بل وجهه ويداه فقط ، فإنى لم أر بقية جسمه ، فربما كان ناصع البياض كجسدك تمامًا .

فتساءلت يولندا : وفيم انضجتموها ؟

– فى بعض صفائح الرماد .

فصاحت يولندا وهى تحملق فى الآخرين بجزع : تصوروا إذن ما تحتويه بطوننا إلى جانب الدجاجة ؟

فأسرع بيتر يقـول : لا تنسى يا يولنـدا أننا شبعنـا بعد جوع قاتل . إنه عمل رائع ياچو . أما أنت أيها اللص الأليف فقد أحسنت عمـلك .

فتدخل القس قائلا : هل يمكننى الاستفسار عن السبب الذى يجعلك تدعو هذا الرجل القصير الوادع المسالم ، تارة لصا ، وتارة مجرمًا ؟

فأجابت چو : لأنه لص محترم .

فاحتج آرثر قائلا : لا وربى ياصاحب السعادة . أنا نشال مسكين فحسب ، ولا أسطو إلا على الجيوب فقط ، ولا أجد فيها عـادة شيئًا يـذكـر .

فاستمرت چو تقول : ولكنك تأخذ دائمًا ذلك القليل الذى تجده . أليس كذلك ؟

– نعم ، ولكن المهم أنى لا أجد إلا شيئًا قليلا غير ذى قيمة .

فعلقت أسبيرين قائلة : لن تجد فى هذه الأيام السوداء أحدًا يحمل شيئًا كثيرًا ذا قيمة ، ولكن نتمنى لك يا آرثر أن توفَّق إلى نشل جيوب ملأى بما له قيمة قبل أن تلقى ربك .

فرد آرثر : الآن وقد تعرفت إلى رجل من رجال الدين الورعين وقس فاضل كالقس ولر ، بدأت أفكر فى اطِّراح هذه المهنة .

فصاح القس : عظيم يا آرثر ، عظيم .. وأحمد الله على أن وجودى قد أعان على انتصار الفضيلة . والآن آن الأوان بأن تحتفل بتغيير مجرى حياتك ، فتعيد إلىَّ ساعتى التى استعرتَها منى عندما سأل السيد فان دايك عن الوقت منذ ساعة ، فقد كنتُ ولا أزال أتساءل حتى هذه اللحظة عَمَّنْ سلبنى إياها .

فأخرج آرثر الساعة من جيبه وقال : أقسم بشرفى أن أمر هذه الساعة قد راح عن بالى كليةً . وأعيد القَسَم على أن ما أقول حقيقة ، وما كان يجدر بالقس أن يحمل مثل هذه الساعة الثمينة ، وبخاصة فى مثل هذا الضباب ، فهذا تصرف مُغْرٍ ، تصرف خطير ... يؤدى إلى فقدانها .

فرد القس بينا يتناول الساعة وهو يبتسم بسمة ارتياح : أعترف أمامكم جميعًا أنه تصرف غير حصيف منى ، وبالأخص وأنت إلى جوارى . والحمد لله أن وصلنا إلى هذه النتيجة المُرْضِيَة ، والآن لندع هذا الموضوع جانبًا .

فرد آرثر ممتنا : أشكر سعادتك شكرا جزيلا .

فاستطرد القس قائلا : يبدو لى أن علاقاتك الوطيدة بالقضاء ورجال الشرطة قد أوقعتك فى خطأ جسيم . فأنا لا أحكم على الناس من مهنهم كما يفعلون ياصغيرى آرثر، بل بالعكس، أحاول إنقاذهم وانتشالهم مما سقطوا فيه. والواقع أن لى آراء خاصة بى أعترف أنها ليست كلها سديدة ، فمثلا أنا لا أستحق لقب «صاحب السعادة» الذى تصر على مناداتى به ، وإذا أردت أن تدعونى بلقب ما فليكن «صاحب النيافة» .

فرد آرثر القصير قائلا : أشكر نيافتك .. أشكرك ياصاحب النيافة على هذا التوجيه المحمود . ياله من لقب جميل «صاحب النيافة» ! وأصارحك القول بأنى لم أكن أميل كثيرًا إلى لقب «صاحب السعادة» ؛ إذ كان دومًا مرادفًا للقلق والمتاعب ، ملازمًا للكثير من .. من ....

فأسعفته چو قائلة : من الأكاذيب .

وكان هناك رجل ضخم الجثة، فظ المنظر، ترتسم على فمه ابتسامة عريضة ، واقفًا منذ دقائق يتطلع بنهم إلى بقايا الدجاجة . وإذ لم تكن جوزفين دوقال تشك مطلقًا فى سلامة نية أى مخلوق ما إلا فى نفسها ، لهذا لم تُعِرْ هذا الرجل أى التفات . فلما تقدم الرجل الضخم ذو المظهر الفظ نحو چو ، تجمع عدد غير قليل من الركاب حوله متطلعين . فسألها بلهجة تشف عن الاحترام والتقدير :

– سيدتى الشابة ، ما أشد إعجابى بك ، وما أرخصها من حيلة تلك التى أتيتِها مع هذه الدجاجة ، فهل لى أن أسألك كيف أمكنك الحصول عليها ؟

توردت وجنتا چو زهوًا ، ثم قالت فى خيلاء : الحق معك ، فقد كانت حيلة سهلة رخيصة ، ولكن لم يكن لنا مَنَاص من اقترافها .

– أرى ذلك ياسيدتى، ولكن باللّه أخبرينى كيف حصلت عليها ؟

– لقد أديتُ المهمة بنفسى ، وأعاننى عليها هذا الشحاذ القصير .

فصاح آرثر القصير معجبًا بنفسه مختالا بحذقه : إنه أنا من عثر عليها .

فتحول العملاق مصوبًا نظراته القاسية تجاه آرثر القصير الذى انكمش من الرعب ، وفى لمح البصر امتدت يد العملاق نحوه ، فإذا به يَعْدُو فى الهواء آخذًا طريقة إلى خاتمة حياته بسرعة متناهية ، وقد صحب وقوع النشال على سطح السفينة أنين يفتت الأكباد .

ولم يكن فى الحسبان أن يتدخل عنصر جديد فى الموقف ، إذ قبل أن يجد ذو الوجه المخيف متسعًا من الوقت يلتقط فيه آرثر القصير ليطوِّح به مرة أخرى ، اندفع القس ولر مدافعًا عن نشاله التائب . وفى الحقيقة أن موقف القس كان مشرفًا ، ومنظره أخاذًا للغاية ، وقد زاد الموقف روعة عندما اندفعت صلعة القس المبجلة بسرعة إلى كَرِشِ السائق الفاسق فألقته بعيدًا نحو الدفة .

وانطلق النفير ليعلن رأى المعدية فى الضباب ، وأخذت الأمواج تتلاطم على أجْناب المركب ، وبدأ الركاب يتصايحون ، وبرغم ذلك فقد ظل السائق قابعًا فاقد الوعى داخل المقصورة ، وچوزفين وأسبيرين ليز واقفتان على أهبة الاستعداد للتخلص منه .

وفى أثناء هذا الصراع ، تسلل الركاب المهذبون الواحد تلو الآخر فى اتجاه السيارة وكلهم ثقة أن السائق لن يعيش حتى يقود سيارته مرة أخرى .

والواقع أن كاتب هذه السطور لَيعجز عن وصف مدى عزم الركاب ومهارتهم وقدرتهم على التعاون الوثيق . ولو شهدتَ الحادثَ لرأيتَ على مدى النظر جمعًا من الأزواج المرموقين والآباء والكتبة والموظفين مكدسين فوق السيارة ، من كان منهم مغرمًا بلعبة الجولف تراه يقذف بالدجاج إلى زملائه بالمهاره التى يتبعها فى أثناء اللعب . كان الجمهور كله جادا فى البحث عن غذائه الذى وجده بكميات وفيرة . وفى الوقت نفسه هاجمت جماعات جديدة من الركاب بعض السيارات الأخرى بعد فشلهم فى إيجاد مكان لهم فوق سطح السيارة الأصلية . ولم يَتَخَلَّ أحد من الركاب عن يقظته واستعداده للقيام بدوره ، وكانت صيحات الرضا والغبطة تملأ الجو كلما ظهر اكتشاف جديد، على حين ضاعت احتجاجات السائقين سُدًى ، ولم تُجْدِهْم نفعًا أمام ضغط ذلك الجمهور الجائع الذى لم يأبه لصياحهم .

وتفتحت عينا سائق السيارة الأولى الضخم الجثة ، فرأى والدهشة تملك عليه نفسه عشرات الأشباح ، يحمل كلٌ منها دجاجة من دجاجه ، ويندفع خلال الباب الضيق المؤدى إلى غرفة الآلات ، فكان هذا كافيًا لينسى ما لحق به منذ لحظات . ونهض مذعورًا صارخًا بوحشية ، مندفعًا نحو عربته لحمايتها ، غير أنه للأسف لم يعثر بها فى تلك اللحظة على ما يستحق الحماية .

وخلال ذلك الصراع بين السائق والقس ، كان الموقف قد تَصَاعَدَ بسرعة فى غرفة الآلات ، فقد سارع الرجل ذو الوجه الأسود إلى الحديث بحماس فى التليفون مع ربان المعدية وهو يقول :

– أدركنى أيها الرئيس ، فهم يسرقون جَمْرِى . لقد انتهبوا كل فحم الموقد. فرد الربان قائلاً : ولماذا يفعلون ذلك مع أن الجو ليس باردًا إلى هذا الحد ؟

– إنهم يحاولون شى بعض الدجاج .

– وأين عثروا على هذا الدجاج ؟

– لا أدرى بطبيعة الحال ، فربما كان يحلق فوق سطح المركب .

فسأله الربان بصوت مُشْبَع باللهفة : وكيف يطهون هذا الدجاج ؟

فرد الوقاد مغيظًا : يشوونه .

– إنها طريقة رائعة ولابأس بها ، فأنا مولع بالدجاج المشوى كما تعلم ياشارلى ، وقد أمضينا وقتًا طويلا دون أن نزدرد لقمة واحدة . ولا يعلم إلا الله وحده موقعنا ومصيرنا .. وطالما أن هذه النار لاتفيدنا بشىء فى الوقت الحاضر ، فلنستخدمها على الأقل فيما ينفع . ما رأيك فيما أقول ياشارلى ؟

– رأيى أن غرفتى لن تصبح مطبخًا لجمهرة من لصوص الدجاج . هذا هو رأيى .

– أصْغِ إلىَّ هنيهة ياشارلى .. إن الدجاج المشوى لذيذ الطعم إذا ما حَسُنَ طهيه .

– أيصح أن نشغل أنفسنا بالدجاج المشوى فى الوقت الذى قد تصبح فيه عظامنا طعامًا سائغًا لأسماك البحر ؟

– أظن أن أسماك البحر ستؤثر الإتيان على عظام الدجاج أولا . والآن .. ألا تزال عند رأيك ؟ لم لا تجيبنى إلى مطلبى ياشارلى وكفى عنادًا !

وإذ لم يَتَلَقَّ الربان ردا على سؤاله ، فقد وضع السماعة فى محلها وأسرع بالنزول إلى سطح المركب ليحسم الموقف بنفسه . وقد كان منظرًا غريبًا فريدًا ذلك الذى صادف الربان فور دخوله : فقد اقتنع من أول نظرة ألقاها على المكان أنه لن يشاهد مثل هذا المنظر الغريب فى أية معدية أخرى. فالركاب هنا وهناك يحملون دجاجًا أو شرائح من لحمه، ويضعونها فوق جمرات متقدة من الفحم . وكانت الغرفة ملأى بهم

حتى إن الربان لم يجد موضعًا لقدم فى أثناء مروره، فكان يطأ بعض الركاب لتخطِّيهم . وكان الزحام شديداً لدرجة أن دموعه سالت كما سال لعابه من قبل . وفى ركن من الغرفة عثر على الوقاد واقفًا يطالع إحدى الصحف كأنما تقف الصحيفة حائلاً بينه وبين ضيوفه الذين حلوا عليه دون دعوة؛ فبعد تلك المناقشة مع رئيسه ، أصبح لايجد فى نفسه ميلا إلى الاهتمام بما يجرى فى غرفة الآلات ، فبادره الربان قائلا بهدوء :

- هلمَّ ياشارلى ! أراك مهتما بالأخبار ؟

فأجاب شارلى دون أن يرفع بصره عن الصحيفة : ولِمَ لا ؟ فمثلما تهتم أنت بالدجاج ، أهتم أنا بسباق الخيل .

- نعم ، ولكن يُخَيَّل إلىَّ أنه لا سبيل أمامك إلا الإبراق إلى مكاتب السباق بخيلك المختارة عبر المحيط الأطلنطى. فأنا لا أشم رائحة البر حولى، وإن كنت أشم رائحة .. الدجاج .

ثم تحول الربان نحو ركابه وفغر فاه عن ابتسامة لطيفة وهو يقول : سيداتى ، سادتى .. أظنكم تدركون أن هذه الفوضى الحالَّة بهذا المكان غير مسموح بها على الإطلاق ، غير أنى على استعداد تام كى أسمح لكم بطهى طعامكم هنا نظراً للظروف الطارئة ، على أن يكون لنا منه نصيب .

وما كاد الربان يفرغ من مساومته الحاذقة حتى تقاطرت عليه قطع الدجاج من كل حدب وصوب لينتخب منها ما يشاء ، وبعد أن تَخَيَّرَ زوجًا سمينًا بعينه ، استدار نحو الوقاد وقال :

- ماذا تعرف عن الطهى ياشارلى ؟ فها هنا طائران لذيذان .

وكانت دهشة الربان شديدة عندما بادره هذا قائلا : أعرف كل شىء ياسيدى ، فأنا طاهٍ حاذق . أعطنى هذه الدجاجات حتى ألقن هؤلاء الركاب لصوص السفنْ درسًا لن ينسوه فى الطهى السليم ، ولن أبالى بما يحدث لهذه الغرفة بعد الآن .

ثم أخذ الدجاجتين وقذف بهما إلى جوف الموقد ، وبينما هو يرقب ملامح الحسد البادية فى وجوه الركاب الملتفين حوله ، تَبَدَّدَ غضبه واستياؤه وشعر بارتياح نفسه ، وإذا بصوت لأحد الركاب يرجوه بذِلَّة متسعطفًا :

- ألا يمكنك أن تضيف دجاجة أخرى إلى دجاجاتك ؟ فقد نضجت أصابعى من حرارة الفحم ولم تنضج دجاجتى بعد ؟

فلم يخيب الوقاد رجاءه . وبعد هنيهة غادر الربان غرفة الآلات نحو برج المراقبة وهو يقضم فخذ دجاجة ويحمل فى يده الأخرى بقية أجزائها بعناية وحرص ، وسائق السيارة المنهوبة يتتبعه ويراقبه بنظرات مِلْؤُها الحقد والغيظ الدفين ، فلم يتمالك نفسه وصاح قائلا :

- رباه ! ما ألعن هذه الرحلة ! إن الربان نفسه لم يَعُدْ أن يكون لصا زنيمًا !

كانت المياه تنساب فى دِعَةٍ وهدوء ، وكان البدر ساطعًا فى أوج نوره ، إلا أن أشعته الفضية الساحرة تسربت خلال ستار من الضباب الكثيف الذى يحيط بالسفينة ويضيق عليها الخناق . وقد غلب النوم معظم الركاب ، خصوصًا بعد أن امتلأت بطونهم ، فرقد معظمهم فى محالهم إلا من بضعة أشباح ظلوا واقفين إلى جوار الحاجز . وقد التحف الركاب بما قُدِّرَ لهم أن يجدوه من الأغطية ، ثم استغرقوا فى سُبات عميق وهم على حال تثير السخرية كأنما حَلَّتْ على السفينة لعنة من السماء ، فقد انقلب ركابها إلى مخلوقات جامدة ساكنة ، باستثناء تلك الأصوات الصادرة عنهم فى أثناء نومهم .. وفى الحق أن المنظر لم يكن خلابًا على الإطلاق .

ولم يكن هناك غير نفير الضباب يدوى بعيداً عنهم فى عمق الظلام، وصدى صوت جرس الإنذار يتردد بين آونة وأخرى .

قال بيتر للفتاة المتكئة على حاجز المعدية بالقرب منه :

- ما أشبهنا ببقرة ترعى وحدها وسط الضباب ، يحيط بعنقها ناقوس يُقرع فتُردِّدُ صداه الأمواج .

– كم أخشى أن تضل البقرة طريقها وسط الضباب . ولكنْ لِمَ لا تتخيل أننا ننزلق فوق أحد جبال الألب فى طريقنا نحو أحد المراعى ؟

– الأمران سِيَان لَدَىَّ .

– ولكن ألا تتمثلنى عقبة كَأداءَ إلى جوارك ؟ ما أشبهنى بالنسبة إليك بذبابة سقطت بالرغم منها فى وعاء مُلِئَ زيتًا ولا تستطيع منه فكاكًا !

أُخِذ بيتر بسحر شفتى چو القرمزيتين النديتين ، والتى كان يتوق إلى تنوق شَهْدِهما وقد خَلَبَتْ لُبَّهُ أهدابها الطويلة التى أرسلت ظلا حول عينيها الجميلتين فجعلته يحدق فيهما ويطيل التحديق ، واجتهدت چو لكى تجعل كل جزء من جسمها ينطق بفتنتها وجمالها ، ونجحت فى ذلك أيما نجاح ، حتى وجد بيتر نفسه يقول لها مفكراً :

أنت فى رأيى عنكبوت ساحر ، أو « عنكبوتة » خطرة ضرابة .

فأطلقت چو ضحكة ناعمة خافتة ملأته بالغبطة ، ثم قالت : كم أطرب لهذه الكلمات : جذابة ، ساحرة ، خطرة ، فهى غير ما عودتنى أن أسمعه منك . أظن الوقوف قد طال ، فما رأيك فى الدخول والرقاد .

– بديهى ألا يبسط مثل هذا الاقتراح الخطير إلا عنكبوتة خطرة مثلك .

ثم ساد الصمت لحظة ، اقتربت خلالها چو بجسدها الدافئ المشوق من جسد بيتر ، وتعلقت بذراعه السليمة ، وبقيت كذلك فترة طويلة أحسَّت خلالها بالنشوة والسعادة تَسْرِيَان فى نفسها لوقوفها منه هذا الموقف ، لاسيما وهو رجل نقى السريرة . وطافت بذهنها بعض الأحلام والتخيلات النَّزِقَة ، ولكنها لضعف ثقتها بنفسها كانت تظن فى أعماقها أن آمالها بعيدة التحقيق ، ولذا لم تنسج آمالاً كبيرة . ثم قالت بصوت خافت رقيق النغم حالم اللحن :

– بيتر !

– نعم .

- لِمَ تدعنى لاصقة بك أكثر مما يجب ؟

- ولم تحرصين على لفت نظرى لهذا الأمر ؟

- هل تحب هذا الوضع يابيتر ، ونحن متعانقان ؟

- إن العبارة التى تصفين بها الوضع تجعلنى أنفر منه . أرجو أن يكون تعبيرك مهذبًا .

- يالك من أبله . إن العناق لذيذ للغاية ، هذا علاوة على ما يبعثه من دفء وطمأنينة .

- هذا كلام بذىء وقح لايليق .

- إن تفكيرك لأسوأ من تفكيرى يابيتر .

- وأنا لا أستغرب ذلك يا أنستى .

- إذن فما أسعدنى أن أراك تُقِرُّ لى بذلك يابيتر ، فلَشَدَّ ما أعجب بتفكيرك حين يكون على مثل هذه الحال من السوء .

- لقد جهدت فى أن تصلى به إلى انتهاج هذا الأسلوب . وبهذه المناسبة : هل أنت مولعة بالمطالعة ؟

- لا أقرأ فى الغالب إلا الكتب الخليعة الماجنة ، وأُواصل القراءة حتى أبلغ الفقرات المخجلة الفاضحة ، فأتوقف عن المطالعة لأفكر فيك وأتخيلها .

ثم ساد الهدوء مرة أخرى ، ولم يَعُدْ يُسْمَعُ غير خفقات المحرك الرتيبة المتباطئة، وارتطام الماء وهو يهمس بهدوء فى أذن مقدم السفينة، حتى هتفت جو فجأة : بيتر !

- نعم .

- أليس لطيفًا أن نكون عاشقين متحابين ؟

- لا أدرى إلام ترمين الآن ؟

فردت الفتاة بصوت خافت مؤثر : أرمى إلى حبنا يابيتر .. أعنى عندما يعمر قلبانا بالحب ، فسوف تبدو الحياة سعيدة ، ولسوف يكون كل شيء على ما نشتهى . لن تعيش وحيداً بعد الآن. وستجد كل شيء قد اكتسب معنًى جديداً وصار أكثر متعة.. حتى أتفه الأمور وأشدها مضايقة . حقا إن تلك الأيام السعيدة لتكمن فى هذه الكلمة الشهية «الحب». ألست تتفق معى فى الإعجاب بالأسِرَّة كلما مررت بمعرض أثاث ! إنى أيضًا أحب الفراش الوثير الأنيق يابيتر ، ألا تشاركنى هذا الإعجاب ؟

فعلق بيتر بعد أن فهم مرادها الذى ترمى إليه : أخشى أن تختمى حديثك بطلب المحظور .

– لا ، ليس الآن يابيتر ، ليس فى التو واللحظة ، بل يومًا عندما نمتلك فراشًا واحداً . ألا تظن ذلك أوفق وأَمْتَع ؟

– كيف أحدس ذلك ، إذ ربما نملك أسِرَّة عدة بدلا من سرير واحد .

– آه . أتعنى الأطفال ؟ .. بهذه المناسبة ، كم تحب أن أنجب لك منهم ؟

فرمى بيتر ببصره خلال الضباب وقال : أى عدد بين الخمسة والعشرة .

– لا ، بل سألد لك خمسة فقط ، ولكن لم حدَّدت عشرة بالذات ؟ على أية حال ، لاداعى للتفكير فى ذلك الآن . ولنرجئ التفكير فى هذا الموضوع إلى ما بعد الخمسة الأوائل .

– بلى ، ولكن ألم يخطر ببالك قط أننا لم نتزوج بعد ؟

– بالطبع خطر ذلك ببالى . ولذا يجب أن تفكر فى الطريقة التى نتخلص بها من يولندا .

– آه ، كيف الخلاص من يولندا ؟

– هل أفهم من ذلك أننا قد تعاهدنا نهائيا على الحب ؟

– يبدو لى أنك استدرجتنى بمهارة .

– إذن تشجع وقلها ولو مرة واحـدة . ويمكنك أن تكذب قليلا إذا لزم الأمر .

– هـــل تعنـــين أن أقول لك ببرود ، وفى بضـــع كلمات قليـلة .. إنى أحبك ؟

– لا يعنينى عدد الكلمات التى تقولها ، ولكنى أرجوك أن ترفع قليلا من حرارتك قليلا . كنتُ .. مثلك مدة طويلة .

– وماذا تقصدين من قولك إنك كنت مثلى مدة طويلة . تشجعى أنت وقوليها .

– أحبك يابيتر .

ولم تعد چو تلك الفتاة الجريئة الفاجرة ، بل تبدلت فصارت فتاة أخرى خجولة طيبة منطوية على نفسها . لقد فكرت كثيراً فى الحب ، وتكلمت كثيراً عن الحب ، ولكنها لم تمارسه بالفعل إلا قليلا. كذلك لم يسبق لها أن صارحت رجلا ما بأنها تحبه وكانت تعنى هذا الحب كما كانت تعنيه فى تلك اللحظة . أما بيتر فقد نظر نحوها مليا وقرر أنه ليس بمتعذر عليه أن يصارح چو بحبه ، فقال لها بأقصى سرعة :

– وأنا أحبك ياچو ، بل أكون معتوهاً إذا لم أعبدك .

– ربَّاه ! كم أنت سريع يابيتر ، ولم هذا الإنجاز ؟ على العموم إنَّ وَقْعَ كلماتك عندى أحلى من الشهد ، أما الآن ..

واقتربت چو بوجهها من بيتر حتى تلامسا بحنان ، وبقى بيتر ساكنًا مستسلمًا مدة كانت كافية لكى تجعل يولندا تشاهد ما هو أكثر مما ينبغى .

صاحت يولندا : بيتر ، هل جننت ؟

فتمتم قليلا لچو وهو ينزع شفتيه من بين شفتيها: ابتعدى، ابتعدى .

الأبطال يبحرون فى ضباب كثيف

وقف بيتر صامتًا لا ينطق من هول المفاجأة ، وما كاد يتنبه للسؤال الذى ألقته عليه يولندا حتى تصنع الجنون وبدأ يلوح بيديه وكأنه يقــود إحدى الفرق الموسيقية ، ثم شرع يغنى بأعلى صوته أنشودة وطنية .

فصاحت به يولندا مؤنبة آمرة : حقا ، إنه لمن المؤسف أن أضبطك متلبسًا بما كنت تفعله دون أن ترافقه بالإنشاد . ألا تستطيع الكف عن هذا الصوت المنكر ؟

فردت چو بصوت متزن وهى تشير بإصبعها نحو رأسها: لا تؤاخذيه، إذ يبدو أن به لوثة عقلية من جراء الجرح المفتوح بذراعه .

- سوف يكون مجنونًا حقا إذا ظن أنه يستطيع أن يغرر بى ، فتصرفاته أقرب للمخمور منها للمحموم الذى يخرف .

ولكى يزيد بيتر يولندا اقتناعاً بجنونه ، علا صوته مرة أخرى متمماً أنشودته .

فصاحت يولندا بلهجة حاده : بيتر ڤان دايك . إن لم تكف عن هذا الضجيج فستوقظ كل من بالسفينة .

فتصنع بيتر الجنــون مرة أخرى ، وصاح مردداً كلمات عجيبة غريبة .

فسألت يولندا والشك يخامرها : هل تعتقدين أنه قد جن حقا .

- لا بد أن يكون الأمر كذلك . فهو كما رأيتِ بنفسكِ قد أخطأك فحسبنى أنت . ألم تلحظى ذلك منذ قليل ؟

- أظن أنى لا أستطيع أن أتركه على هذا النحو .

- أرجو ذلك من كل قلبى . ولكنى أقترح أن تصطحبيه إلى داخل السفينة حتى لا يفكر فى القفز إلى الماء .

قادت يولندا الرجل المحموم من ذراعه برفق نحو القاعة . أما چو فقد استدارت نحو الضباب لتقلِّب فكرها ودموع الفرح والسعادة تتلألأ بين أهدابها . آه لو طالت تلك القبلة نصف دقيقة أخرى ، إذن لاطمأنت مدى العمر من ناحيته. ومهما كان الأمر، فقد أصبحت چو آمنة، بل لقد وجدت فى قلبها متسعًا تشعر فيه بالرثاء الممزوج بالغبطة نحو يولندا .

ولم يبدد الفجر هذا الضباب ، بل زاده كثافة على كثافته ، وأخذ نفير الضباب يدوى فى أذن چو التى لم تكن تعبأ به ولا بما حولها ، فهى لأول مرة تشعر بالحب العميق يأخذ بمجامع قلبها ، ويملك عليها مشاعرها . لذا قرَّ عزمها على المضى والكفاح فى هذا السبيل مهما كلفها الأمر ، ومن ثم ألقت بكل شكوكها فى اليم .

ومضى نهار بأكمله ، وأقبل الليل ، وبدأ الضجر والملل يعترى الركاب ، وأصبحت الجعة بعيدة المنال عن أسبيرين ليز ، أما المشروعات الخيرية العديدة التى أزمع القس ولر تنفيذها لدى وصوله فلم تتحقق . ولم تعد السراويل تؤدى أهم الأدوار فى حياة آرثر القصير ، وحتى يولندا نسيت الحفلة العائلية ذات الأهمية العظمى لديها بعد أن أصبحت تواجه الحقيقة المرة ، ولا غرو فقد نامت وسط هذا الجمهور الحاشد ، ويعلم الله وحده كم من العيون الوقحة الراغبة قد تطلعت باشتهاء نحو بدنها فى أثناء نومها . أما بيتر ڤان دايك فلم تكن حالته بالتى يحسد عليها ، فهو على العكس من الآخرين لم يستطع النوم من فرط ما يقاسيه من الألم والحمى . وقد خشى القس تردى حالته ، وإن كان قد كتم هذا الخوف فى نفسه ، ويبدو أن الوحيدة التى لم يعكر صفوها فى هذا الجمع هى چوزفين دوفال . والواقع أن يولندا لم تكن مخطئة فى اقتناعها بأن سكرتيرة خطيبها لم تكن لتدخر وسعًا فى سبيل استغلال الموقف لمصلحتها ، فكل ما حدث للسفينة وسط المحيط لم يكن يهم چو مادامت إلى جوار بيتر، والأمر الوحيد الذى

كان يوخز قلقها هو خشيتها أن تغرق بهم السفينة ، فقد كان لتطور الأمور بينها وبين بيتر مايدفعها إلى التشبث بالحياة والنهل من مباهجها . وعلى هذا الأساس قنعت بما ظفرت به حتى الآن .

أما الركاب فقد انتشروا فى كل مكان على سطح المعدية . فهنا وهناك ترى أجسادهم متراخية ، إلا إذا ظهرت أوراق اللعب فلا تلبث أن يدب فيها النشاط على الفور ، وبرغم أن كمية الماء قد بدأت تتناقص والوجوه تتسخ ، فإن عدداً كبيراً من ركاب المعدية كان مستريحًا إلى هذه الخاتمة ، فمنهم من كان مقيداً بخطوبة سمجة كريهة لا يستطيع منها فكاكًا ، أو مضطرا إلى ملازمة وجوه كئيبة سئم التطلع إليها ، ومنهم من كان عليه تنقية مسالك المواقد ، أو ترويض الكلاب ، أو تدوين الرسائل .. أما الآن والمعدية تضرب على غير هدى فى عرض البحر ، فإن الفرصة باتت سانحة لتبرير الإخلال بأى من هذه الالتزامات والواجبات .

وفى ركن من أركان القاعة ، أخذ أحدهم يعزف على الهارمونيكا بعض الأنغام الراقصة، فشرع بعض الركاب يرقصون، وأفلحت چو فى مراقصة سائق العربة المنهوبة، الأمر الذى أدهش الرجل بقدر ما سر القس ولر الذى رأى المياه تعود إلى مجاريها والناس من حوله فى سعادة وهناء . ومن الطبيعى أن حالة المرح السائدة قد زادت من تعاسة ربان المركب وأجَّجَتْ كرهه الشديد نحو الحياة عامة والبحر خاصة .

كانت چوزفين متكئة على سور السفينة فى هذا الظلام الرطب وأذناها وعيناها متعبتان إلى حد الإجهاد من جَرَّاء ما بذلت من مشقة لكى تستشف من بين غياهب الضباب الماثلة أمامها ما يكمن وراءها . وقد عجزت عيناها تمامًا عن رؤية أى شىء ، أما أذناها فقد هدتاها إلى خيط رفيع من الأمل ، ففى وسط هذا الظلام القاتم والضباب الكثيف ، سمعت صوتًا خافتًا يدل على ارتطام الأمواج بصخور ، ومع أنها لم تستطع تقدير المسافة التى جاء من نهايتها الصوت ، إلا أنها كانت واثقة أنه صوت ارتطام المياه بالصخور، الأمر الذى يعنى دُنُوَّ المعدية من البر. وكان البر فى تلك اللحظة ذا أهمية عظمى بالنسبة لچو ، فحالة بيتر تزداد سوءاً ، ولم تكن مرتاحة إلى

أعراض الحمى البادية على وجهه ، أو للون بشرته حول الجرح ، لاسيما أنه لم يكن قادراً على النوم من فرط تعبه وألمه . ولهذا السبب - أى عندما أدركت حالة پيتر - غيرت چو رأيها فى المعدية التى لم تعد بالمكان المناسب لرجل جريح . ولذا أصرت على نقله نحو البر بأية وسيلة ، ولو أنها حتى هذه اللحظة لم تقرر بعد هذه الوسيلة . ومكثت چو تنصت بضع لحظات أخرى وصوت ارتطام المياه بالصخر يشتد وضوحاً ، ومن ثم اتجهت نحو غرفة القبطان حيث قالت :

- يخيل إلىّ أن البر على مقربة منا أيها الربان .

- تعنين القطب الشمالى طبعاً ؟

- ربما ، ولكنى متأكدة أن الأرض التى أقصدها أقرب بكثير من القطب . صَهٍ ، اسمع .

فدفع الربان برأسه خارج غرفته ، وأنصت قليلاً ثم أومأ برأسه بضع مرات وأغلق الباب ، واستدار نحو ضيفته ، فسألته الأخيرة :

- والآن : ما الذى تنوى أن تفعله ؟

- لا شىء ، فليست قريبة منا بالدرجة التى تعرضنا للخطر .

فصاحت چو : الخطر! ماذا تعنى بالخطر؟ ألست تنوى الرسو بهذه المعدية عندها ؟

- أتريدين تحطيم المعدية على شاطئ مجهول ، لا أدرى إن كان صخرة حادة أم مياهاً ضحلة ؟ كفى غباء يا سيدتى .

واستمرت المناقشة بينهما ، ولم تنجح چو فى إقناع الربان بتنفيذ رغبتها فى الوصول إلى البر ، ولكنها عرضت عليه أن يتفضل بإعارتها أحد قوارب النجاة الصغيرة .

فرد عليها الربان بتَعالٍ واضح : سأعيرك أى شىء من شأنه أن يزيلك من قمرتى لتغربى عن وجهى ، أو تغادرى السفينة فيه مع أحر تمنياتى. وأعدك بأن أطردك من فكرى نهائيا بمجرد أن يحجبك الضباب عن ناظرى .

- أظن أنك لن تستطيع ذلك ، إذ سيحتج بقية الركاب .

- لك أن تصطحبى أى مأفون منهم . وإذا لم يرافقك أحد ، فليبقوا هنا إلى جانبى إلى أن يمن الله علينا بمن يجرنا إلى الشاطئ .

فردت عليه الفتاة محاولة إثارته : هل تتوقع أن يأتى الأسطول الأمريكى لحراسة مركبك الحقير .

ولكن القبطان لم يأبه لها لأن الغيظ كان قد بلغ منه مبلغًا عظيمًا منذ زمن طويل ، فقال :

المهم أنى لن أجازف بسفينتى من أجل حفنة من الركاب الصعاليك .

وبعد بضع دقائق اتجهت چو نحو صحابها وعرضت عليهم فكرة أخذ القارب والتجذيف به حتى يبلغوا البر . وحتى هذه اللحظة كانت يولندا ضد هذه المجازفة الطارئة الخطرة ، إذ لم تجد ما يبشر بخير فى ركوب قارب صغير فى ظلمة الضباب ، ولكنها إزاء إصرار الآخرين على مغادرة المعدية بدونها وبدون الحقائب ، انضمت إليهم وأزمعت الرحيل معهم .

وتعاون كل من القس وبيتر ، برغم ذراعه المجروح ، على إنزال المجرم القصير المتردد إلى القارب ، على حين كان الركاب يدلون بنصائحهم ، والقبطان ينظر إليهم باستخفاف .

وتمتم بيتر مخاطباً آرثر: أراك تعلق أهمية كبرى على حياتك الحقيرة يا آرثر مع أنها فى الحقيقة لا تساوى شيئًا .

ثم أطرق مليا واتجه نحو القس قائلاً : عفواً . اغفر لى أيها القس هذه العبارة الجارحة .

فعلق القس قائلاً وهو يبحث فى الظلام عن موضع لقدمه فى القارب: أظن أننا قد نكون أحسن حالا لو عقدنا هدنة فيما بيننا، فبى رغبه شديدة فى التعبير عما يخالج نفسى من الآن فصاعداً بأرق الأساليب .

فصاحت چو من القارب نحو الوقاد الذى كان يطل عليها من أعلى السفينة :

– الوداع يا صديقى ، وأعدك أننى إذا سرقت دجاجة مرة أخرى فسوف أدعها لك لتشويها على طريقتك .

فرد الوقاد قائلاً : أرجو ألا أرى فى حياتى دجاجًا قط ، ولكنى أتمنى لك حظا سعيداً يا سيدتى .

وصاح بيتر بالقس الذى كان ممسكًا بالدفة بمهارة خبير :

– سر بنا على بركة الله ياصاحب النيافة ، أما أنتن يا سيداتى فالزمن الهدوء قليلاً وإلا فقد القارب صبره .

وراح القس يجدف بقوه مبتعداً عن المعدية ، والجميع يقتلون الوقت بالحديث والمرح ، وفجأة صاحت چو : أنصتوا جيداً ، فلا يصح أن يغيب عنا صوت الشاطئ وإلا هلكنا .

وبعد لحظات وجيزة قالت : أحمد الله ، فقد سمعته ثانية .

رحلة فى المجاهل

قطعت چو حبل الصمت المخيم على من فى القارب بقولها : لم نفقد الأمل بعد ؛ فعددنا ستة ، ثلاثة رجال وثلاث نساء . فهذا پيتر وأنا ، وهذه يولندا وآرثر القصير و ..

وأسرعت النموذج المتقاعدة تقول: سَمِّينى ليز، فكل شخص يدعونى أسپيرين ليز ، وأخشى أن تجدى اسمى الأول ممجوجًا فى سمعك .

فردت چو قائلة : بل هو اسم نفتقده بين ملايين الأسماء الظريفة . إنه اسم لطيف وأحبه كثيرًا .. ثم هناك أسپيرين ليز والقس ، وكلنا نشعر بالدفء والراحة فى جوف القارب .

فقال آرثر ساخرًا : آه ، حيث يغطى الماء أقدامنا !

وصاحت يولندا فى وجه چو : هل سمعتك تلفظين اسمى مقرونًا باسم هذا المجرم القذر الذى لم يستحم فى حياته قط ؟

فأخذت چو تثرثر بحديثها الذى أثار آرثر حتى تدخل پيتر لإيقاف مهاترتهما ، فاقترحت چو أن يغنى أحد ممَن فى القارب .

فقال القس ولر : لا بأس بالفكرة ، فالغناء يسمو بالروح ، فمن يتفضل بالغناء لنا وأنا أجدف ؟

فقالت أسپيرين : أنا أعرف أنشودة رائعة .

قال پيتر : إذن فأنشديها لنا .

فتساءلت أسپيرين: هل أجد مع أحدكم قرصًا من أسپيرين؟

فقالت چو وهى تبحث فى حقيبتها عن قرص أسپيرين : عسى أن أجد لك واحداً.

وعثرت بالفعل على قرص مبلل ناولتها إياه ، فوضعته الأخيرة تحت لسانها .

فسألها آرثر: وأنَّى لك الماء الذى تبتلعين به القرص؟

فردت أسپيرين: أنا لا أستخدم الماء ، إذ أفضِّل وضع القرص تحت لسانى وامتصاصه رويداً رويداً . فهز آرثر رأسه متعجباً، إذ مما لا شك فيه أن تلك المرأة البدينة شديدة المراس . وما كادت أسپيرين ليز تحكم وضع القرص تحت لسانها حتى انطلقت فجأة تغنى بصوت صادح . ولما كانت الأغنية ذات طابع حزين ، فلم تَسْمُ بأرواحهم كما أمل القس ، الأمر الذى دعا آرثر أن يصيح وهو يرتجف : أعوذ بالله من هذه الأغنية المحزنة المقيتة .

فردت چو : لابد أن تكون اليابسة وراء هذا الضباب وهذه الظلمة .

فقالت يولندا متسائلة : ترى ما نوع هذه اليابسة ؟

فقالت چو : ربما كانت إفريقيا .

فعلق پيتر : أتمنى لو تكون الريڤييرا .

فعقب النشال الجاهل وهو يحسب الريڤييرا(*) نهراً : ألا يكفيك ما حولك من الماء حتى تحاول أن تضيف إليه نهراً آخر ؟

وبالطبع لم يُلْقِ أحد إليه بالا ، فالكل كان مشغولا بأفكاره .

ثم صاحت چو آمرةً اللص القصير : خذ محل القس وجذف بدلاً منه حتى يستريح قليلاً، أما إذا لم تفعل فثق أن سرعة القارب ستزداد ، بعد أن يفقد نشالا من وزن الريشة !

(*) التشابه ملحوظ بين كلمتى ريڤيير و river بمعنى نهر.

فأخذ أرثر مكان القس فى الحال وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة ، ثم قال متسائلاً :

– وأىُّ طرَفَىْ هاتيْن العَصَاتيْن أجذب ؟ فإن وضعهما هكذا فى الماء ، حتى بدون تحريك ، متعب للغاية !

فردت چو قائلة : لا تبالغ فى ادِّعاء الجهل والغباء . ضع الطرفين المبلولين من المجدافين فى الماء ثم اجذب قلبك الصغير الأسود للوراء .

وردّدت أسپيرين ليز محاولة تشجيعه : نعم يا بنى ، تخيل أنك تبحث عن « جيب » فى الضباب واجذب المجداف خلاله ، فسيعينك هذا الخيال عونًا كبيرًا .

فعلق أرثر قائلاً : لا يمكننى احتمال لغو النساء. إن طبعهن لذميم ، وخصالهن لئيمة ، أرجوكم أن تدعونى أعمل دقيقة واحدة منفردًا حتى أعتاد عملى الجديد . أتتوقعون من نشال أن يصبح ملاحًا فى التو واللحظة ؟ !

فردت چو : بل أتوقع أن يصبح جثة هامدة مستقرة فى قاع البحر إن لم يتحرك هذا القارب .

وانتهت مناقشتهما عندما سأل پيترُ القُسَّ عما إذا كان قد استراح فيتعاونا على التجذيف . وما إن تمت الإجراءات اللازمة حتى انساب الزورق يشق طريقه فى البحر ، وخيم الصمت من جديد على ركاب الزورق ، فقد كان پيتر والقس منهمكين فى التجذيف لدرجة لا تسمح لهما بالحديث ، وأرثر مشغول بنفسه التعسة ، ويولندا مبتئسة منعزلة ، وچوزفين تصغى إلى خرير الشاطئ ، وأسپيرين ليز سعيدة بجلستها الهادئة دون أن تعمل شيئًا . وأخذ پيتر والقس يعملان بجد حتى كَلَّ الأول وأوشكت قوته على الانهيار ، فتناولت چو المجداف من يده بهدوء وجلست إلى جانب القس وهى تقول لپيتر : اترك لى مكانك فإنى أسمع صوت الأمواج تتكسر على شىء أصلب من الضباب .

وفجأة سمعوا صوت قارب بخارى يقترب ، فتوقفوا عن التجذيف ، وصاح القس بأعلى صوته وهـــو يستريح بيديه فـــوق مجذاف : من هنـاك ؟

فجاءه الرد المحكم سريعًا : جمع من المواطنين الأمريكيين عائدين ببعض الخمر إلى موطنهم .

فرد القس قائلاً : يلوح لى أنكم قوم غاية فى الصراحة .

فأجاب الصوت الخفى جَذْلانًا بمرح: نعم ، مع الشكر لهذا الضباب ، فهو الذى يجعل هذه الصراحة يسيرة علينا . وبهذه المناسبة ، نحن لسنا فى غاية الصراحة فحسب ، بل نحن فَجَرَة .

فردت چو قائلة : ونحن أيضًا لانقل عنكم فُجْرًا . وإن كانت الخمر تنقصنا . فجاءها الصوت العطوف قائلاً : هل ترغبون فى زجاجة ؟

فصاح پيتر : بل إنى أضحى بحياتى فى سبيل رشفة واحدة .

فقالت چو : هل معك مثقاب ؟

فجاءها الصوت قائلاً : لا أظنكم أمريكيين مادمتم لا تحملون مثقابًا معكم !

وأخذ صوت القارب البخارى يقترب شيئًا فشيئًا ، ثم برزت من خلال الضباب يد تحمل زجاجة وتناولها لپيتر ، فصاح صاحب اليد : إنها مفتوحة ، وما عليك إلا أن تنزع السدادة ثم تشرب .

فرد پيتر وهو يتناول الزجاجة عبر الضباب الماثل أمامه : هذا كرم منك عظيم ، أشكرك !

فأجاب الصوت بلهجة أكثر أدبًا: لا شكر على واجب .

ويشاء القدر الساخر أن تهب فى هذه اللحظة نسمة خفيفة تزيح ستار الضباب جانبًا ، ويسطع القمر فتبدو الليلة صافية بديعة ، وهنا صرخ پيتر وقد عقدت الدهشة لسانه : ما هذا ؟.. إنى أراكم عراة !

فرد سائق «القارب البخارى» : نعم . كلنا عرايا .

فشهق جميع من بالزورق شهقة واحدة متعجبين ، وشرع القس يصلى بصوت مضطرب وهو يدعو الله قائلاً : اللهم أعِد الضباب .

ثم تدارك قائلاً بعد أن أعمل فكره : ولو مؤقتًا .

ومع أن ركاب القارب البخارى لم يزيدوا على خمسة من العراة ، إلا أن هذا العدد كان كافيًا لكى يثير دهشة جميع من بالزورق ، فقد خُيِّل إليهم أن القارب يزخر بعدد لا حصر له من العراة ، وطبيعى أنه لم يكن من الصعب تمييز ثلاثة رجال عن امرأتين ، ولكن الحقيقة أن العين المجردة ولو أنها يمكنها بسهولة أن تحصى أى عدد من الرجال أو النساء ما داموا مرتدين ثيابهم أو بعض ثيابهم ، إلا أنها تعجز عن عدِّهم أو تمييزهم إذا تجردوا عن ملابسهم ، فيخيل للعين وقتئذ أنها ترى عددًا أكثر من الظاهر أمامها .

فصاح أرثر قائلاً : يا إلهى ! كيف فقدتم جميع ثيابكم دفعة واحدة ؟

فرد أحد العراة ببساطة : نحن لم نفقدها ، بل خلعناها .

فتساءل النشال متعجبًا : ولم خلعتموها ؟

فردت چو تحاول إسكات النشال : لا تسأل السيد مثل هذه الأسئلة السخيفة .

فتدخلت يولندا قائلة وهى تحول عينيها وإن لم تغمضهما : أما أنا فلا أرى ما يبرر سؤال السيد أية أسئلة على الإطلاق ، سخيفة كانت أم لطيفة .

فرد الرجل العارى قائلا : لا تؤاخذينا : فهذا مسلكنا فى الحياة .

فأجاب القس : بئس المسلك هذا ، أليس الأصوب إتيان مثل هذه الأعمال فى مكان آخر .

فقال الرجل العارى : ولم ؟ فأى مكان يناسبنا .

فأجابه القس : أخشى أن تظنوا أننا نرثى لحالتكم ، فالحقيقة أننا نرثى لحالتنا نحن ، فمن المؤسف حقا أن تضطرنا الظروف إلى استكشاف بقعة من البحر ونحن مرغمون على مزاملة خمسة من العراة مزاملة إجبارية .

فرد الرجل وكأنه يتنبأ بمصيرهم : ستعتادون ذلك عما قريب .

فسأله القس : أتعنى أنكم سترافقوننا إلى النهاية ؟

وهنا صرخ آرثر قائلاً : إذا لم تُقْلِعْ هذه المرأة الفارعة ذات «الخال» على جسدها عن التطلع نحوى بفضول فسأقذف بنفسى فى اليم .

فسألته چو : وأين هذا «الخال» ؟

- سؤال محرج لا يجوز إلقاؤه . إنها حيث لا يصح لامرئ أن يراها . هل عرفت مكانها الآن ؟

فسأله القس : إذن فلماذا تنظر نحوها ؟

فتدخلت أسبيرين وقالت بلهجة هادئة: إنها حقا ذات قوام بديع رشيق. لقد كنت مثلها ذات يوم .

فرد آرثر : ماذا تعنين ؟ أكنت تسيرين عارية ؟

- لا ، بل كنت أقف أو أرقد !

فصاح اللص بصوت حاول أن يكسبه صفة الوقار : أوَ تعلنين ذلك على الملإ صراحة ؟ يالك من امرأة فاجرة داعرة !

فردت النموذج المتقاعدة : لقد أمضيت حياتى على هذا النحو .

قال القس : ليس هذا النوع من الحياة مما يصح نبشه والخوض فيه ، وبخاصة فى مثل هذ الموقف الذى نجتازه .

وكان العراة يصغون إلى هذه المحاورة بشغف ، حتى إذا انتهت وجهت إحدى العاريات كلامها نحو آرثر وقالت له متسائلة : ولم لا تنزع ثيابك وتصبح عارياً مثلنا ؟ أم تراك خائفاً لسببٍ ما .

فرد عليها النشال بحزم : اهتمي بأمورك يا سيدتي ، فقد كان الأجدر بك أن تكوني خَجْلَى من نفسك .

– لقد فقد كل شعور بالخجل .

فلم يتمالك القس أن قال مندفعًا: سيدتي، لا تؤاخذيني، لقد فقدتِ أكثر من هذا كثيراً ، وإنْ لم تفعلي شيئًا يغير هذا المشهد في الحال ، فإني أخشى أن أفقد شعوري أو أصاب بالجنون .

أما ما كانت المرأة ستفعله استجابة لطلب القس وإرضاء له فلن يعرفه أحد على الإطلاق ؛ لأن الضباب تدخل في هذه اللحظة فحجبها عنه .

ولما انقشع منظر العري صاح القس قائلاً : أيها السيد فان دايك ، أظن أنه من الأوفق أن يحاول واحد غيرك إفراغ ما في هذه الزجاجة .

فرد بيتر قائلاً: لا تؤاخذني ياسيدي، فقد أثار الحادث أعصابي .

فأجابه القس : لا بأس ، فأنا لا زلت محتفظاً بهدوئي ، ولكن الضباب مازال كما هو ، وأخشى أن تهب نسمة أخرى فتتكرر المأساة .

ثم رفع الزجاجة نحو فمه وبدأ يجرع ما فيها ، وبعد أن نال كفايته ناول الزجاجة لجو زميلته في التجذيف وهو يقول : لعل هذا المشروب يعين ذراعيك يا بنيتي.

وكان للخمر أثرها الفعال ، فما إن رشفت جو نصيبها حتى ناولت الزجاجة لأسبيرين ، وتابعت التجذيف هي والقس بسرعة عجيبة لم تكن متوقعة ، ولكن دون انتظام ، وأخذ القارب يشق طريقه بجنون. ويبدو أن كلا من جو والقس كانا يتنافسان، لكأن الواحد منهما يحاول الوصول بالجانب الذي يجذف فيه قبل الآخر . وفجأة صاح بيتر مخاطباً ركاب الزورق الآخر : كم تبعد اليابسة عنا ؟

– هذا يتوقف على الاتجاه الذى تقصـــده ، فأحد الاتجاهين يؤدى بك مباشرةً إلى اليابسة ، والآخر لن يوصلك إليها إلا بعد آلاف الكيلومترات .

– وأى الاتجاهين ترانا نقصد الآن ؟

– بين بين .

فزمجر آرثر قائلا : ألا يحق لى أن أرشف قطرة واحدة من هذه الزجاجة ؟

فرد القس قائلاً : أعطوا هذا اللص التائب جرعة أو جرعتين عساه أن يستحيل مخلوقًا آخر .

فقالت أسبيرين : أما أنا فلا أرجو له أى خير . خذ يا مَبْعثَ الإجرام ، واسأل الله أن يغفر لك آثامك وأنت تتجرع ما بها .

فرد عليها وهو يتناول الزجاجة باشتياق : إن شرب الخمر لا غبار عليه ، لاسيما أن القس قد شرب منها . فإذا كان وهو الرجل الورع يأتى ذلك ، فما بالك بشخص مثلى ؟

وبعد أن ارتشف منها كفايته رمق يولندا ببصره وقال :

– هل لك فى رشفة ؟

فردت عليه قائلة : بعد أن راقبتك وأنت تشرب منها ، أرى أنه لا مفر لى من الرفض.

فقال يائسًا : هل من مُحِب للسلام فى هذا الزورق ؟

فرد بيتر وهو يتناول الزجاجة : أنا يا آرثر ، بل إنى سأذهب أبعد من ذلك وألبى دعوتك.

قال القس وهو يتكئ بجسمه لحظة فوق مجذافه ليستريح : كلما حاولت نسيان تلك المناقشة العجيبة التى كانت تدور منذ هنيهة أجد نفسى عاجزًا عن فعل أى شيء .

فقالت أسبيرين ليز معلقة : لو كان ذلك القارب عاجا بالسباع الجائعة لما دهشت مثل ما دهشت وقت ذاك .

فقالت چو : ما من شك فى أننا لن نميز مبدأ هذه القصة من خاتمتها ؛ فكل ما حدث لنا حتى الآن شبيه بما نراه فى الأحلام .

فأجاب پيتر وهو شبه نائم ؛ بعد أن تكاتف الإنهاك والخمر والحمى مع النوم على مهاجمته : أما أنا فلا يهمنى ذلك كله .

وسرعان ما راح فى غيبوبة طويلة ، ولا غرو فنصفه الآن مخمور والنصف الآخر غارق فى الأحلام .

وبعد لحظة ، صرخت أسبيرين ليز وهى تشير إلى بقعة بيضاء تحت ضوء القمر الصافى على بعد خطوات من الزورق : انظروا !

فأجابتها چو : إنها «اليابسة» . ألم تسمعى عنها من قبل ؟

فقالت أسبيرين ليز وعيناها تتفحصان الشاطئ الأملس بشوق : نعم سمعت ، بل أذكر أن هذه الكلمة كانت مرادفة وملازمة لماضىً البعيد .

وما هى إلا دقائق حتى رسا القارب على رمال الشاطئ . ولكن پيتر ڤان دايك لم يفطن إلى ذلك ، فلم يكن يدرى بما حدث له ، ولا بما هو على وشك الوقوع فيه ، ومن الخير أنه لم يَدْرِ ، وإلا لكان قد قذف بنفسه إلى اليم !

طبيبُ المستعمَرة

أفاق بيتر ڤان دايك من غفوته ليجد جسداً عارياً منتصباً أمامه ، فلم يعد يصدق نفسه ، فإن مجرد رؤيته للأجساد العارية كانت تبعث فيه الذعر ، وكذلك فعل هذا الجسد . ففى خلال الأربعة والثلاثين عاماً التى عاشها لم يشاهد مثل هذه الأجساد العارية إلا نادراً ، فلما رأى هذا الجسد أمامه لم يَرْتَحْ ضميره إلى التطلع إليه ، وبخاصة فى مثل سنه المتأخرة تلك ، مما اضطره إلى تحويل بصره فى الحال عن الجسد القائم أمامه قبل أن يقع على شىء آخر . وكان الرجل العارى الماثل أمامه يحمل فى يده حقيبةً سوداء صغيرة ، وهو ما أشعل دهشة بيتر ، وكان صاحبها واقفاً بتراخٍ عجيب فى وضعٍ مريح ، الأمر الذى لم يكن متناسباً وحالة بيتر الصحية . وتساءل بيتر فيما بينه وبين نفسه : أيجوز أن يكون هذا الرجل عامل التليفون وقد أصيب بلوثةٍ فى عقله، أم هو صانع ماهر من تلك الشخصيات المنكوبة بالشرود الذهنى التى اكتشفها سجموند فرويد؟ أم هو حرفى استُدعى لإصلاح إحدى الآلات، أو لتنظيف إحدى المواسير ، أو لأداء أى عملية فنية أخرى تستلزم نزع ملابسه . كما أنه من الجائز أن نفترض أن هذا الرجل كان فى طريقه إلى الاستحمام ، ثم مَلَكَتْهُ رغبة ملحة فى مشاهدة وجه آدمى . ولكن ما الدور الذى تؤديه هذه الحقيبة السوداء ؟

لذا قرر بيتر أن يستفسر عن هذا السر من الرجل العارى نفسه بدلاً من التخبط فى الظنون ، فسأله بعد أن رحب به : من تكون يا عزيزى ؟

فابتسم الرجل ابتسامة طبيعية لم يكن بيتر يتوقع أن تصدر عن رجل ، وقال فى صوتٍ مهذب : أنا الطبيب ، طبيب المنزل .

فارتعد بيتر إزاء هذه الحقيقة وقال : طبيب ماذا ؟ وأى نوع من المنازل هذا ؟ منزل متعة ؟

وفجأة تذكر بيتر ذراعه التى لابد أن تكون حالتها قد ساءت خلال الليل ، فصاح قائلاً : أخشى أن تتفاقم حالتى أيها الطبيب إذا ما أصررتَ على الوقوف هكذا عاريًا أمامى .

فأجاب الطبيب باقتضاب : إن ذراعك سليمة تمامًا، ولكى أطمئنك ، اعلم أنى أطوف بمرضاى هكذا على الدوام .

فقبع بيتر فى فراشه، وقال وهو يكاد يغمى عليه من فرط الدهشة : أو هكذا تفعل ؟

- ولم لا ؟

فرد بيتر وشبح ابتسامة باهتة يرتسم على محياه: آه ، ولم لا؟ فطالما أنت طبيب ، وطالما الطبيب معتادٌ رؤية الأجساد العارية ، إذن فلابد أنك لا تهتم كثيرًا بـ ..

فقال الطبيب والضحك ملء شدقيه : بالطبع لا أهتم بذلك مطلقًا ، بل الحقيقة أنى أعشق هذه الطريقة .

- وماذا يقول مرضاك ؟

- إنهم يميلون إلى ذلك أيضًا .

- أوَ يميلون فعلاً ؟

- بكل تأكيد ، ولم لا ؟

فقال بيتر مؤنبًا وهو يمر ببصره سريعًا للمرة الثانية على جسد الرجل العارى :

- أود لو تكف عن قولك لى «ولم لا» ، ففى إمكانى أن أرى أنه بوسعك أن تقول لى «ولم لا» مع كل تصرف تأتيه .

فسأله الطبيب : ولكن ما وجه الغرابة فى ذلك ؟ ماذا يعيبنى ؟ أخبرنى بصراحة .

– لا شيء إلا أنك عار تمامًا كراحة يدى ، فإذا تركت هذا الشيء الصغير الذى تحمله فى يدك بَدَوْتَ إنسانًا بدائيا .

– ولكن مرضاى لا يعلقون هذا التعليق ، ولا يعيرون هذا الأمر أدنى أهمية .

– هذا شأنهم ، ولابد أن مرضاك يجتـــازون أزمة عقليـــة حـــادة لا يعلـم مداها إلا الله .

فرد الطبيب وهو يطل من النافذة : لا تكن طفلاً يا فتاى العزيز .

– ابتعد عن هذه النافذة حتى لا تجعلها فضيحة علنية .

فأجاب الطبيب بلا اكتراث : وما يضيرك فى هذا ؟

– لا جدال أن هذا المنظر يؤذى مشـاعـر الكثـيرين ، وأنا لا أحب أن يراك أحدٌ عاريًا فى حجرتى ، فهذا يثير الظنون ، ولو كنتَ امرأة لما أساء هذا إلى شعور أحد بهذه الدرجة ، وإن كان لا يعدو أن يكون فعلاً شائنًا أيضًا .

– امرأة عارية ! لا ياصاحبى . إنك ستلقى الكثير من النساء العاريات هنا .

– ماذا تقول ؟ نساء عاريات !

فرد الطبيب وهو يتحول عن النافذة : ولم لا ؟

– لنكن مـعقــولين أيها الطبيب . فأنت تعلم السبب دون الحـاجة إلى سؤالى ، وإنى لأخالك تمزح معى لا أكثر ، أليس كذلك ؟

فأجاب الطبيب ببرود : لا ، بكل تأكيد ، ولتعلم أن من بين زبائنى الأعزاء نساء عاريات .

فكر بيتر مليا ثم قال : إذن ، لابد أنك لا تنجز من عملك إلا أقله .

– ماذا تعنى بقولك ؟

– كل شىء . كل شىء .

- يبدو أنك غير مهذب. فمعظم زبائنى من النساء، وكلهن عاريات .

- أعرف هذا . ولكن لابد أنهن يرتدين قمصان النوم على الأقل وهن فى فُرُشِهِنَّ .

- إذا حدث ذلك فإنى أنزعها بنفسى .

- رباه ! أى نوع من الأطباء أنت ؟

- وبهذه المناسبة ، أحيطك علماً بأن السيدات يعتدن ذلك أسرع من الرجال .

- يعتدن ماذا ؟

- العُرْى .

- هل تعنى عُرْيَك أنت أم هن أيضًا ؟

- كلنا .

- آه ، لقد بدأت أفهم الآن، وإن كنت أشك كثيراً فى كلمة «سيدات» التى قلتها .

- إنهن سيدات بمعنى الكلمة ، سيدات كاملات .

- أى كمال تقصد ؟

- الكمال ، الكمال المعروف .

- يلوح لى أنك لا تجهل معنى الكمال ، بل إن مفهومك عن الخطإ والصواب يجانبه التوفيق ، فلا أجد مثلا ما يُسَوِّغ لك مرورك عاريًا على مريضاتك العاريات ؟

- ولم لا ؟ ألا أعالجهن ؟

- نعم ، نعم ، وإن كان لى اعتراض واحد ، وهو أن علاج مرض إحداهن قد يؤدى بسهولة وسرعة إلى استخدام مواهبك العلاجية من جديد .

- ثق يا صديقى أنه لا محل هنا لمثل هذه التعقيدات .

فتمتم بيتر وهو يفكر فى ساقى چو : إذن فلا بدً أن هناك سرا يكمن وراء هذه المهزلة . وإلا فأنت من طينة أخرى غير البشر . فإما أنك أعلى أو أدنى منهم مرتبة . الواقع أنى لا أكاد أفهم شيئًا .

– ليس لتقديرك هذا نصيب من الصحة ، ويخيل إلىَّ أن «شئون الجسد» تحتل من تفكيرك شطرًا كبيرًا .

فقهقه بيتر ساخرًا وهو يقول : أنا على الأقل مستور بالفراش الذى أرقد عليه : أما أنت «فجسد» خالص .

وفى هذه الأثناء ، بينما كانت عينا بيتر تحملقان فى الباب الذى تركه ذلك الطبيب المعتوه أو الفاسق مفتوحًا ، إذا ببصره يقع على منظر غير مألوف لا تسنح رؤيته لأمثاله إلا نادرًا ، فقد شاهد رجلاً عاريًا يحمل سلَّمًا خشبيا تحت أحد إبطيه، ويلوح بفرشاة طلاء فى اليد الأخرى ، ثم يشرع فى دهان جدار البهو ، وإذا بامرأة تمر أمامه عارية كيوم ولدتها أمها تحمل صينية عليها طعام الإفطار . وكان تقدير بيتر أنه عندما ترى المرأة ذلك النقاش العارى فستلقى الصينية حتمًا وتفر هاربة، وكذلك يفعل النقاش . ولكنه لاحظ أنهما يومئان أحدهما للآخر بالتحية ، ثم ينصرف كلٌّ منهما إلى عمله بهدوء ، فأخذه العجب والدهش ، وشهق شهقة حادة ، وزاغت عيناه نحو الطبيب وهو يقول :

– هل تسير كل الخادمات هنا عاريات ؟ بربك لا تقل لى «ولم لا ؟» .

– وعلى أى صورة إذن تريدهن أن يسرن ؟

فكر بيتر لحظة فى القس ، ثم قطب ما بين حاجبيه وهو يفك عقدة لسانه وقال :

– أليس فى استطاعتكم العثور على «منشفتين» لهما ؟

– وماذا يفعلن بهذه «المناشف» ؟

– يعلقنها فى مكان ما . لا أظنك إلا مستحسنًا هذه الفكرة أيها الطبيب .

فرد الطبيب وهو مشغول بذراع بيتر : إنى لا أكاد أفهمك ، ولا أرى ما يبرر اقتراحك هذا . بل إنى لأتساءل : أين وكيف يعلقن هذه المناشف . ومع ذلك ..

فقاطعه بيتر ساخراً : يبدو لى أن مقدرتك على التخيل محدودة .

ولم يزد بيتر على هذا حرفًا واحدًا ؛ لأنه اختفى فجأة تحت أغطية الفراش عندما دخلت الغرفة امرأة عارية تحمل بعض الضمادات ووعاء به ماء دافئ. سمعها بيتر وهى تقول : هأنذا على استعداد أيها الطبيب، وأعتذر لتأخرى . وبهذه المناسبة ، هناك فتى فى السابعة عشرة من عمره يرفض أن يسلمنى سرواله .

فرد الطبيب ببساطة : انزعيه ، انزعيه رغماً عنه .

وقد حار بيتر وهو قابع تحت الغطاء فى تفسير كُنْه هذه الظاهرة . كيف أن رجلاً عاريًا يخاطب امرأة عارية بمثل هذه البساطة ؟

وبدأ الطبيب يكافح لإزاحة أغطية الفراش من فوق بيتر الذى احتج قائلاً : لا ، لا تفعل هذا بربك ، فأنا لم أرتدِ «البيجاما» بعد .

فصاح الطبيب متعجبًا وهو يلهث : وهل رأيت أحدًا منا مرتديًا البيجاما ؟

- إذن فأنتم تريدون أن تصنعوا بى ما صنعتم بأنفسكم .

وسمع بيتر الفتاة وهى تضحك بصوت صاخب ، ثم أحس بيديها تمسكان بحافة الغطاء ، ومن ثم أخذت هى والطبيب يطويان الغطاء بنجاح . والواقع أن الصراع لم يكن متكافئًا ، فماذا تجدى ذراع بيتر الوحيدة أمام أربعة أذرع ؟

وصرخ بيتر يائسًا : إلى أى قَدْر تنويان رفع الغطاء ؟

- إلى آخر مدى ، سنرفعه كله .

وفعلاً مضيا فى تنفيذ وعدهما .

ورمق بيتر الجسديْن المنحنيين فوقه وقد بلغ اليأس منه مبلغًا كبيرًا، فرأى عينى الفتاة ممتلئتين مرحًا وغبطة ، وعينى الطبيب تقدحان شررًا وجنونًا .

وصاح الطبيب وهو يغسل ذراع بيتر : لا مزاح بعد الآن .

فرد بيتر مندهشاً : مزاح ! هل تظن أنى كنت أمزح معك طوال هذا الوقت .

- إما أنك كنت تمزح ، وإما أنك كنت تحاول تعقيد الأمور دون داع .

- ربَّاه ! أتقول دون داع ؟

- أرجوك أن تكف عن محاولة اجتذاب الأنظار نحوك ، فلستُ أراك خفيف الظل .

وعندئذٍ انعقد لسان بيتر ولم يَعُدْ يَقْوَى على الكلام ، ثم غالب نفسه وقال مندهشاً: أجتذب الأنظار نحوى ؟ يا للعجب ! وهل فى الإمكان أن أُظْهِرَ من نفسى ما يجذب الأنظار نحوى أكثر مما أنا عليه الآن ؟

فردت الفتاة وعيناها الزرقاوان تترددان بخبث : بالتأكيد ، فأنت قد تثير فضولى إذا ما ارتديتَ ملابس العَشاء مثلاً، أو حتى إذا لبست سروالا، فقد تُحَرِّك فىَّ النشوة . فأجابها بيتر بصوت يشوبه التردد ويدل على الأسف : ألا تخجلين من نفسك أيتها الفتاة ؟

- كلا ، فهذا هو عملى خلال النهار ؟

- إذن فالله وحده يعلم ما تعملينه أثناء الليل . يبدو لى ألا فائدة من تحويل نظرى فى أى اتجاه آخر ، فحيثما جال بصرى رأيت جسداً عارياً من الأجساد الوفيرة فى هذا المكان .

فرد الطبيب مقترحاً : ولم لا تنظر إلى نفسك ؟

- لأن احتمال هذا المشهد يبدو لى أشد صعوبة على نفسى .

فردت الفتاة قائلة : ثِقْ أننا لا نجد هذه الصعوبة فى التطلع إلى جسدك .

فتساءل بيتر متهكمًا : لم لا تضطجعان إلى جانبى بالفراش ، وليكن ما يكون ، إذ يخيل إلىَّ أنكما لا تباليان بشىء على الإطلاق .

صاح الطبيب : لشد ما أمقت أن أفعل ذلك .

– حقا ؟ إذن فهل لى أن أسالك عما لا يعجبك فيَّ ؟

– أعتقد أنك ذو عقلية ماكرة شريرة ، ولذا سأعمل على مراقبة حركاتك وسكناتك بعين ساهرة .

– أنت تدفعنى حثيثًا نحو الجنون . وهل هناك منظر أفحش مما أراه الآن حتى توصى بمراقبتى .

فصاحت الفتاة : لا تنفعل هكذا ، فلن نتركك تغيب عن نظرنا لحظة .

– وهذا ما أخشاه ، فالأنظار التى ستتطلع نحوى كثيرة .

فردت الفتاة . إن أمام عينيك مهامَّ طويلة لا حصر لها ، فلا تغفل عن ذلك .

فرد بيتر : لن أنسى ذلك لحظة واحدة .

وفى هذه اللحظة سُمع صوت صاخب عند باب الحجرة أعقبه دخول آرثر عاريًا ، ساترًا نفسه بدَلْو ومنشفة وهو يصيح متقدمًا نحو الفراش : سيدى ، لقد نزعوا عنى ثيابى وأصبحت عاريًا كالأطفال .

فسأله بيتر : عاريًا كمَن ؟

– كالأطفال .

– بل أشد عريًا حتى من أصغر الأطفال .

– لا أفهم معنًى لما تقول ، ولكن كيف حالك أنت ؟ .. يا إلهى ! انظر إلى هذه المرأة !

– أما عن حالى ، فأنا على الأقل أحتفظ برباط فوق ذراعى . وأرجوك ألا تطلب إلىَّ مرة أخرى أن أنظر نحو أى شىء ، فلم يخطر ببالى يومًا ما أنى سأشاهد ما شاهدت .

فتساءل الرجل القصير بحزن قائلاً : بربِّك ، ماذا سيجنيه نشال فى مستعمرة للعرى ؟

فعلق بيتر قائلاً : هذا سؤال يحتاج إلى تفكير عميق ، ولكن يخيل إلىَّ أن يديك باتتا فى حاجة إلى دُرْبَة أكثر من ذى قبل .

– أو لا داعى لليدين هنا على الإطلاق .

فرد بيتر متممًا : طالما لا تتوفر «الجيوب» هنا . وبهذه المناسبة ، هل ذكرت منذ لحظة أننا فى مستعمرة للعرى ؟

– قد تكون مستعمرة للعرى ، وقد تكون للرفيق الأبيض ، فالنتيجة واحدة فى كلتا الحالتين .

– أية نتيجة ؟

فاحمر وجه آرثر وقال : لا تسألنى مثل هذا السؤال أمام هذه المرأة .

فصاح بيتر : آه ، وهل صادفتَ أحدًا من أولئك العرايا قبل مجيئك إلى هنا ؟

– لقد قابلت منهم عشرة على أقل تقدير . ولم يكن فى مقدورى تركيز نظرى مدة تتيح لى تمييز أحدهم عن الآخر ، كما كنت أحار أى الطرق أسلك لأتجنب هذه المناظر .

– ولِمَ لَمْ تدلف إلى دلوك ؟

– ليتنى أستطيع ، فلو لم يكن مملوءًا بالماء لوضعت رأسى فيه .

فتدخل الطبيب لأول مرة منذ دخل آرثر قائلاً : ضَعْهُ ولا تخف ، والزم هذا الوضع بعضَ الوقت .

فقال آرثر : أهذا أسلوب يليق بالأطباء ؟ لا ريب أن هذا المنزل قد أعد لسفك الدماء ، أو لما هو أبشع من ذلك .

فرد الطبيب قائلاً: أعلم أنى كنت أتكلم بصفتى الشخصية لا المهنية. والآن آمرك بصفتى المهنية أن تنصرف إلى عملك .

فأجاب لص الجيوب شاكيًا : إنهم يطلبون منى أن أنظف الحمَّام وأنا على هذه الصورة .

فرد پيتر : أظن أن تنظيف الحمَّام وأنت على هذه الصورة أمر معقول .

– إنك لا تقل عنهم سوءًا يا سيدى . ألا تشعر بمنظرك وأنت راقد عارٍ على هذا النحو المخجل ؟

– بالتأكيد أشعر به ، حتى لأكاد أصرخ .

فصاح الطبيب بآرثر : إذا لم تكن تسعى إلى المتاعب فأسرع وافعل ما آمرك به ، وإلا فلن تلقَ إلا المصاعب . ودعنى أذكِّرك مرة أخرى بأننا لا نقف مكتوفى الأيدى أمام الحماقة .

فقال آرثر وهو يتجه صوب الباب : إن ما أراه حولى لا يدل إلا على منتهى الحماقة ، ألا ترى أن السير عاريًا هكذا هو الحماقة بعينها ؟ إنى أعدُّ هذا العمل من الأعمال الصبيانية ، بل أسوأ من ذلك . إنها بذاءة لا تصدر عن بشر .

فلوح الطبيب بآلة حادة نحو النشال وقال : أتريد أن أجرى لك عملية جراحية ؟

فألقى آرثر بنظرة لا إرادية نحو نفسه وقال : أوه ، لا . لا !

فضحك پيتر على الرغم من حالته السيئة ، إذ لم يسبق له أن رأى آرثر يتكلم بمثل هذه الصراحة والجدية .

وأرعد الطبيب صائحًا : إذن عَجِّلْ بالخروج .

فاحتج پيتر قائلاً : أنا لا أسمح لك أن تخاطب خادمى بمثل هذه الفظاظة والعنف .

فنظر الطبيب إلى بيتر نظرة قاتمة ، ثم لوح بالسلاح اللامع فى يده وقال بصوت يدل على الرغبة والاستعداد : وهل تسمح لى باستخدام هذا أم ذاك ؟

وهنا أخذ الطبيب يحرك المبضع الحاد فى الهواء بطريقة جنونية أثارت الرعب فى قلب بيتر حتى تقلص جسمه وقال: لا داعى البتة لمثل هذا التصرف ، وأنصحك يا آرثر بأن تخضع لما يريده إن أردت لنفسك السلامة ، فهذا الرجل لا شك مخبول .

فرد آرثر: ألا يمكننى المكوث هنا معه ، فأعتاد صوته حتى أستطيع تمييزه بين هذه الجموع العارية المتشابهة ؟

فصرخ فيه الطبيب قائلاً : اخرج .

وبعد لحظة واحدة كان آرثر والدلو والمنشفة قد اختفوا جميعًا من الحجرة .

وقال بيتر بعد خروج خادمه عاريًا : اصْغ إلىَّ هنيهة أيها الطبيب ، فأنا ما زلت أشك فى حقيقة هذا المكان الذى أتيت إليه ، وأرجو أن تخبرنى بصراحة : هل أنا فى مصحة عقلية ، أم ملجأ للفَسَقَة التائبين ، أم فى مقر إحدى الجماعات المهووسة .. أم ماذا ؟

فرد الطبيب وهو يحزم حقيبته السوداء : لستَ فى حالة تسمح لى بالإجابة عن أسئلتك الفضولية .

ثم نظر إلى الفتاة وأشار إليها أن تتبعه بعد أن قال لبيتر : سأعودُك مساء اليوم لأضمد لك جرحك مرة أخرى .

فسأل بيتر : ألا يمكن زيادة الملابس ولو قليلاً قبل أن تتركنى ، فتجود علىَّ مثلاً برباط آخر ، وبهذه المناسبة ، لدىَّ فكرة ..

فأجابت الفتاة قائلة : ولكن هذا يعد غشا وتحايلا ، فضلا عن أن منظرك سيبدو مضحكًا .

فقال بيتر وهى تخـــرج من الباب دون أن توصــده : إنى ولا شك أبدو مضحكًا منذ الآن .

وما إن غادراه، حتى هب بيتر واقفًا وسار على أطراف أصابعه حتى بلغ النافذة ، ولم يُطِل منها إلا بعد أن تأكد أن الستائر تحجب نصفه الأدنى ، فشاهد على مدى البصر حدائق خضراء متموجة تسطع فوقها أشعة الشمس ، وتعبق برائحة الزهور والورود الذكية ، ويهب عليها نسيم البحر المنعش ، وكان منظر البحر ساحرًا خلابًا بعد أن انقشع عنه الضباب ، فبدت صفحته الزرقاء العميقة تتماوج فى رقة .

ولما حَوَّلَ بصره نحو الأشجار الكثيفة الخضراء، رأى الأغصان تتمايل مع الريح، وتعلوها طبقات السحاب البيضاء ، وبالقرب منها أجسام بيضاء ناصعة تامة النمو ، وقد تجردت مما يسترها فبدت كحُور الجنة ، ولو كانت هذه الأجساد سوداء بدل أن تكون بيضاء لما وجد بيتر ما يشغل باله أو يقلقه؛ فالأجسام السوداء والسمراء لها مذهبها الخـــاص فى العرى ، إذ ترى أصحابها غير معنيين بشئون «الجسد» ويوجهون جُلَّ اهتمامهم إلى كل ما هو فوق الطبعى وكل ما يختص بالروح، وإنْ كان هذا لا يَحُولُ دون تدليل الجسد بين وقت وآخر فى حفلات السُّكْر والعربدة التى تؤدى إلى تطهير أذهانهم من الكثير من الحماقات ، وتترك أفكارهم طليقة مستعدة لما هو أهم من ذلك .

وقد شهق بيتر شهقة عميقة تدل على الدهشة والعجب من هذا المنظر الفريد الماثل أمامه . وبينما هو فى تأمله ، إذا به يفيق على صوت صاخب خلفه . وما كاد يستدير حتى رأى جسدًا عاريًا يواجهه ، وقد أزعجه هذا الجسد إزعاجًا أشد من سابقيه ، وبخاصة أنه كان أرشق وأبدع الأجساد التى هيأها حسن طالعه إلى مصادفتها .

ظل الصمت مخيمًا فى الغرفة ، على حين أخذ قلب بيتر يضطرب بانفعالات متعددة ، وفى آخر لحظة وردت على ذهنه فكرة ظن أنها الكفيلة بنجاته ، وبدون تردد قفز نحو الفراش مستترًا بأغطيته ، ولكن يبدو أن هذه الفكرة بعينها كانت قد اختمرت

فى الوقت نفسه فى ذهن چوزفين الأثيم ، فما إن ردت الباب وأحكمت إغلاقه حتى اندفعت مسرعة نحو الفراش ، وبدأت تزيح الأغطية من فوق بيتر محاولةً أن تبزه فى القدوة الحَسَنة التى ضربها لها منذ لحظة .

فصاح بيتر وهو يتشبث بيديه فى الأغطية : ناشدتك أن تتركى لى هذه الأغطية ، وتخرجى من غرفتى وفراشى .

فردت چوزفين بعناد : لا ، لن أخرج .

– ولكنكِ تركتِنِى عارياً كآدم .

– أهذا كل ما يقلقك ؟ أنت فى وضعك هذا أفضل منى على كل حال .

– إن كلا من الوضعْين لأسوأ من الآخر، ومع ذلك فأنا لست على استعداد للمناقشة فى هذا الموضوع ونحن على هذه الحال الشائنة .

ثم سحب الغطاء فوقه بعنف ، وما كاد يدلف تحته حتى وجد جسد چوزفين العارى إلى جواره . وفى الحق أنه كان منظراً أخاذا يعبرً عما يبلغه المرء من النشاط والهمة حين يبلغ به اليأس الذروة . وقد ضرب بيتر بمظاهر الفروسية والشهامة عرض الحائط ، ليُحِلَّ محلها كل ما هو لازم كى يحتفظ المرء بماء وجهه .

قالت چو وهى تلهث : يالك من رجل نبيل ! بل زير نساء دنىء ! هل تحاول أن تجرد امرأة عارية مما يسترها ؟ إذن سنرى ، وسأجردك بدورى من كل ما يسترك .

– ناشدتك أن تبتعدى عنى ، وتكُفِّى عن هذا الحديث .

ولكن چو ألقت بجسدها على الغطاء ، ونزعته من فوق بيتر وهى تطويه حول نفسها .

فصاح بيتر : إذا ظل هذا التجاذب قائماً بيننا ، فستخور قوانا فى النهاية حتى نعجز عن تغطية أنفسنا .

- إن كان هذا أملك فقد خاب ظنك ، فأنا لن أغادر هذا الفراش أو تلك الأغطية .

فقال بيتر : أرجو أن تعيدى إلىَّ الأغْطِية ، فقد حان دورك لتمكثى عارية بعض الوقت .

فقالت چو مقترحة : وما رأيك لو تقاسمنا الغطاء ؟

- نحن فعلاً نتقاسمه ، وأخشى إنْ ذاع عنا هذا أن ينبذنا المجتمع مدى الحياة .

- وما هذا الذى يذاع ؟

- موقفنا طبعًا. أستحلفك بالله أن تبسطى ولو غطاء واحداً فوقى .

فردت باستخفاف ظاهر : يريد أن أغطيه فحسب ! .. عليك أنت بهذا ، فأنا منشغلة بنفسى .

وبعون من الله ، بعد الكثير من المحاولات ، نجح بيتر فى إخفاء جسمه تحت الغطاء المتنازع عليه ، ليجد نفسه وجهًا لوجه أمام زميلته المشاكسة فى الفراش ، فسألها بصوت مرتعش :

- ألا ترين أننا فى وضع مشين ؟

- لست أدرى ، وإن كان بعض الناس لا يعدونه وضعًا مشينًا .

- أنت شيطانة، أما أنا فلم أعد قادرًا على احتمال مثل هذه المواقف. والواقع أن هذه المثيرات المتوالية قد أنهكتنى ، وأشعر أنى على وشك الإغماء فى أى لحظة .

فردت الفتاة بعد أن زحزحت رأسها الأحمر خارج الغطاء حتى صارت على بعد سنتيمترات عشرة من رأسه : أراك أبعد الناس عن إزجاء المديح . وبهذه المناسبة ، ما رأيك فى ثوبى الوحيد ، يا بيتر ؟

- أكاد أجزم من النظرة التى ألقيها عليك أنك لا ترتدين شيئًا على الإطلاق .

- ولكنى أرتدى شيئًا آخر أيها الغبى .. ثوبى الطبيعى !

اقشعر بيتر من هذا التشبيه ، ثم صاح بها : أرى من الناحية الخُلُقيَّة أنه ينبغى عليك إن كنت سيدة فاضلة أن تبرحى هذا الفراش على الفور .

- وماذا لو افترضنا أننى من الناحية الخلقية لم أكن سيدة فاضلة .

- فى هذه الحالة لا يمكننا الاستمرار فى مناقشة خُلقية .

فقالت چو وهى تمرر أصابعها خلال شعر رأسه : كم أكون سعيدة بهذا !

- لا تفعلى ذلك بربك ولا تتحركى قيد أنملة .

فتساءلت وذراعها البض يلتف كالثعبان حول عنقه : وهلا فعلتَ هذا أيضًا ؟

- لا ، لا هذا ولا ذاك .

- وماذا تمنحنى لو أجبتك إلى طلبك ؟

- ماذا أمنحك وأنا لا أملك شَرْوَى نَقِير ؟ إنهم لم يتركوا لى حتى «دفتر الشيكات» . وإذا كانوا قد تركوه لكنت قد مزقته وجدلت منه ثوبًا أستر به عورتى .

- فى هذه الحالة كنت ستبدو رائعًا .

- قد لا أبدو رائعًا على الإطلاق، ولكنى كنت سأشعر بأنى أقل شيوعًا مما أنا الآن . هل لى أن أسألك إلامَ ترمين من وراء هذا كله ؟

- إلى هذا .

قالت هاتيْن الكلمتيْن ثم طبعت على فمه بسرعة قبلة طويلة حارة أنستها نفسها .

البَحث عن مأوى

مرَّت لحظة وبيتر مُتَّكئ على جانبه يتأمل بدقة وجه الفتاة المسترخية إلى جانبه وأخذ يتحسس تقاطيعه بأطراف أنامله ، ثم لم يتمالك نفسه وقال :

- الواقع إن شعر رأسك يثيرني ويهيج أعصابي ، إنه لمن تلك الأنواع التي كلما صادفتها ذكرتني بجهنم تهبُّ منها ألسنة اللهب ، أما وجهك فهو رائع حقا .

فقالت الفتاة وقد فغرت فاها من الدهشة : إني لأعجب كيف أطاوع نفسي فأظل مُستلقية هكذا إلى جوارك أتطلع إلى رأسك العجيب. إن شكلك يذكرني إلى حد كبير بالأرانب .

- أتشبِّهينني بالأرانب ؟ وما وجه الشبه ؟

- في المظهر الخارجي فحسب . ثم إنك لمغرور .

- بل بالعكس فلست بذي مطامع واسعة ، وإني لأرضى بالقليل وطموحي محدود .

- من المؤسف حقا ألا تكون من تلك الفئة ذات المطامع الواسعة .

- لأنه من الصعب الأخذ بهذا الاتجاه معكِ أنتِ. فقد تستدرجينني إلى حيث لا أعلم .

فقالت وهي تداعب خديه بأناملها : إذن فأنت تعتبرني من أولئك اللاتي يوقعن بالرجال ، تَعتبرُ نفسك إحدى ضحاياهن .

- نعم فأنا أشعر أني كذلك ، مثلي معك كمثل الممثلين الثانويين على منصة المسرح ، ولكن هل تحملينني مسئولية سقوطك ؟

– أنا لا أميل إلى المســارح الزاخــرة بضجة الممثلين الثانويين . ثق يا بيتر أنك أول لاعب على مسرح حياتي القصيرة. أما عن ذلك السقوط الذى لا تملُّ ذكره فأرجوك ألا تخلط بين الحياة الواقعيــة والقصص الروائية .

فقال بيتر : إنك لامرأة عميقة .

– كلا ، بل أنا امرأة معتدلة ، وإن كنت أنجرف أحيانًا فى تيار الخيال ، فمثلا أرى أن وجودى هنا إلى جوارك من اللطف بمكان لن أنساه لأمد طويل .

– إذا شعرت أنك بدأت تنسين ، فمرى على فى وقت فراغك ، عسى أن أنعش ذاكرتك .

فقالت الفتاة وهى تكتم سرورها : سأحيط يولندا الآن علمًا بكل شىء ، ثم أسأل القس أن يعقد قرانى عليك .

– وكيف تصلين إلى مُرادك ؟ أراك ستستدرجينه إلى السقوط أيضًا قبل الوصول إلى مُرادك .

– لا مانع إذا لزم الأمر .

– على العموم فإنى قد أزمعت أن أتزوجك ، بصرف النظر عما تقترفينه ، وخيرًا سأفعل ، إذ لو عقد القس قراننا هنا سرا فإنى بذلك قد أتفادى رثاء الجمهور لى ، عمًا لو تمت إجــراءات هذا العقد فى المدينة علانية .

فصاحت چو وقد غمرها السرور فطوقته بذراعيها: إذن فأنت تعنى بى وتفكر فى، ما أجملَك وأعذبك !

أجاب محتجا وهو غير عابئ بذراعيها : بل كنت أفكر فى القس .

ولحسن الحظ تدخَّل عامل جديد أفسد على چوزفين نشاطها ، إذ طرق الباب بشدة ، تلى الطرق صوت يأمر بفتحه . ولم يكد بيتر يتذكر الموقف المريب الذى هو فيه حتى جن جنونه ونهض مذعورًا من الفراش وهو عار تمامًا .

صاح الصوت : افتح الباب لأن غلقه مخالف للوائح. افتح فوراً .

فرد بيتر : ولكنى لا أعرف اللوائح .

فأجاب الصوت موبخًا : كان الواجب أن تعرف على الأقل ما يجعلك تتجنب ما أتيته .

فقال بيتر وقد تغيَّر لون وجهه : ربَّاه ! يبدو أن العالم كله يعرف ما جرى هنا .

ثم استطرد : إتيان ماذا ؟

– لا تراوغنى أيها الرجل . إن لم تسرع بفتح الباب فسأحطمه . أمعك امرأة ؟

فرد بيتر وهو يشير إلى چو بالصمت : ما الذى حدا بك إلى طرح هذا السؤال الغريب !

– لأن هناك فتاة مفقودة ، وكثيراً ما يقع الزبائن الجدد فى حماقات .

– أىُّ حماقات أيها الرجل ؟

وهنا ارتفعت أصوات جديدة فى البهو ، وحفيف أقدام حافية ، وضحكات خافته مكبوتة ، وصفعات لينة فوق لحم عار ، فأغمض بيتر عينيه وهو يرتجف من الخوف وتخيل جمعًا من الأجساد العارية منتظرة وراء الباب لتمتع أنظارها بمشاهدة عاره وخجله . ثم تكرر الطَّرقُ على الباب ، وخلال يأسه ، نسى بيتر جرح ذراعه وبدأ يمزق أغطية الفراش ، وقد احتفظ بواحد منها جانبًا .

فسألته چو بصوت رقيق : ماذا تفعل ؟

سأربط هذه الملاءات بعضها ببعض لأتدلى بها من النافذة .

– إنما أسألك عن الملاءة التى احتفظت بها جانبًا ؟

– سأستتر بها .

– وبم أستتر أنا ؟

– ليس لدى من الوقت ما يسمح لى بالتفكير فيك الآن ، أنا كما ترين مشغول جدا .

فقالت هامسة بحنق وهى تنهض من الفراش : أيها الجبان العارى !

ثم بدأت تربط الملاءات بعضها بالبعض والطرق يتزايد على الباب .

صاح الصوت : افتح هذا الباب ، ما الذى تفعله الآن ، وما الذى يشغلك ؟

فرد پيتر بسرعة : خمِّن .

وبينما پيتر يتناول الملاءات من چو التى كانت تساعده، إذ بصدمة قوية تهز الباب، فربط پيتر أحد طرفى حبل الملاءات بأحد قوائم السرير ، وقذف بالطرف الآخر من النافذة ثم استتر بالملاءة الأخرى وأسرع نحو النافذة ... واختفى .

صاحت چو بصوت خافت لا تختلط به نغمة السرور :

– لحظة واحدة أيها المهاتما الصغير ، أم تريد الفرار وحدك ؟

فقال پيتر : إنى لم أحسب لك حساباً ولم أعن إلا بنفسى .

ودون أن يلقى پيتر بنظره إلى أسفل ليرى ما ينتظره تعلق فى الأغطية المتدلية ، واختفى دون أن يأبه لذراعه المجروحة المضمدة . وبحثت چو عبثًا عن رداء تستتر به عند فرارها ، ولما خاب سعيها تمتمت داعية رب العذارى : فلتنزل علىَّ لعنة الله إذا أنا أمكنته من تحقيق مآربه . حقا قد يفقد المرء الشرف ، غير أنه من الصعب أن ينزل عن كبريائه فى يسر .

وأسرعت تجاه النافذة ثم تدلت على الحبل ، وما كاد پيتر يرفع بصره إلى أعلى حتى أوشك أن يفقد القدرة على القبض بيديه ، وإذ كان الذعر الذى أصابه مما رآه فوقه أشد مما كان يخشاه تحته استجمع قواه مستمرا فى الهبوط .

وبسرعة فائقة أدركت چو پيتر بمنظره الغريب فى أثناء هبوطه تحتها ، وكادت تسبقه لولا أن الحال لم تسمح بذلك ، فاكتفت بالجلوس فوق رأسه .

وانحنت چو بسكون وبسرعة ، ونزعت عنه الغطاء ، فأطلق پيتر صرخة قوية أودعها كل خوفه وذعره ، فقالت له چو مفسرة : ثمة حشد من الناس فى هذه الحديقة وأنا فى حاجة إلى هذا الغطاء .

– أنا لا أكاد أرى أحداً ، فقد فقأت أقدامك عينى .

وما كادت چو تلف طرفى الملاءة حول عنقها حتى تدلت حول جسدها ، ولفرط طولها غطَّت الجزء العلوى من جسد پيتر أيضًا . وهو ما نتج عنه منظر أخَّاذ لمخلوق ملفَّق ، بدأ حياته كامرأة ذات شعر أحمر ، آثرت بعد حقبة طويلة خلال مراحل تطورها الغريب ، أن تختم بقية جسدها العجيب بزوج من سيقان الرجال وأقدامهم الهزيلة العجفاء .

أما تلك المسافة الطويلة التى يحوطها الغموض والإبهام ، والتى تفصل ما بين الرأس والقدمين المتقلصتين ، فكانت لحسن الحظ محتجبة عن النظر تحت الملاءة الرجراجة الخفاقة .

وبينما هذا الشبح الشاذ التركيب يتدلَّى بشكله غير المألوف حول حبل الملاءات، توافدت على ساحة الحديقة جماهير جديدة من المتفرجين، وهم فى خوف من أن يسألوا عن ماهية هذا الشىء ، ويبدو أنهم كانوا يفضلون أن يظلوا على جهلهم ، على أن يواجهوا ما لا يمكن أن يكون إلا أمراً مريباً .

وبعد برهة سألته چو ، وقواها على وشك الانهيار : كم تبعد الأرض عنا الآن ياپيتر ؟

– يبدو أننا بوضعك هذا فوقى على وشك الوصول ، فأنا معرض فى كل لحظة لكسر عنقى .

– أسرع ، أسرع بالهبوط لأننى إذا سقطت فحتماً سأجرفك معى .

– أرى تحتى بحراً زاخراً من الوجوه، وأود لو أسقط فوقهم لأطحنهم، غير أنى أخشى أسنانهم التى تبرق بين شفاههم .

- أتعنى أنك ترى كلاباً ؟

- بل أسوأ من ذلك ، أجساماً وحشية عارية كانت لبشر يوماً ما .

أثناء هبوطهما ، إذا بالملاءة تنزلق وكأنها بفعل فاعل . فانقلبت نبراته إلى غضب شديد ثم أردف قائلاً : إنى ذاهب يا چو فحالة جُرحى تسوء .

فهبطت چو أسفل منه لتتمكن من جذبه إليها ، ولكنها لفرط دهشتها أحست هى الأخرى بمن يجذبها ، ولا تسل عن ارتياحها وهى تهوى على الأرض ، لتذكرها أن بيتر ڤان دايك قد جذبها معه ولم يُهمل شأنها .

وأخيراً وصلا إلى الأرض فوجدا نفسيهما وسط جمهرة من العراة، جاثمين أحدهما فوق الآخر وفوق بعض العراة الذين سقطوا تحتهما حال بلوغهما سطح الأرض . وبعد لحظة نهضا واقفين وشرعا فى العدو فوق المروج الخضراء ، متجهين إلى أقرب الأشجار ليختبئا وراءها ، فتبعتهما الأجساد العارية ضاحكة مهللة ، كما لو كانت جمعاً من المعتوهين يلهون فى أثناء رياضتهم .

كانت هذه هى الفكرة التى تخيلها بيتر عنهم، غير أن الشىء الوحيد الذى لم يكن على يقين منه فهو مدى الفترة التى سيظل فيها صخبهم وديا . فقد يبدلون مشاعرهم فجأة وينقضون عليه ليقطعوه إرباً .

سمع بيتر صوت استغاثة . فوقف لينصت . فإذا به صوت چوزفين وهي تصيح : النجدة ، النجدة يا بيتر . وإذا لم تسرع ، سأروى لهم ما فعلته بى .

فعاد إليها بيتر مسرعاً ، وفى الحق أنه عاد مسرعاً جدا . ولو أنه لم يرجو إلا أنه حدَّد مكانها بالتقريب من اتجاه صوتها ، فوجدها تُعانى تحت جسد ضخم لامرأة شديدة القوة والبأس . غير أن تفكيره فى وضع يديه فوق مثل هذا اللحم العارى ، الذى لم يشرف بتعرف صاحبه بعد . هو الذى جعل بيتر يتراجع قليلاً عن التدخل . ولكن ما المانع من المحاولة ولو مرة كتجربة ؟ حاول بيتر أن يزيح هذه الجثة الضخمة من فوق صاحبته . ولكنه ما كاد يضع يديه عليها حتى رفعها بسرعة ، ولا عجب فقد كان هذا الاشتباك الجثمانى أكثر مما تتحمله أعصابه الواهنة .

وصاحت المرأة وهى تقبض على عرقوبيه : هلم ، هلم لأضمَّك إليها بالمثل .

وما هى إلا غمضة عين حتى كان پيتر يرزح تحتها . وحتى فى تلك اللحظة ، وفى أثناء ذلك الصراع البدائى ، حاول پيتر أن يسلك سلوك الرجل المهذب فى مثل هذه الظروف ، بالرغم من أنه لم يكن يعرف على وجه اليقين نوع الإجراء الذى يتخذه الرجل المهذب فى مثل هذه المواقف . وقد أدرك پيتر لما أحس أن ضربات المرأة تضعف ويصيبها الوهن شيئًا فشيئًا ، أنه إذا أراد سليل إحدى أسرات نيويورك العريقة ألا يتخلى عن كبريائه ، فإن عليه أن يبذل غاية جهده فى ذلك السبيل ، وإذ كان الحديد لا يفله إلا الحديد ، فإن ذلك يعنى فى مثل هذا الظرف الحالى ، أن يقبض پيتر على أى جزء من جسم المرأة يكون قريب المنال من يده . فلما أحس بقوتها تتراخى نهض واقفًا ، وقبض عليها ثم دفعها بعيدًا مترًا أو نحو متر . وما كادت تستقر فوق الأرض حتى طالبته بسيل غير منقطع من الضحكات والوعود والرجاء بإعادة الكرة . وقالت چو وهى تقوم من فوق العشب معتمدة على ساق پيتر بحركة مثيرة كفيلة بإدخال الرعب إلى قلبه لو أنها حدثت فى ظروف أخرى مخالفة ، لكنه لم يعطِ حركتها أية أهمية نظرًا لحالته الراهنه ، قالت :

– اسمعى ياسيدتى، نحن لانمزح. أقسم باللّٰه أننا لانريد المزاح .

فصاحت المرأة وهى تستعد لهجمة جديدة : إذن فأنتما تعلنان الاستسلام .

وإزاء هذا التحدى فارت دماء آل ڤان دايك فى شرايين پيتر ، فإنه لم يخلق بعد سليل ڤان دايك – سواء كان عاريًا أم غير عار – الذى يرتضى الاستسلام بهذه السهولة ، ولاعجب فقد فطرت أسرة ڤان دايك على الصراع والتحدى ، ومن ثم انطلق يعدو وچوزفين من ورائه .

قالت چو مفسرة : إنهم يحاولون ملاعبتنا ياپيتر . فالأمر لا يعدو أن يكون لعبة مسلية بالنسبة إليهم .

– قد تكون لعبة مسلية بالنسبة إليهم، ولكنها الجحيم بالنسبة إلىَّ. أسرعى فإن هذه المرأة كالشيطان .

- وإلى أين نذهب ياپيتر ؟

- لا أدرى .

لم يمض وقت طويل ليعلم پيتر ما يخططونه ، فقد انطلق هذا الجمع المتلاحم فجأة بأجساده العارية نحو چو وپيتر ، ثم بدأ هذا الحشد من الرجال والنساء يرقصون فى دائرة حولهما . أخذوا يغنون بصوت مرتفع ، أغنية جعلت پيتر يزداد ارتباكًا فوق ارتباكه . وأخذ القوم يغنون محاولين أن يطربوا الزوج القابع وسط حلقة الأذرع والسيقان .

تساءل پيتر وهو يستدير للفتاة الواقفة إلى جانبه : أليسوا حمقى ؟!

فقالت الفتاة : المشكلة هنا أنك كلما أدرت ظهرك نحو بعضهم ، وجدت نفسك فى الوقت نفسه تواجه بعضهم الآخر . لعمرى إنها لأخبث دائرة وُجدت داخلها فى حياتى .

- إذن جربى الوقوف ثابتة .

- لا ، فأنا أفضل الرقاد .

- إذن فعجِّلى ، ولننبطح فوق بطوننا .

- أظن أنه يحسن بى أن أجلس القرفصاء .

- أما أنا فأود لو أتلاشى .

ودهشت الحلقة العارية الملتفة حولهما عندما رأى أفرادها چو وپيتر منبطحين فوق العشب بالطريقة التى يضمن بها كل منهما إخفاء المُخْجِل فالأشد إخجالاً من جسده .

القسُّ يتشبَّث بسرواله

ما كاد بيتر وچو ينبطحان على الأرض حتى كفّ مطاردوهما عن الرقص حولهما، وظلوا يتأملون الوضع الغريب الذى استقر عليه جسداهما باهتمام شديد ، ثم سألهما أحد الحاضرين قائلاً :

- ماذا أصابكما ؟ هل تستريحان ؟

فقالت چو : بالله اتركنا نهتم بأمورنا واذهب لحال سبيلك .

فأجاب صوت آخر : لابد أن ثمة ما يضايقهما .

فقال بيتر هازئًا موجهًا حديثه نحو حفنة من الأقدام العارية : أخشى أن يكون الأمل مفقوداً ، بل قد يكون من الجرأة إذا قلت إنه من العبث بل من المضحك أن أُفهمك ما هو أشد مضايقة لنا .

فأجابه زوج من الأقدام العارية : لا تسئ الظن بنا ، فنحن قوم لماحون فى غاية الذكاء .

فرد بيتر محتجا : لست من رأيك . فليس الظهور هكذا بمثل هذا العرى من الذكاء فى شيء .

فعلقت چو قائلة: قد يحق لكم أن تصفوا أنفسكم بالذكاء لو كنتم تنطلقون أزواجًا، أعنى اثنين اثنين . أما أن تحتشدوا هكذا فى مثل هذه الجموع الضخمة ، فلا أرى فيه ذكاء ما .

فصاح أحد العراة قائلا : آه، إذن هذا هو السبب ! فأنت لا تودين الظهور عارية لأن ذلك يخجلك .

فرد بيتر قائلاً : بل أشد وأنكى من ذلك ، فهذا العرى يشلُّنى

ثم انبرت چو مفسرة وهى تقول : إذا لم تكن قد حدست بعد ما يثير ضيقنا ، فسأقوله لك تحت ثلاثة عناوين متفرقة واضحة حتى لا يستشكل عليك الأمر ، فأولاً ، نحن عراة ، وثانيًا ، أنتم عراة ، وثالثًا ، كلنا ، نحن وأنتم عراة ، وإذا كان هذا التفسير ما زال غامضًا حتى الآن فسأضيف تفسيرًا رابعًا لزيادة الإيضاح ، وهو أن هذا المكان قد خلا حتى من منديل صغير يمكن أن نستتر به ولو عشرة أفراد من الإناث والذكور .

فرد أحدهم قائلاً : ولكنا أكثر من ذلك عددًا .

فأجابته چو قائلة : أظن الأمر يحتاج إلى عقل أشد رزانة من عقلى حتى يستطيع إحصاءكم بدقة . ولا سيما أن عددكم قد تجاوز العشرة بكثير .

فقال پيتر : سليهم يا چو مغادرتنا فأنا غير مطمئن إلى وجودهم هكذا من حولنا .

فقالت چو : اذهبوا عنا ، فصاحبى لا يحب رؤية العراة ، فضلاً عن أن العشب يدغدغ أجسامنا .

فصاح پيتر : أنا لم أقل هذا . ومع ذلك فهو بالفعل يدغدغنا .

وانبرت إحدى نساء الجماعة تقول : ما الذى حلَّ بصاحبك وضايقه الآن ؟ هل فقد القدرة على الكلام ؟

فانفجر پيتر قائلاً : نعم ، لقد فقدت كل شيء ، لقد ولى الشرف والأمل بل الكرامة أيضًا ، ذهبت كلها وولَّت ، فأتمنى أن تذهبوا مثلها .

فانبرى أحد أعضاء الجماعة ممن لم يسبق لهم الحديث حتى الآن قائلاً : إذا كنتما لا تحبان العرى فلم جئتما إلى هنا ؟

فقالت چو : لقد استدرجنا إلى هنا رجل مهذب مكتس كان واقفًا على الشاطئ وقادنا إلى منزله ليلاً ، وما إن نهضت من فراشى حتى وجدت نفسى عارية ، وثيابى قد اختفت ، فشككت فى أن يكون البيت مريبًا ، ومازلت أشك .

وتدخل بيتر محتجا بلهجة حزينة : وكذلك اختفت ثيابى ، ووجدت بدلا منها رجلا ، بل رجلاً عارياً يحمل حقيبة سوداء مغبرة تستدر الضحك . فتصوروا هذا المنظر الفريد المفاجئ فى الصباح ! رجل عار وحقيبة سوداء .

فقال أحدهم مزهواً : لابد أنه طبيبنا .

فرد بيتر بسرعة : لقد كاد أن يقضى علىَّ .

فرد صوت آخر : نعم إنه الدكتور ولف بعينه .

فقال بيتر : لقد كان يبدو كخروف نزعت عنه فروته .

فأجابه صوت نسوى : إنه طبيب لطيف للغاية ، يصل لطفه إلى حد الجنون .

فرد بيتر : وكذلك أنا ، وخاصة بعد هذا الصباح .

فردت جو قائلة : إنك لشديد الذكاء يا بيتر ، فلو أحضروا لنا «بطانيتين» لأمكننا المضى فى هذا الحديث بلا انقطاع .

وصاحت إحدى الموجودات قائلة : إذن فلستما من هواة العرى ؟

فردت جو قائلة : لا يا سيدتى ، فإن آخر شىء أفكر فيه هو الانخراط فى هذا المذهب، فالرقاد هكذا عارية هو أحد الأعمال التى لا أحب أن آتيها إلا بمحض رغبتى ، أما أن أرغم على ذلك فهذا تصرف بدائى .

فقال أحد العراة : ستضطرين للأسف إلى الظهور عارية سواء أردت ذلك أم لم تريدى فإن الزعيم يطلبكما .

فقالت جو : إذا كان زعيمكم هو ذلك الثعبان الخبيث الذى قادنا إلى منزله ليلة أمس فسأكون سعيدة أن أقابله وأنزع عنه ثيابه .

- ولكنه عار بالفعل .

- لقد كان مرتدياً حلة كاملة ليلة أمس .

- لأنه كان عائداً من رحلة له فى المدينة. أما الآن فهو عار مثلنا تماماً يا أختاه .

فقال بيتر : أنا لن أستطيع الاستمرار على هذا النحو ، ألا يمكن مقابلة هذا الماجن على انفراد ؟

فرد عليه أحد العراة قائلاً : نراك على صلة وثيقة بهذه السيدة ؟

- نعم فهى صديقة قديمة ، وكانت صديقة للمغفور له والدى أيضاً .

- لا أظن المرحوم كان سيوافق على سلوككما اليوم . فقد كنتما معاً فى غرفة مغلقة !

- بل يوافق كل الموافقة . فلقد كان يفعل ذلك أيضاً .

- ماذا تعنى ؟ وما الذى كان يفعله !

فصاح بيتر : ما الداعى للدخول فى مثل هذه التفصيلات ؟ لقد كان يعشق الخلوة ويهيم بالأجساد العارية ، وبكل شيء يحدث خلف الأبواب المغلقة .

- أما نحن فلا يهمنا إلا تعرية أجسادنا لما فى ذلك من فوائد كثيرة .

فقالت چو : لا يستقيم هذا الكلام مع المنطق . وإلا فما قيمة الجسد العارى إذن ، إن كنتم لا تهتمون بغير تعريته فحسب ؟

استدار الرجل العارى تجاه اثنين من زملائه وقال لهما : إذا تفضلتما بحمل هذا الجسد من فوق العشب أمكننا أن نأخذه معنا .

فصاح بيتر : ابعدوا أيديكم عنى . وإذا لم يكن هناك مفر من النهوض ، فسأنهض وحدى .

قام بيتر متحاملاً على نفسه من شدة الألم والإعياء وقد تراخت أهدابه وجمدت عيناه فوق قدميه من فرط ما يعانيه من خجل ، وبدأ يدرك مدى ما تصل إليه الحياة من جنون . تُرى ماذا كانت يولندا فاعلة لو وجدت فى مثل هذا الموقف ؟ لا شك أن ذلك لن

يُعجبها قط ، فهى ليست فى مرونة چوزفين ، تلك الفتاة التى خلقت من طينة أخرى ، والتى وإن كانت دنيئة المقاصد إلا أنها جميلة الملامح .

التف العراة حول پيتر مبدين له روح الزمالة الحقة ، حتى ضجر بمغالاتهم . وعلى الرغم من حادثة الصباح مع الأجساد ، فإنه لايزال ينفر من هذه الملاصقة المختلطة ، ويعترض على العراة وهم يؤرجحونه ويرفعون جسده فى الهواء .

ولم تكف هذه الجماعة لحظة واحدة عن ملاطفته بهذه الحركات التى كانت تلقى الرعب فى قلبه فى أثناء رحلتهم إلى البيت الأبيض الذى تعلقت بجوانبه شرفات واسعة تطل على الحدائق الخضراء ، وتتدلى عليها ستائر رائعة الصنع ذات خطوط برتقالية وبيضاء .

قالت چو مشيرة إلى الستائر : إن الشبه بينها وبين سروالك قريب جدا يا پيتر .

فقال پيتر والشوق واضح فى لهجته : ما أشد شوقى إلى سروالى الآن . فهو على الأقل قد يكفينى شر السقوط والانحدار .

فقاطعه رجل طويل عليه سيما الأدباء قائلاً : إذا لم يكن فى قدرتك وقاية نفسك شر السقوط والانحدار وأنت عار فهيهات أن تفعل ذلك وأنت مكتس .

فقال پيتر : إن أمر السقوط هذا لا يهمنى كثيراً بالقدر الذى تظن، ما دمت محتفظًا بثيابى .

وما إن عبر پيتر وچو ردهة الدار حتى وجدا نفسيهما محاطين بجمهرة كبيرة من العراة ، أينما أدار پيتر بصره وقع على الأبدان العارية . ولو أنه عثر على القس عارياً مثله ، أو حتى أسپيرين ليز عارية أيضًا ، لخفف عنه بعض الشيء ، ولكن عينه لم تقع إلا على خادمه النشال ، وذلك المخلوق الضئيل الذى كان مستتراً خلف مقعد عال فى ذلة وخضوع ، ومع ذلك فقد كان پيتر يحسده على موقعه التكتيكى الحصين .

وكانت الغرفة طويلة ذات سقف منخفض ، مؤثثة بأفخر الأثاث ، مزينة بذوق سليم لا يدل على الجنون كما ظن بيتر أول الأمر . وبدأ يفطن إلى أن هؤلاء القوم وإن لم يتصفوا بالجنون إلا أنهم سيِّئو الأخلاق، والتفت فرأى رجلاً ضخم الجثة يطالع الملحق الاقتصادى المالى من صحيفة صباحية بتركيز شديد كما لو كان كامل التأنق فى بزته العادية .

وألقى بيتر بنظره من النافذة ، فرأى جمهرة من الأطفال العراة يلعبون فى الحديقة ببراءة تامة ، وإن لم تبد عليهم أمارات السعادة والسرور . وقد بدا لبيتر أن الأطفال الكبار منهم كانوا مدركين لحالتهم أكثر من آبائهم وأمهاتهم . فالواقع أنهم لم ينزلقوا بعد إلى معترك الفساد كآبائهم ، وهذا أمر طبيعى ، لأن الأطفال محافظون بالفطرة ، مثلهم فى ذلك مثل الحيوانات التى تشعر ولو بقدر قليل من الاحترام نحو أنفسها .

أما أكثر المناظر اجتلاباً للنظر فى تلك الردهة فكان لشاب عار مستلق بمعزل عن الآخرين فوق أريكة كبيرة الحجم . وحتى وهو على هذه الحالة كانت سيماه سيما الشياطين وعيناه تشعَّان بالشر ، على أن فمه الباسم كان أقدر ما يكون على التلفظ بالبذىء من القول . وكان له شعر قاتم وعينان سوداوان وأسنان جميلة ناصعة البياض .

ولم يكن حوله أى شىء يُقلل من قدره إلا بطة ضخمة ذات عنق أحمر طويل ممتد كالثعبان إلى جواره . وكانت هيئة البطة مما يبلبل الخواطر على صورة لم يعهدها بيتر من قبل فى إنسان أو حيوان . وسرعان ما انتقلت هاتان العينان الخبيثتان نحو بيتر الذى أحسَّ فى الحال أنهما ترقبانه عن كثب ، وتقرآن أفكاره . ولم يكن فى تصرفات البطة أو فى مظهرها ما يدل على التدنى الخلقى . أما ما أدهش بيتر وساءه فهو رابطة التفاهم القوية التى تربط بين السيد وطائره ، وإن انبعثت من كليهما رائحة الفساد والانحلال .

صاح الشاب الجالس على الأريكة بلهجة مهذبة هادئة : اسمى چونز . وأظنك تتساءل يا سيدى وأنت أيضاً يا سيدتى ذات الشعر الأحمر كيف أن شخصاً عارياً مثلى يمكن أن يحمل اسماً بسيطاً كچونز.. ولكن عجبكما سيزول بطول المعاشرة عندما تعرفان أن البساطة هى مفتاح شخصيتى . أما بطتى «هاڤلوك إليس»(*) فمن هواياتى المحببة .

فأجاب پيتر بأسلوب آل ڤان دايك : قد تكون هذه المعلومات ذات أهمية لك أما لى فهى تافهة جدا . وكل ما يهمنا هو معرفة مكان ملابسنا وأصدقائنا .

حانت من چونز التفاتة فى اتجاه آرثر القصير، على حين رفعت البطة رأسها الضئيل ملتفتة نحو المجرم المختبئ وكأنه إحدى الحشرات .

قال چونز موجهاً خطابه نحو پيتر وهو يشير إلى أرثر : هل هذا المخلوق أحد أصدقائك ؟ لا تتردد فى الاعتراف بذلك إن كان منهم ، لأن أى شذوذ هنا يمضى دون أن يكلف أحداً مشقة نقده .

فردت چو : أظن أن هذا أفضل مبدأ هنا ، وإلا لما وجدتم من الوقت متسعاً كافياً لكى تقوموا بمثل هذا النقد .

فأجاب چونز : الحق معك ، ولكن لنعد بالحديث إلى ذلك المخلوق البشرى الغريب .

فانفجر أرثر قائلاً : أغلق فمك القذر يامن تبدو كالحرباء العارية .

فقال چونز : ليتنى كنت مثلها .

ثم التفت نحو پيتر قائلاً : يبدو أن أصدقاءك الثلاثة الآخرين مصممون على عدم ترك حجراتهم ، أما انتما فقد أفلحتما فى زيارة بعضكما . ولن أتدخل فى هذه المسألة مراعياً مصلحتك ومصلحتنا ، بل لن نحاول التفكير فيها بعد الآن . ومع ذلك فأنا لا أرى ما يدعو إلى حرماننا من مصاحبة إخوانك لنا ، ومن ثم فلنستدعهم .

(*) Havellock Elllis هو أحد علماء العصر الحديث فيما يتعلق بالشئون الجنسية.

صفق چونز فلبَّاه رجلان عاريان ضخما الجثة ، وإن امتازا عن غيرهما بتزيين أذرعهما بشرائط زرقاء رمزًا لوظيفتهما .

قال چونز : أحضروهم إلينا أيها الفتيان .

وبعد برهة ارتفعت ضجة تلاها صوت أسپيرين ليز وهى تصيح : أبعدوا مخالبكم القذرة عنى . فقد سبق لى الظهور عارية ولكن أمام قوم مهذبين ، ولم يحدث قط أن وضع أحدهم يده على إلا إذا ...

وهنا توقفت أسپيرين عن سرد قصتها برهة ثم استطردت قائلة : على العموم ليس هذا من شأنكم ، واعلموا أنى قد تعلمت بعض الحيل الخبيثة فى شبابى ، وإذا لم ترفعوا أيديكم عنى فسألعبها فى الحال .

ويبدو أن «الفتيان» كانوا لا يدركون مدى ما تعلمته أسپيرين ، لأن الدقائق التالية انقضت فى صراخ وصياح عاليين .

همس چونز لبطته التى خفضت جفنيها فوق عينين صفراوين بصوت مسموع : ترى ماذا فعلت بهما ؟

وفى هذه اللحظة ظهرت أسپيرين ليز فى أعلى الدرج وهى تضحك بصوت عال ، وبينما هى قابضة بإحدى يديها على حاجز السلم أخذت تربت على فخذها ، التى كانت فى الحق فخذًا سمينة بدينة يكاد يذهل لها الرائى وقالت : لأول مرة فى حياتى لا أشعر بحاجة إلى أسپيرين ، فقد أفادنى هذا الكفاح .

قال چونز وهو ينظر إليها بإعجاب : ماذا فعلت برجالى ؟

ويبدو أن السؤال قد أثار أسپيرين إذ ردت قائلة: الأفضل أن توجه سؤالك إليهما، ولكنى أؤكد لك يا سيدى أنى فعلت بهما الكثير ، وسأفعل بك المثل إن مسَّتنى يدك القذرة .

فرد قائلاً : سأحاول كفَّ يدى برغم تلهفها على ذلك .

صاحت أسپيرين بمجرد أن وقع بصرها على چوزفين وهى ترمق جسدها بإعجاب :

- ربَّاه ! إن لك جسداً بديعًا أيتها الفتاة العزيزة . ولو كان لى الآن مثل جسدك لما توقفت لحظة عن السير عارية. ولكن أليس هذا هو السيد ڤان دايك بلحمه وشحمه ؟ لقد نزع كل ثيابه !!! واأسفاه فليس بالمكان ملجأ تلجآن إليه .

فرد پيتر قائلاً : نعم ، وهذه هى المشكلة فلست أجد هنا أى ملجأ يتيح لنا الالتجاء إليه أو لفت وجوهنا نحوه .

فقالت أسپيرين بصوت مشوب بالمرح وهى تشاركهما الجلوس فوق الأريكة :

- لا تنزعجا. انظرا إلى، فأنا عارية مثلكما ثلاث مرات، أعنى أن مقدار ما يظهر من بدنى يبلغ ثلاثة أضعاف ما تظهرانه معًا . ومع ذلك فلا أبالى .

فقال لها پيتر : لا شك أنك موفَّقة سعيدة الحظ ، فإن القدر الذى أعرضه يقض مضجعى برغم ضآلته .

فقالت ليز تطمئنه : ذلك لأنك لم تعش وسط العراة أبداً . ودعنى أؤكد لك أنك ستعتاد هذه الأوضاع سريعًا ولن تجد فيها مستقبلاً أية غضاضة . قل لى من هذا الثعبان العارى ؟ هل هو الذى أرسل ورائى أولئك الأنجاس ؟

فتمتم چونز : لقد أدركت خطئى متأخرًا يا سيدتى وأرجو أن تقبلى اعتذارى .

فردت ليز قائلة : نعم ، ولو أن إدراكك لخطئك جاء متأخراً جدا ، فقد نالا ما يستحقانه ، وأخشى أن أقول لك إنك لن تستطيع تمييزهما بسهولة من كثرة الإصابات التى تكبداها .

وحينئذ ظهر فى أعلى الدرج الرجلان اللذان كانا قد اشتبكا من قبل مع ليز ، وقد بدا عليهما التعب والإنهاك . وما إن ظهرا حتى توجهت نحوهما الأعين لترى ما فعلت بهما ليز ، وانبرى أحدهما يقول : لقد أغلقت السيدة الأخرى الباب على نفسها ،

ونحن الآن فى حالة من الضعف والوهن لا تسمح لنا بإحضارها بالقوة أيها السيد چونز . أما ذلك الشخص الذى يدعو نفسه قسيسًا فيؤكد أنه لن يخرج حتى نعيد إليه سرواله .

وهنا تدخل شخص نحيف ذو وجه أسود قد لفحته أشعة الشمس ، يحمل رأس فيلسوف إغريقى وقال بصوت موسيقى : إذا كان السيد قسا حقا ، فيجب السماح له بارتداء سرواله ، احترامًا لجلاله الكهنوتى على الأقل .

فرد چونز قائلاً : يبدو أن الموقف يُبرر لنا الانحراف قليلاً عن مبادئنا التقليدية ؛ فلم يسبق أن انضم إلينا قس من قبل. وهذه فرصة نادرة لأن وجود قس بسرواله بيننا، خير من عدم وجود قس على الإطلاق .

فارتفعت أصوات الحاضرين كلهم مؤيدة : أعطوا القس سرواله . نريد رؤية القس .

فقال چونز : يبدو أن الكل مجمع على أن يحتفظ القس بسرواله . إذن فأعطوه سرواله أيها الفتية ، اتركا السيدة إلى حين حتى تستعيدا قواكما . وبهذه المناسبة أنا أعتذر لما أصابكما ، فالنساء لهن طرقهن البدائية المؤلمة فى الانتقام .

وبعد انقضاء فترة قصيرة ، ظهر القس فى أعلى الدرج بسرواله الذى يحمل لواء الفضيلة ، وراح يتطلع إلى النظارة العراة المكدسين تحته فى البهو باحتقار شديد .

فانبرى چونز معلقًا : على الرغم من أنه سروال فحسب ، إلا أنه يبدو لى طويلاً طولا لا نهاية له .

وصاحت إحدى النساء ساخرة : يا عزيزى القس إن سروالك بديع جدا ولكن قل لى بالله ألا يخزّك ؟

فقال چونز بعد تفكير وهو يحك رأس بطته : لعل جلد القس سميك ، فمعظم القساوسة هكذا .

وانبرى صوت آخر يقول : لو وزع نسيج هذا السروال على كل من بهذا البهو لسترهم جميعًا بل لجعل كلا منهم يشعر بأنه يرتدى أكثر مما يجب .

فقال بيتر : أيا كانت بشاعة هذا السروال فلشد ما أرغب فى اقتناء واحد مثله .

وعقَّبت چو قائلة : إذا صادف أن رأيتك فى مثل هذا السروال فلن يكون لك مكان فى قلبى قط .

فأجابها بيتر مطمئنًا : لا تخافى فلن ترينى مرتديًا سروالى دائمًا .

فقالت چو ببساطة : صحيح . فأنا لم أرك مرتديًا سروالك غير مرة واحدة فحسب ، وكان ذلك فى المكتب .

فصاحت أسپيرين ليز محاولة تشجيع القس : لا تدعهم يسخرون منك أيها القس فقد رأيت أيام شبابى سراويل أكثر شذوذًا من هذا .

أجاب القس ببرود : أشكرك يا سيدتى .

وعلق السيد الذى تبدو الفلسفة على كلامه : يبدو أننا أمام يوم مثير بهيج !!

واندفع آرثر يقول من وراء مقعده : أما أنا فلا أجد بهذا السروال ما يعيبه . وإذا خيِّرت بين أنوا ع السراويل التى أرتديها لاخترت هذا الصنف بلا تردد ، إلا أنى أختار حجمًا أصغر بطبيعة الحال .

فتمتم چونز بأدب جم : بكل تأكيد فإن مجرد رؤيتها يجعلنى أتلهف شوقًا إلى واحد منها .

تنحنح القس ولر ، ثم لوح بيده بحركة سبق أن أخرست الآلاف من مستمعيه كما أخرست هذا الجمع العارى تحت أقدامه ، ثم قال بصوت حزين يختلط به الانفعال : من المؤسف حقا أن يكون الوحيد من بينكم الذى له القدرة على تمييز سروال طاهر مثل هذا هو مجرم تائب . ولقد أقنعكم بالدليل القاطع بفساد ذوقكم وخلقكم.

فرد آرثر قائلاً : شكرًا أيها القس ، والواقع أن المرء لا يسعه إلا الاعتراف بأنه سروال طاهر وبديع يا صاحب القداسة .

فأجابه القس وصوته مملوء زهوًا : بل هو نسيج وحده يا آرثر . إنه صنف ممتاز قلما تعثر عليه بسهولة .

فانبرى صوت يقول بسخرية لاذعة : بل قلما تعثر على ما هو أشد منه «مسخرة» .

فاستطرد المجرم القصير يقول محاولاً أن يتمسح بأذيال الفضيلة : لا تلق إليهم بالا يا صاحب السعادة ، أقصد يا صاحب القداسة فهم لا يقتنون السروايل ، ومن ثم لا يمكنهم أن يميزوا بين الطيب والخبيث منها ، حتى إنك لن تجد «جيبًا» واحداً فى هذه المستعمرة المنحلّة كلها .

فرد القس متعجبًا وهو ينحنى مسروراً فوق نشاله المهتدى : آه ، عدنا مرة أخرى إلى حديث الجيوب . لا فائدة يا آرثر من البحث عن أى جيوب هنا ، ولو كنت فى موقفك لا نتهزت الفرصة لأجعلها فترة راحة واستجمام يا صديقى العزيز ، فها أنت ذا ترى بنفسك انعدام الجيوب حولك . إنها نعمة إلهية بل بركة ربانية مستترة يا صاحبى .

فقال آرثر القصير وعيناه تعبران الحجرة باشمئزاز : إن هؤلاء القوم لا يحاولون حتى مجرد الاستتار .

فاستطرد القس الصالح قائلاً : ومع ذلك لا تيأس فمن يدريك ! فلله عز وجل عجائبه ومعجزاته التى يحققها بطرق خفية .

فبدت الدهشة البالغة على وجه آرثر الذى كان ينفر كل النفور من مجرد التفكير فى أن الله له أية علاقة بهذه الزمرة العارية حوله فى هذا البيت ، ثم قال موافقًا وقد أحاطه الاكتئاب : ربما ، فهو لابد قد عمل على منعى من تحقيق عجائبى أنا ، فأينما أدرت بصرى لم أجد غير كتل اللحم التى لا تنتهى بدل أن أرى محلها جيوبًا ! بئس المكان لنشال مثلى .

فرد القس مذكّرًا : نشال سابق يا آرثر . لا تنس ذلك يا صاحبى العزيز فأنت نشال سابق .

وعند الوصول إلى هذه المرحلة من المناقشة قام السيد چونز حاملاً هافلوك إليس بحرص تحت إحدى ذراعيه واتجه نحو مطلع الدرج حيث وقف متأدبًا يتأمل القس الذى هبط بضع درجات .

صاح چونز بصوت يملؤه الإخلاص: سيدى القس، صدقنى إننا جميعًا مسرورون باستضافة شخص له مثل مكـانتك بين زمرتنا الصغيرة .

فرد القس مُصححًا : بل قل زمرتنا العـارية ! إنى أرفض الانتساب إليها .

فأجابه چونز : أتمنى أن تغير حكمك فى المستقبل ، وأرجو أن تصدقنى عندما أعترف لك أننا لم نقصد بتاتًا أن نصف سروالك بأنه ليس بطاهر .

فانفجر القس قائلاً : بالتأكيد هو أطيب السراويل وأطهرها . ولكن لم هذا النقاش حول سروالى ، وأنت لا ترتدى حتى قفازًا ؟

فرد المدعو چونز : معك الحق كله ، وطبيعى أن يكون سروالك طاهرًا وليس كغيره من السراويل . ولا داعى كما قلت لمناقشة هذا الموضوع .

وكانت البطة تحدق فى اتجاه أسپيرين ليز بلا أدنى اهتمام . فهى لكثرة اعتيادها رؤية الأجساد العارية ملَّت التـأمل فيها، ونفرت من التطلع إليهـا فما بالك بجسد بدين مترهل !!

واستطرد چونز حديثة فقال : أقرر أيها القس أننا لم نكن ننوى مناقشة موضوع سروالك لولا اعتقادنا بأن تجاهل ظاهرة شاذة كهذه ، أو بتعبير أوضح ظاهرة فريدة ، يعدُ فى حد ذاته كبتًا غير طبيعى للانفعالات التى تختلج فى صدورنا ، فأنت نفسك ياسيدى لا بد أنك شعرت يومًا ما بأنك قد خُدعت ، وطبيعى أن هذا شعور مُر . فهل لك الآن أن تنضم إلى زمرتنا عن نفس راضية ؟

وكان القس ولر على وشك تلبية دعوة هذا المتحدث المصقول اللسان عندما دوّت في البيت صرخة امرأة تستغيث ، وما إن التفت إلى مصدر الصوت حتى رأى يولندا ولمونت ثائرة وهيئتها مضطربة على رأس الدرج وعلى قيد خطوة واحدة منها رجل في أتم عريه وأشد انفعاله . ولم يعد القس الصالح يحس بشيء بعد ذلك إلا بالدنيا تدور به وبالدرج ، وبالأجساد العارية . ولكنه سرعان ما أفاق لنفسه حينما شعر بنقر غريب مؤلم في ظهره ، فقد أهاج البطة إليس وأثارها ذلك الصراخ والشغب الذي لم ينقطع فوق الدرج ، فاندفعت مولية هجومها على الجزء الخلفي من سروال القس البديع . وزاد الأمر حرجًا حينما اكتشف القس في أثنـاء هرولته على الدرج أنه فقـد أهم أزرار سرواله .

كان القس يخشى النهوض خشية أن يفقد الشيء الوحيد الذي يستره ، كما كان لا يستسيغ البقاء هكذا متمدداً لا سيمـا وهجمات البطـة القاتلة لا تكاد تتوقف ، فوجد نفسه في مأزق كبير لا خلاص منه ، أو بين شرّين لا يستطيع أن يتخلص من أحدهما إلا ليقع في شِبَاك الآخر .

وفي الحق أن الموقف كان يستلزم قدرًا كبيرًا من الصبر . وعندما وجد القس أن ما عـنده من صبر قـد نفد كله ، صاح مستنجـداً : هل لأحدكم أن يُعطيني دبوسًا ويزيح هذه البطة الفاجرة ؟

فصاح أحدهم متعجبًا : ربَّاه ! انظروا . إن هافلوك إليس تنقر القس فعلاً !

فرد القس: بل بدناءة . ودعني أؤكد لك أن اختيـارها قد وقع على مكان حساس .

فعلق الفيلسوف قائلاً : لا يا صاحبي فثمة أمكنة أشد خطورة .

فرد القس محتجًا ومنزلقًا في المناقشة: بالله دعنا من هذه المناقشة السفسطائية ، وإني أؤكد لك أن المكان الذي تنقره هذه البطـة الآن بعـزم لا يكل بقعـة حـاسمـة ، وفي الوقت نفسه مؤلم لدرجة تقنع أي متشكك بالتدخل لعمل شيء ما .

ثم أضاف قائلاً : بل بلا تأخير . والآن ما رأيك فى دبوس ، فالدبوس هام جدا فى مثل هذه المواقف ؟

وفى الحق أن العثور على دبوس فى مستعمرة للعرى يعد من الخوارق التى تعجب لها عقول شرطة سكوتلانديارد كلها . وكان الأمل مفقوداً فى الاهتداء إلى دبوس حتى أن أحداً من الحاضرين لم يحاول البحث عن واحد . غير أن پيتر نزع ما كان قد تبقى من الضماد حول ذراعه وناوله للفتاة ذات الشعر الأحمر التى أعطته بدورها للقس .

فقال القس ممتنا وهو يختطف الرباط من يدها بشغف : أشكرك يا عزيزتى . لا شك أن الله سيغفر لك الكثير نظير هذا الصنيع .

فقالت چو متظاهرة بالخجل : أخشى يا سيدى أن تكون خطاياى من الكثرة فلا يغفرها كلها .

فرد القس وهو يصلح سرواله بالرباط : فلنؤجل المناقشة فى هذا الموضوع حتى يتقدم أحد الحاضرين لإبعاد هذا الطائر الذى لابد أن تكون بيضته قد فقست فى الجحيم .

فتقدم السيد چونز من القس وتناول هافلوك إليس التى لم تكف عن الصراخ ، وفى الوقت نفسه ساعد القس فى النهوض على قدميه .

قال القس بصوت منخفض : لابد أن هناك ثقوباً فى الظهر ؟

فأدار چونز رأسه مستعرضاً مسرح المعركة الأخيرة ثم قال : لا أرى أثراً لأية ثقوب .

فقال القس : يصعب على تصديق هذا الكلام ، فلابد أن هناك ثقوباً كثيرة أشعر بها جيداً ، كما أنى لم أشتر هذا السروال يا عزيزى چونز إلا أخيراً .

رد السيد چونز قائلاً : الحق أنه سروال رائع !

وصاحت يولندا فى وجه السيد چونز مغيظة ، ولا غرو فهى قد أغفلت مدة طويلة : ألا يزعجك أن تعلم أنه قد اعتدى علىّ تحت سقف بيتك ؟

فأجابها چونز بإعجاب وأدب وهو يعى مغزى سؤالها :

- كلا البتة ، ولتعدِّى نفسك كأنك فى بيتك تماماً .

مزايَا العُرْى

فصرخت يولندا قائلة : هل تتعمد إهانتى يا سيدى ؟

فرد السيد چونز قائلاً وهو يحاول أن يحصر الموضوع فى أضيق نطاق : كلا وألف مرة كلا ، فالحوادث هنا كثيرة لا حصر لها . ألست أنت السيدة التى كانت تطمع فى أن يعتدى عليها ؟

- كلا البتة . إن هذا الادعاء أكثر مما يحتمله إنسان . فإنى أقصد أنهم كادوا يعتدون على .

فقال چونز متمماً: ثم حدث أن تدخل شخص ما فأفسد كل شيء . ترى من هو هذا الإنسان الفظ ؟

فقالت يولندا مشيرة نحو شخص يبدو عليه الهياج ويقبض عليه رجلان : ها هو ذا .

وألقى چونز نظرة سريعة على الرجل وابتسم بفتور ثم حول عينيه وقال لها :

- لا . لقد أخطأت فهمى يا سيدتى فإنى أقصد مَن تدخل فى الموضوع ، وليس من قام بالاعتداء .

- يا للسماء ! هل فقدت حواسك يا هذا ؟ الحق أنه لم يكن هناك ما يستحق التدخل .

فاعترض چونز قائلاً : ولكنى أذكر أنك قلت إنهم كادوا يعتدون عليك يا سيدتى الشابة .

فردت يولندا شارحة : أصغِ إليَّ سمعك ، فحقيقة الأمر أن هذا المخلوق العارى ، بل هذا القرد المضحك ، قد تسلق نافذتى وحـاول الاعتداء علىَّ فهربت منه ، وهذا كل ما حدث .

فتمتم مستر چونز قائلاً : هذا أمر بسيط ، بسيط جدا ، ولكن هل كنت تودين أن يعتدى عليك أحد ؟

– بالتأكيد لا .

– إذن لم ترتدين مـلابسك ! ألا تـعرفين أن ارتداء الملابس هنا إن هـو إلا دعـوة صريحة للاعتداء ؟

فسألته الفتاة متهكمة بعد أن فرغ صبرها : هل تعنى أنه لكى تحافظ المرأة هنا على شرفها يجب أن تتجرد من ثيابها ؟

فأجابها چونز : لقد أحسنتِ شـرح الموقف ، فحتى تلك السراويل الشـاذة التى يرتديها القس تجعله عرضة للاعتداء عليه لولا مكانته الخاصة بيننا . وطبيعى أنه فى حالة القس لابد أن تكون المعتدية امرأة شديدة المراس .

فقالت يولندا متعجبة : فى الحقيقـة أنا لا أفهم شيئًا مما يجرى هنا .

فـرد چونز وهـو يقـودها نحـو الأريكة حـيث جلسـا إلى جـوار پيتـر : إذن دعينى أشرح لك .

قال پيتر بمجرد رؤية خطيبته : مرحبًا يا يولندا .

فردت عليه بسرعة : لا تخاطبنى أيها الأحمق العارى . كان يجدر بك أن تخجل من نفسك .

فأجابتها چو وهى تجلس على وسادة عند قدمى پيتر مستندة برأسها ذى الشعر الأحمر إلى إحدى ساقيه المتقلصتين : حقا هو عـار ، ولكنه غير معـرض للاعتداء عليه مثلك .

فقالت يولندا : لست متأكدة من صدق قولك ما دمت إلى جانبه .

فأجابتها چو : أشاطرك الرأى ؛ فإنى مثلك غير متأكدة تمامًا ، ولعل هذا الاعتراف يدخل السرور على قلبك .

فتدخل چونز قائلاً : سيداتى ، بالله دعونى أوضح الأمر .

فأسرعت چو تستطرد بتهكم : استمر أيها السيد بونز(*). فليس هناك اسم يليق بك غير هذا الاسم !

نظرت چو إليه لحظة وهو يرفع حاجبيه دهشةً ، ثم تنحنح كما لو كان يريد التخلص من شعور مضايق .

تساءل پيتر قائلاً : أيها السيد چونز ، هلا أعنتنى على لأم جراح ذراعى هذه ؟ ألا يمكنك إسداء المعونة لذراعى هذه ؟ فلقد أمضيتُ يومًا تعسًا ، ويُخَيَّلُ إلىَّ أن ذراعى مليئة بالجروح .

– بكل تأكيد أيها السيد ڤان دايك . ادعوا لنا الدكتور ولف .

فأخذ جمع من الحاضرين يصيحون : ولفى .. ولفى .

إلى أن ظهر الطبيب العارى وبيده حقيبته السوداء الصغيرة ، ثم بدأ فى علاج ذراع پيتر بمعاونة فتاة حسناء .

وأخيرًا نهض چونز ليلقى خطابًا يشرح به مذهب العرى ، فقال .

– إن هذه المحاولة المتواضعة من جانبنا ، أعنى اجتماع شمل أولئك العراة ، إن هى إلا نتيجة المطالعة والبحث الدائبين . هذا بالرغم من أن نواة الفكرة قد نشأت منذ العصور التى لم تكن الطباعة قد عُرفت فيها بعد .

فصاح القس ولر : آه. لقد فهمت الآن. تعنى أن تاريخ العالم غاصٌ بشتى المحاولات الفاشلة لتقليد ذلك الجانب المشبوه من جنة عدن .

(*) بونز ومعناها عظام.

فاستأنف جونز حديثه قائلاً : لا شك فى هذا ، فكل الكواكب لها ماضيها ولحظاتها الهنيئة الطيبة ، ولولا هذه اللحظات الهنيئة يا سيدى القس لما عمر هذا العالم كما تراه اليوم .

فقام بيتر متسائلاً وقال: هل هذا ما تهدف إليه هذه الجماعة الصغيرة من العراة، أعنى زيادة النسل فحسب كما ذكرت ؟

فرد جونز قائلاً : لا ، ليس هذا هو هدفها الأساسى ، بل على العكس ؛ فنحن نهدف إلى رفع المستوى ، وإن كنا لم نصل إلى هذه النتيجة بعد ، لأننا لم نؤسس هذه المنشأة إلا منذ فترة جد قصيرة .

فتدخل آرثر قائلاً : أرى أنكم قد حققتم نتائج طيبة فى هذه الفترة القصيرة ، أما نحن فلم نعد نملك الآن غير جلودنا بعد أن جردتمونا من كل شىء ، هذا ، إذا أردتموها ونحن أحياء .

واستطرد جونز فى خطابه دون أن يعير قول آرثر أدنى التفات ، وواصل قائلاً : خذ مثلاً جان جاك روسو أو هافلوك إليس أو كرافت إبنج أو حتى ذلك المفكر العظيم هـ. ج. ويلز ، هذا بغض النظر عن ذكر أسماء لا تعد ولا تحصى لكبار المفكرين ، أتراهم قد اعتنقوا بين وقت وآخر مبدأ العرى وشغلوا به زمنًا طويلاً .

فانفجر آرثر صائحًا : إذا كان هؤلاء الأشخاص الذين ذكرتهم قد أمضوا جُلَّ وقتهم يفكرون فى الأجساد العارية فهم إذن ليسوا مفكرين البتة .

فرد عليه جونز مفسرًا بمنتهى الحِلْم : لا أعنى أن هدفهم كان التفكير فى الأجساد العارية يا آرثر ، ولكن ما أقصده هو أن الأجساد العارية لم تكن تعنى شيئًا بالنسبة إليهم ، فكانوا ..

فقاطعه آرثر قائلاً : إذن فأنا لا أقل عنهم عظمة ، إذ إنى لا أحب حتى مشاهدة الأجساد العارية ولا أفكر فيها مطلقًا .

قال چونز ببساطة : ألا فاعلم أن الغريزة الجنسية لا وجود لها بيننا ، فقد نسيناها تماماً .

فردت چو ساخرة : لابد أن تكون حواسكم غاية فى الضعف مع وجود كل هذه المنبهات التى تحيط بكم إحاطة السوار بالمعصم .

فوافقها آرثر بقوله : بالتأكيد ، أليس من المفروض أن نستخدم بصرنا ؟

فأجاب چونز وهو ينظر نظرة لها دلالتها نحو النشال : كل شىء هنا يسير على ما يرام إذا اقتصرت على استخدام حاسة بصرك فحسب .

فاعترض آرثر قائلاً : ولكن أليس من المفروض أننا بشر ؟

فأجاب چونز ببرود : نعم هـذا هو المفـروض ، وإن كان يصعب علىَّ أن ألمس ذلك فيك .

وتدخلت أسپيرين ليز بقولها : إذا ما سألتمونى رأيى بصراحة فإن مجرد رؤيتى لبعض الأشكال التى أراها هنا حولى تجعلنى أنسى الغـريزة الجنسـية كلية ، ولتعلموا أنى لو استعدت قوامى لمدة خمس دقـائق فقط لنشبت ثـورة فى هذ البهو فى الحال .

فقال اللص : أما أنا فأعتقد أن هذا المذهب ليس من الوطنية فى شىء ، فلست أوافق على أن تسير جماعة من المواطنين الأمريكيين متجردين من ثيابهم ولا يحتفظون حتى بسروال واحد .

فانبرى السيد ذو الرأس الجميل قائلاً : انظر إلى الموضوع من الناحية الفلسفية يا صديقى .

فسأله آرثر : بالله ما الذى أنظر إليه من هذه الناحية ؟

فأجابه الفيلسوف : إلى كل شىء ، كل شىء .

فقالت چوزفين وهى تمر بنظرها عل محتويات الغرفة : لو استخلصت من هذه الأشياء التى أراها بين يدى خردلة واحدة من الفلسفة المفيدة لاعترفت لك بأنك أرجح منى عقلاً .

فقال الفيلسوف : ما أسهل ذلك علىّ .

فصاح خاطف حافظات النقود : أناشدك يا سيدى باسم فلسفتك الماجنة أن تعطينى سروالا واحداً .

فأجابه چونز : إذا كان القس نفسه لا يمتلك سوى هذا السروال ، فمن تظن نفسك حتى تنال سروالاً مثله أيها الشرير ؟ هل استحممت هذا الصباح ؟

لم يعد الحاضرون يشهدون من آرثر غير تغيُّر لونه فى سرعة إلى اللون القرمزى ، فقد أخذ اللص المسكين يحمر خجلاً ثم قال : ياله من سؤال شاذ !

فأجابه چونز : إنى أتفق معك على أنه لا ضرورة لهذا السؤال ، هيا أيتها الفتيات خذنه إلى الحمام !

سقط فك آرثر الصغير مشدوهًا ، واختفى سريعًا مع بقية رأسه خلف المقعد ، ولكن سرعان ما ترددت صيحات الغبطة والسرور فى البهو حينما جذبت بعض الفتيات بمساعدة أحد الرجال اللص البائس فوق الدرج، ولم يهتم آرثر بالصياح قدر اهتمامه برغبته فى تطبيق القانون على رأس السيد چونز ، بل أعلن صراحة أنه لن يهدأ له بال حتى يأتى بالشرطة للإغارة على هذا الوكر الموبوء . وفى النهاية أخذت تهديداته تخبو وتضعف على حين كان يلقى بنفسه على الأرض محاولاً الفرار والتملص بلا جدوى .

قال السيد چونز وهو يبتسم إحدى ابتساماته الباهتة بعد اختفاء آرثر والفتيات : لعله فى الإمكان الآن استئناف الحديث فى جو هادىء ، فمثلا أرى أننى قد فهمت الموقف على غير حقيقته يا يولندا ، وأرجو أن تسامحينى أيتها الحسناء الفاتنة إذ لا يمكننى مقاومة الإغراء الذى يدفعنى إلى نطق هذا الاسم الجميل ، إذ تخيلتُ أنك طالما تحتفظين بملابسك ، فطبيعى أنك تحتفظين كذلك ببعض الأفكار فى ذهنك ، فهكذا النساء دائمًا ، وأنت خير من يعلم ذلك .

فردت يولندا : أنا لا أعلم شيئًا ولا أرغب فى سماع شىء .

فأصر چونز قائلاً : ولكن لابد لك من معرفة كل شىء ، فحتمًا سيفيدك هذا .

ثم ناول البطة لأحد معاونيه قائلاً : أرجو منك حمل هذه البطة إلى الدور العلوى ووضعها مع ذلك المخلوق الذى يستحم ، فالطائر المهيض الجناح يعشق حوض «البانيو» .

وما كادت تمضى بضع دقائق على مغادرة البطة للمكان حتى صدرت صرخات الغضب والألم من الدور العلوى . ويبدو من الأصوات التى كان يطلقها أرثر أن البطة لم تكن تسبح فحسب ، بل إن اللص كان واقعًا معها فى صراع عنيف .

فعلق چونز مبتسمًا : إن لبطتى المحبوبة العزيزة شغفًا غريبًا بمداعبة كل ما هو تحت سطح الماء فى «البانيو» .

فنظر پيتر برعب نحو المتحدث ، ثم نقل بصره تجاه عينى چو الفرحتين وقال بصوت هامس : كان الله فى عونك يا أرثر المسكين .

فقالت له چو مطمئنة : لا تقلق على هذا اللص فقد نشل الكثير من الجيوب ولا بأس أن تنشل البطة القليل من لحمه .

واستأنف چونز خطابه قائلاً : فى الحق أن العرى فى هذه المستعمرة يجعل مشاعرنا باردة أو بالأحرى ينبغى أن يجعلها كذلك ، وطبيعى أن نلمس ارتفاعًا فى حرارتنا وحواسنا بين وقت وآخر . ويرجع هذا إلى نقص فى التدريب على ما أظن. أما المرأة المألوفة التامة النمو ، وأنا أعدُك يا عزيزتى يولدنا فوق ما هو مألوف ، أقول إن المرأة المألوفة التى ترتدى مثل هذه الثياب التى تستخدمها نساء العصر ، تلك الثياب التى لا تجعل من المرأة غير نصف عارية تثير فى رجالنا العراة انفعالات تكاد تكون وحشية ، وإذا تطلعت نحوهم الآن لدهشت يا سيدتى .

فقالت له يولندا : لا ، لن أتطلع نحوهم . هل نسيت أنى كنت مثار إحدى هذه الانفعالات فعلاً ؟

فصاح چونز قائلاً : إنه لمن حسن الحظ أن تكونى قد نجحت فى إنقاذ الجزء الأكبر من شرفك .

فعلقت چو قائلة: هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها أن شرف المرأة يمكن إنقاذه مجزءًا ، وما أعرفه هو أن شرف المرأة إما أن يفقد تمامًا وإما أن ينقذ تمامًا .

فأجابها چونز قائلاً : ليست أفكارك هى السيئة فحسب ، بل إن طريقة عرضها تماثلها سوءًا كذلك .

صاحت أسپيرين ليز من فوق كومة من الوسائد كانت تتمرغ فوقها بجسدها الثقيل : اصغ لى أيها العريان . ما وجه الخطأ فى رجل وامرأة يقضيان وقتًا طيبًا حينما يرغبان ؟

فأجابها چونز بسرعة : لا خطأ بالمرة ، بل أظنه عملاً رائعًا ومسليًا إن لم يكن ضروريا ، فالشيء الوحيد الذى نعترض عليه هنا هو الاهتمام الذى لا مبرر له بالغريزة الجنسية والانشغال بها ليلاً ونهارًا والتفكير فيها صباحًا ومساءً ، فما رداء المرأة إلا دعوة صارخة أو تحد للعيون والمشاعر . هل تلبس النساء كى يدفأن ؟ لا بالتأكيد . هل يلبسن لإخفاء عورتهن؟ لا بالتأكيد. إذن لماذا يلبسن ؟ يلبسن لكى يكشفن هذه العورة ، لكى يوحين بها ، لكى يرفعن من ثمنها وقيمتها ، فزوج من السيقان المكسوة بجورب عال طويل متدليتان من أطراف رداء ليس منظرًا أشد إغراء من الساقين أنفسهما عاريتين ومكتسيتين بالشعر .

فانبرت أسپيرين ليز قائلة وعلامات الإعجاب والتقدير مرتسمة على وجهها : صدقت ويبدو أنك درست وجرّبت كثيرًا أيها الشاب .

فقال لها : وأودُّ أن أدرس أكثر من ذلك، ولكن لن أتجاهل إحدى الحقائق الهامة ، ألا وهى أن هناك غير ذلك الكثير مما يجب أداؤه ، ولا أريد أن تذكرنى دائمًا تلك النساء حديثات الورود علينا واللائى تسيطر على مشاعرهن الغريزة الجنسية بأنه لا توجد إلا نتيجة واحدة لا مفر منها للاختلاط الاجتماعى للجنسين .

استطردت أسپيرين مذكرة : إن شابا مثلك لا يحتاج إلى تذكير .

فوافقها چونز قائلاً : هذه هى النقطة الجوهرية فى الموضـــوع . فأنا لا أحتاج لمن يذكرنى بالغريزة الجنسية . والواقع أن قليلاً من الرجال يعتبرون من هذ النوع . أما ما نريده نحن فهو توفير ذلك العامل الذى يُحوِّل عقولنا فى اتجاه مخالف .

فسألته چو : وما رأيك فى الخمر ؟

فأجابها چونز : الخمر منبهة ، وخطتنا أن نبتعد عن المنبهات قدر طاقتنا .

علق القس ولر قائلاً : لم أكن أتوقع أن أسمع رجلا عاريًا يخطب فى جمهور عار بعبارات تحمل أسمى المعانى الخُلقية العملية ، بل إنى أذهب أبعد من ذلك فأعترف لكم أنى أقاوم شعوراً غَلاَّبًا يدفعنى إلى نزع سروالى وإمامتكم كلكم فى صلاة جامعة .

واستطرد چونز فى حديثه بعد أن استدار نحو پيتر وقال : دعنى أوجِّه إليك سؤالا يا سيدى . ما الفائدة التى تكسبها المرأة من قضاء ساعات وساعات تتعطر وتتزين وتغطى جسدها بأبدع الملابس ، مع أنها تخلع هذه الملابس ثانيةً فى مدة لا تتجاوز ثلاث دقائق أو خمس، وأحيانًا أقل، من أجل رجل تافه ، ربما لا يقدِّر جمال ما ترتديه ، فى حين أن التصرفات التى سيأتيها هذا الرجل واحدة ، سواء كانت مرتدية ملابسها أم لم تلبسها على الإطلاق ؟

فرد عليه پيتر متسائلاً : هل سمعتك تقول ثلاث أو خمس دقائق ؟ أظن أن خلع الملابس قد يستغرق أحيانًا أقل من ذلك .

فرد مستر چونز : صدقت ، فأحيانًا أقل .

فسأله پيتر : هل سبق لك أن حاولت توقيت هذا الأمـر عند النساء ؟

فأجابه چونز وقد كاد ينفد صبره : لا . لم يسبق لى ذلك بالطبع ، لا هنا ولا فى غير هذا المكان . ولكنى اعتبرت خَمْس الدقائق حدا أقصى لأنى لا أظن الرجل العادى يمكنه الانتظار أكثر من ذلك .

فوافقته چو وقالت بحكمة: وهذا رأيى أيضًا ، فما الرجال إلا أطفال كبار، لا تكاد تَمُرُّ خمس الدقائق حتى يشرعون فى الصراخ والعويل احتجاجًا على التأخير .

فتدخل القس محتجًا : هل ينبغى استئناف هذه المناقشة ؟ هل ينبغى ذلك ؟

فأجابته چو ببراءة : ولم لا ؟ ألم تقل بنفسك إنه يتحدث بعبارات تحمل أسمى المعانى الخُلقية والعملية أيها القس ؟

فأجابها القس : أما عن عباراته فسليمة مهذبة ، وأما عباراتك فوقحة تدفع إلى الخجل .

واستأنف چونز حديثه قائلاً : نحن نُصَرِّف الأمور هنا بطريقة أفضل ، فنخلع ملابسنا لننسى أجسادنا .

فسألته چو : وأى جديد فى هذا ؟

فرد عليها چونز ، وكانت ابتسامته فى هذه المرة أكثر اتساعًا : أخشى أن تجدى صعوبة فى فهم مرادى .

فقالت چو : ليست بى أدنى رغبة لكى أفهم مرادك ، وأعترف لك بصراحة أنى شديدة الولع بجسدى ولعًا أفقد معه لُبِّى .. هذا إن فقدته .

كبت چونز ذلك الحافز الذى كان يدفعه إلى مصارحة الفتاة ذات الشعر الأحمر بأن اختفاءها تمامًا من على وجه الأرض لن يكون خسارة فادحة على المجتمع . ولكن نظرًا لرشاقتها وفتنتها ، فإنه لم يُذِع الحقيقة كاملة ، فقليل هم الرجال الذين يرون چو ثم يتمنون غيابها .

وتابع چونز حديثه قائلاً: فهنا نحاول الاحتفاظ بكل من العقل والجسد مجتمعيْن . ومع ذلك فنحن نحاول منح العقل عطلة بين حين وآخر . فقديمًا عندما كان الناس يعيشون عرايا ، انشغلوا عن اختفاء ملابسهم إما بقتال بعضهم بعضًا أو كفاحهم ضد الطبيعة ، أما اليوم حيث تحمل عنا الحضارة عبء الكثير من مطالبنا ، فالفرص أمامنا وفيرة لاستغلال أى حركة ترمى إلى العُرْى . ومع ذلك فإنى أعتقد أن أى محاولة ترمى إلى إنشاء حركة عرى راكد هى محاولة غير عملية وغير مرغوبة ، ومن ثم فقد اتخذنا

من الإجراءات ما يكفل لنا التمتع ببعض المواسم والاحتفالات فى مستعمرتنا المتواضعة . وقد ابتكرنا لها أسماء ، فدعوناها «مواسم النسيان» و «احتفالات الحضارة» .

فتمتمت جو قائلة : واصِلْ حديثك ، فهو ظريفٌ مُسَلٍّ .

وما كادت يولندا تسمع تعليق جو حتى أتاحت لعينيها المرور خلسةً على جسم السيد چونز الفَتِيِّ ، فقد شعرت بغريزتها أنْ لا بد لها من وَقْف جو عند حدها . وفى الحق أنه كان ثمة شيء فى السيد چونز يجذبها إليه ويُرَغِّبُها فيه. وربما كان السبب هو أنها كانت مرتدية ثيابها، أو ربما أنه لم يكن يرتدى شيئًا على الإطلاق .

ومهما يكن السبب ، فالحقيقة التى لا مناص منها هى أن يولندا قد أحسَّت بنفسها تنزلق فى مهاوى العشق .

ولأول مرة فى حياتها الجديدة ارتضت لنفسها الانغماس فى إحساسات ماجنة .

واستطرد چونز حديثه قائلاً : فمثلا ، فى عزمنا عند حلول «موسم النسيان» أن يرتدى الجميع ملابسهم ويسلكوا النظام نفسه المتبع فى حالات التحريم الحالية . وبمعنى آخر ، ننوى النَّهْل من أقوى أنواع الخمور ونحن فى أفحش الأوضاع، فترتدى النساء أشد الملابس إغراء ، ويطاردهن الرجال دون توقف أو رحمة .

وفى الحق أن قيمة الملابس التى تَبْلَى وتتمزق خلال هذه المواسم تكون باهظة الثمن ، فتتشاجر الزوجات مع أزواجهن بالطريقة التقليدية القديمة. وفى نهاية الأمر ينصاع الجميع لأزواج غير أزواجهن وزوجاتهم . ولما كنت قد لاحظت أن هناك نسبة معينة من النساء لا يكتمل سرورهن ولا تتم سعادتهن إلا إذا اجتذبن عيون جميع الرجال بعرض بعض الرقصات البدائية ، فسوف نقيم مسرحًا خصيصًا لهذا الغرض ، فمن يعانين هذه العقدة ولا يُشبع رغباتهن رجل واحد يمكنهن استخدام هذا المسرح لجلب الهناءة إلى قلوبهن حتى يشعرن بتقدير جمهور المشاهدين. ونغدو جميعنا ، خلال هذه المواسم القصيرة التى لا ينبغى أبدًا أن تستغرق أكثر من أسبوع واحد ، مواطنين متمدينين كأولئك الذين يعيشون فى عالمكم . ونحن نسمح بالمطالعة ولكن فى نطاق

ضيق يقتصر على الكتب الخليعة المصورة ، ونحرِّم التفكير بأنواعه فى هذه المواسم ، وكذلك الجهود الإنشائية والفنية ، ونمنع الصداقة والإخلاص . ولتعويض هذا الحرمان نسمح بالكثير من طريف القول وبذيئه . فتُظهر السيدات مواهبهن بتبادل الشتائم كل فى حق الأخرى ، فى أى موضوع يشأن كما يحلو لهن . وندعو الرجال والنساء على السواء لإلقاء خطب صارخة مسلية . ونسمح لكل جنس أن يعترف للجنس الآخر بكل المخازى والآثام التى كان يرجو إتيانها ولم تتحقق . ومجمل القول : أن يتمتع كل فرد بكل ما تشتهيه نَفْسُهُ وَفْقَ سنِّه . وبعد انقضاء ذلك الأسبوع ننتقل إلى فترة يتخللها السكون والهدوء ، حيث يتاح للعقل العيش جنبًا إلى جنب مع الجسد . وعندما ألحظ مرة أخرى أن أعصاب أغلبية السكان بالمستعمرة قد أوشكت على الانفجار من جراء ذلك الكبت المفروض ، أعلن موسمًا آخر للنسيان ، ونعود إلى معيشة المدنية أو الحضارة مرة أخرى .

فقالت چو بعد فترة ساد فيها السكون : ليتنا وصلنا إبَّان أحد هذه المواسم التى تذكِّرنى بحياتى ، بدل وصولنا أثناء هذا العرى الذى يبعث على الارتباك والخجل .

فرد عليها چونز وهو يرمق پيتر بنظره لها دلالتها : ولكنى لم ألحظ على ملامحك أى علامات تدل على الارتباك أو الخجل .

فأجابته الفتاة : هذا أمر لا شك فيه : لأنى سريعة الاعتياد على كل جديد .

قال القس ولر : بغَضِّ النظر عما نحن فيه الآن من مساوئ ، إلا أنى أحمد الله أننا لم نصل فى أثناء أحد هذه المواسم التى وصفتها .

فقال چونز وهو يرمى يولندا بنظرة تقدير وإعجاب : أظن أن أحد «مواسم النسيان» قد قرب موعده ، أو لعلنا نقتصر على أحد «احتفالات الحضارة» .

فسألته يولندا فى الحال : وما هى «احتفالات الحضارة هذه» ؟

فأجابها قائلاً : إنها مثل مواسم النسيان ، غير أنها تجرى على نطاق ضيق ، وهى أقرب إلى الرحلات الانفرادية إلى حد بعيد . وعادةً ما تقتصر على شخصين فقط وجدا نفسيهما عاجزين عن الإذعان لمقتضيات الظروف الجارية ، وهكذا تَرَيْنَ أننا قد حسبنا لكل شىء حسابه ، ولم نترك مشكلة إلا عملنا على تذليلها .

فتمتمت يولندا وجفناها ينسدلان برخاوة على عينيها الناعستين : يلوح لى أنى سأنسجم مع احتفالات الحضارة هذه ، لأنى أمقت العلانية الحالية أيها الزعيم .

فأجابها چونز بصوت خافت : ويمكن كذلك اتخاذ إجراءات خاصة تكفل راحة الجميع . وبهذه المناسبة ، فإن أحد واجباتى هو مرافقة السيدات خلال هذه المناسبات إذا لم يؤد زملاؤهن واجبهم نحوهن على الوجه المأمول .

أما ما كانت يولندا تنوى قوله فلن يعرفه أحد ، لأن آرثر ظهر فى هذه اللحظة يقفز فوق الدَّرَج وفى إثره البطة وجمع من النساء ، وصاح مناديًا چونز بأعلى صوته : ماذا قصدت بوضع بطتك النجسة معى «بالبانيو» ؟ ثم قل لى : ماذا تَفِيدُ هذه البطة من ريشها ما دمنا جميعًا عرايا ؟

فقال چونز بصوت متزن : آرثر . أنصحك أن تَكُفَّ عن الطعن فى بطتى ومحاولة الحد من حريتها .

فاعترض النشال محتجا : ولكن هذه «الصنارة» العجوز قد انتقصت من حريتى ونهشت من بدنى ... انظر إلى هذه الجروح .

وهنا استدار آرثر وبدأ يعرض الأماكن التى أصابته فيها البطة . فتأثر الجميع ، حتى السيد چونز نفسه الذى لم يتمالك أن قال : يا صغيرى آرثر ، هناك من المناظر المؤلمة ما قد لا يحتمله البعض حتى فى مستعمرات العرى نفسها . اذهب بعيدًا عنا بإصاباتك هذه ، فإنها تدمى أفئدتنا .

فسار آرثر تجاه الباب فى طريقه إلى فضاء الله المتسع الرحيب والألم يغمر أجزاء جسمه وهو يقول :

- إن المدفع الرشاش لأرحم من منقار هذه البطة اللعينة !

الاندمَاج فى العُرْى

كانت چو أحب العراة إلى قلوب أطفال المستعمرة ، ففى الأيام الأولى لوصول أولئك الأطفال كانت حياتهم غاية فى التعاسة والشقاء ، إذ كانوا يصرفون معظم أوقاتهم فى محاولة الاختفاء والاستتار . وكنتَ تسمع هذه المخلوقات العارية الصغيرة وهى تحاول إقناع الأمهات والآباء بالإياب إلى بيوتهم وارتداء بعض الثياب ، ولا عجب فالأطفال أكثر المحافظين وأشدهم احتشاماً .

وما إن حلت «چو» بينهم حتى عشقوها شيئًا فشيئًا بسبب روعة جسدها الذى فتنهم إيما فتنة ، بل بدءوا يلمسون فى حياتهم العارية بهجة وحبوراً . وبالرغم من أن الرقصات التى ابتدعتها لهم "چو" كانت أبعد ما تكون عن تلك الرقصات الماجنة الخليعة التى كان يطمع فيها آباؤهم ، إلا أنهم سرعان ما أقبلوا عليها بسرور عظيم وصخب قليل .

وبعد أن قصَّت "چو" عليهم بعض القصص الخيالية التى تجيدها ، نجحت فى نهاية الأمر فى اكتساب موافقة الأطفال على عريهم ، وإن كانت قد عجزت عن اكتساب موافقتهم على عرى آبائهم . وسرعان ما سَرَتْ فى هذه المستعمرة تلك النتائج الوخيمة المترتبة على محاولة تلقيح أولئك الأطفال بالمشاعر الشاذة وغرسها فيهم قبل أن يدركوا المشاعر السليمة ويمارسوها .

كانت چو منشغلة وسعيدة فى وقت واحد . ولعل أحد أسباب انشغالها أنها كانت واقعة فى غرام پيتر ڤان دايك . وأما سعادتها فلأن الأيام كانت تثبت لها مدى نجاحها وقدرتها على الأحتفاظ بما اكتسبت . ولم يكن يهمها بتاتًا أنها استخدمت أساليب «جنود الصاعقة» لبلوغ غايتها ، غير أن فشل يولندا فى استغلال الفرص التى سنحت لها مع پيتر كان مما يثلج صدرها . وكانت يولندا أكثر أفراد مستعمرة العرى شذوذًا

نظراً لسماح السيد چونز لها، لأسباب لا يعلمها غيره، بأن تحتفظ بما عليها من ثياب ، على حين سمح للقس بالتجوال فى سرواله فقط مما جعله أقل شذوذًا . ولكن تُرى هل كانت يولندا تتعمد ذلك لإغراء العراة واستدارجهم للاعتداء عليها ؟

كانت هذه الحالة موضع تعليق الجميع ، فقد كان يبدو على كل من يولندا وزعيم المستعمرة أنهما فى غاية الانسجام ، وكان مدى هذا الانسجام وحدوده أيضًا موضع تفكيرهم وتساؤلهم .

أما أسپيرين ليز فقد قضت وقتها مرتاحة البال فى هذا المكان الأمين . ويبدو أن فى إمكان هذه السيدة أن تعيش مرتاحة البال ، سواء فى الفردوس أو فى الجحيم أو فى أى بقعة بينهما . ولحسن حظها نجحت فى العثور على بعض صويحباتها اللائى يلعبن الميسر ويتكلمن فى كل الموضوعات خاصة موضوع الطعام والشراب . ويكاد يصعب على المرء عند ما يرى أسپيرين ليز ، وهى منهمكة فى لعب الورق مع زميلاتها ، أن يميز أنها عارية ، برغم تلك المفاتن المتراصة من اللحم التى تعرضها على الدوام . وقد اتخذ السيد چونز ، الذى يلوح أنه بدأ يغرم بالشذوذ ، الإجراءات التى تكفل تموين ليز ببعض الجعة وقدر من الأسپيرين على الرغم من أن كل المنبهات محرمة إلا فى موسم النسيان . وأمام كل هذا الاهتمام ، ونظراً لبعدها عن مشدِّها «الكورسيه» بدت الحياة جميلة فى عين أسپيرين ليز ، وقد كانت المرأة الوحيدة فى المستعمرة التى يسمح القس ولر لنفسه بمناقشتها وهو مرتاح الضمير إذ كان ينظر إلى جسدها ، بغضٍ النظر عن كونه عاريًا ، وكأنه جسد أحد أفراد أسرته .

أما پيتر فكان إحساسه موزعًا بين شعورين : شعور بالإثم وشعور بالثورة . فإن أجساد أسرة ڤان دايك كانت تستتر دومًا وراء الحرير والفراء منذ أجيال عديدة مضت، حتى إن أشعة الشمس والهواء كانا يعدان إلى حد بعيد عناصر غريبة عليها ، كما كان پيتر يكره فكرة تطلع الناس إلى جسده وفحصه بالعيون. وفى الحق أنه لم يكن سعيداً على الإطلاق. فقد كان مما يؤلمه ويقلق مضجعه شعوره بأنه يساهم فى تكوين جزء عار من مجموع تلك الكتل العارية فى مستعمرة تتكون من مجموعة من المعربدين أو المخبولين.

وأخذت تتراءى أمام مخيلته صورته في إحدى الصحف وهو عار وسط حشد من الرجال والنساء العراة ، وبدأ يتخيل العنوان الذى قد يوضع فوق مثل هذه الصورة «عميد إحدى أسرات نيويورك العريقة يتمتع بإجازة قصيرة وهو عار مع بعض أصدقائه» أو «بيتر ڤان دايك يهجر قبعته الحريرية إلى حياة الفطرة والرقص العارى» أو «ڤان المجنون فى رقصة عارية» .

وكان بيتر حانقًا على جونز ، الذى لم يسمح له بارتداء ملابسه ، بل لم يحدد موعداً لرحيلهم ، كما لم يسمح لأى فرد من الجماعة أن يتصل بالعالم الخارجى . كذلك كان يخشى أن يظن موظفوه والعمة صوفى أنه إما قصد الصين مع يولندا ، أو تردًى إلى قا ع المحيط . وكلما صارح بيتر السيد جونز بأمر رحيلهم غضب الأخير وبادر يسأله :

– ألست تمضى وقتًا طيبًا ؟

الواقع أنه كان يجدر ببيتر الاعتراف بأنه يقضى أفضل وقت فى حياته ، إلا أن ضربات جونز له على أسفل ظهره بين وقت وآخر ، وكذلك قوله له بصفاقة كلما التقى به :

– ألست تتمتع بأجمل الأوقات بطريقة يحسدك عليها كل رجال المستعمرة ؟ كان يزعجه ويثيره .

وقد ذهب السيد جونز مرة إلى أبعد من ذلك ، فقال وهو ينظر إلى عينى بيتر بخبث :

– لماذا أنت دائم الشكوى هكذا ، مع أن الفتاة ذات الشعر الأحمر لاتشكو على الإطلاق؟ لقد كان الجدير بك أن ترى فى ذلك الهناء والسلوى، هذا بغض النظر عما تشعر به من زهو ، فمن واقع خبرتى مع النساء ذوات الشعر الأحمر يتضح لى ...

ولم يتمهل بيتر حتى يستمع لمغامرات الزعيم الغرامية مع النساء ذوات الشعر الأحمر فقد كانت له فتاة ذات شعر أحمر ، وكانت كافية .

ومن بين أعضاء هذه الجماعة التى ضلت طريقها ، كان آرثر القصير هو أقرب الجميع إلى قلوب العراة ، وربما كان أنبلهم وأقلهم إباحية . فكان دائمًا على أهبة الاستعداد لكي يُظهر لهم مدى فسادهم ، خاصة السيد چونز الذى لم يسمح له بارتداء أحد سرواليه اللذين كان يرتديهما عندما استدرجوه إلى هذا الوكر الشائن . كان كثيرًا ما يناقشهم على أساس أنه إذا كان القس يسمح له بارتداء سروال طويل ، فلا أقل من أن يسمح للصٍ متقاعد بارتداء سروال حتى ولو كان قصيرًا ، ولا غرو أن ينظر إلى القس مهما بلغ عراه ، كأنه مكتس أكثر من اللصٍ ، ولو كان الأخير مرتديًا سترة من الفراء .

وما أكثر ما نوقشت مطالب آرثر بحرارة وعنف ، وعلى الرغم من أن جمهور المستمعين كان ينظر نحو هذه المطالب بعين العطف ، إلا أنه لم يأذن للّصٍ بارتداء سروال ما .

وبدأ اللص القصير يستعذب تلك الرذائل التى كان يستقبحها عندما لمس انتصاراته الاجتماعية ، وعندما اكتشف أن أولئك الشبان والشابات الذين كانوا موضع نقده اللاذع يعطفون عليه ويميلون إليه . وفى الحق أنه لولا ظهور هذه الأجساد العارية بين وقت وآخر وتشدقه بمخالفتها للأصول الخلقية لوجد آرثر حياته فى المستعمرة مملة لا تطاق .

وعندما اكتمل شمل العراة حول الموائد الطويلة فى بهو الطعام كان المنظر رائعًا لدرجة تجعل مخرجي هوليوود يعيدون التفكير عشرين مرة ، ويدعكون عيونهم المتعبة المرهقة ، ويسائلون أنفسهم إذا كانوا قد جربوا من قبل العيش فى مستعمرة للعراة ، قبل أن يقدموا على إخراج أى فيلم جديد . ومع ذلك فلم يحدث ما يستحق الذكر سوى الاستنفاد المهول للطعام .

وحين حضر بيتر للمرة الأولى هذه الوجبات المشتركة سأل إحدى الخادمات أن تعطيه منشفة صغيرة ، على أمل أن يخفى بها جزءًا ولو بسيطًا من جسمه ، فقالت له الخادمة فى عجب :

- منشفة !! إنهم لا يسمحون لنا نحن الفتيات حتى بارتداء الإتب «المريلة» فلولا هذه الأزمة ...

وسرعان ما غطت أصوات الجياع على صوت الخادمة .

وأخذ بيتر يستعرض هؤلاء الناس متعجباً كيف يجلس كل منهم وفخده إلى فخذ جاره ، وجسمه فى لصق جسم الآخر ، ويستهلكون مثل هذه الكميات الضخمة من الطعام دون أن تصيبهم تخمة شديدة أو عسر هضم قاس . ولما كان مجلسه بين سيدتين عاريتين انكمش فى نفسه مخافة أن تمسه أذرعهما الدائمة الحركة .

وفى هذه الوجبة الأولى منذ وصوله المستعمرة لم يأكل بيتر إلا لماماً ، فقد اعتاد فى حياته العادية أن ينتقد الناس حين يستخدمون فكاكهم وأصداغهم ، أو بمعنى أصح كل وجوههم فى أثناء انهماكهم فى عملية المضغ البغيضة . وبالطبع لم يكن سهلاً على بيتر استساغة مثل هذه الحركات ، ولكن نظراً لأن الفترة المسموح بها لتناول طعام الغداء أيام العمل بسيطة محدودة، اضطر بيتر إلى التسليم بهذه الحركات وقبولها . أما أن يرى جمعاً من العراة لايأكلون مستخدمين وجوههم فحسب بل أجسامهم كذلك ، فهذه هى الشراهة المغالية بعينها . وراعه أن يجد عينيه المأخوذتين تتنقلان فوق أجزاء متعددة من هذه الأجسام بالسرعة التى يأكلون بها . فتارة تثبتان على الرقبة وتارة على الحلق وتارة على البطن ، وكأنهما تريدان الاطمئنان على مدى ما وصلت إليه آخر مضغة ابتلعها المخلوق الذى تفحصه عيناه .

وكان النظام المتبع فى مستعمرة العراة غاية فى البساطة، أو هكذا خيل إلى بيتر. ففى الصباح يستيقظ الجميع على دقات النواقيس التى تعلن كل فرد بضرورة النهوض من فراشه والاندفاع إلى الخارج والعدو وراء السيد چونز فى مطاردة جنونية فوق العشب . ونظراً لمشاغل چونز الجمة ، فقد أسند هذه المهمة إلى الفيلسوف الذى كان يفوِّت على هذه المطاردة جزءاً من مرحها وطلاوتها .

وذات صباح نزل بيتر متأخراً فاكتشف أن مشاغل السيد جونز الجمة تنحصر في الانتقال من غرفته إلى غرفة أخرى فاعتقد بيتر أن هذا الرجل لابد أن يكون مخبولا. ولو درى بيتر أن الغرفة التى ينزوى فيها لم تكن إلا غرفة يولندا لَوَصَفَه بما هو أقبح من ذلك . ففى الحق أن هذه السيدة الجميلة قد بدأت تستسيغ مهرجانات المستعمرة شيئًا فشيئًا تحت إرشاد الزعيم .

ولو أدرك بيتر أيضًا تلك الخدمة التى كان السيد چونز يؤديها ليشعر يولندا بالسعادة والهناء فى أثناء حلولها ضيفة لديه لَشَكَر له كثيراً . فكلما استعرض ما وصلت إليه علاقته مع چوزفين بدأ ينظر إلى مستقبله مع يولندا بغير ارتياح . وإذ علم بيتر بقرب حلول أحد «مواسم النسيان» ثارت ثائرته لأنه لم يكن ينوى أن يظل فى المستعمرة خلال تلك الأعياد . فإن ما اقترفه حتى الآن من الرذائل كان يكفى لإشباع رغباته مدى الحياة .

كذلك قرر القس ولر أيضًا الفرار من المستعمرة ، ولم تظهر چو أية رغبة فى البقاء بعكس ما كان بيتر يظن . فقد كانت تؤمن بأن الرجل إذا ما سقط فى بؤرة الرذيلة مرة، فلا يعلم إلا الله وحده متى يخلص منها . ولذا عقدت العزم على أن تخلِّص بيتر مما هو فيه لكى لا يسقط ثانية فى أحضان امرأة أخرى ، ولاسيما أن تكوينه الطبيعى يحوى بذور كل الرذائل التى تتمخض عادة عن ماض نقى طاهر . ولم تكن چو ترفض مشاركة بيتر فى هذه الرذائل إلا أنها لم تكن على استعداد للتخلى عن هذه الرذائل لتكون فى متناول نساء المستعمرة السكارى . لذلك شاركت القس عزمه على الفرار من العراة بغض النظر عن المصاعب والمتاعب المنتظر ملاقاتها خلال المحاولة . وكذلك كان رأى آرثر وأسپيرين ليز التى على الرغم من سرورها ما زالت تردد أن أفضل مكان فى العالم لتناول الجعة هو واجهة الحانة التى كانت دائمة التردد عليها .

وظل موقف يولندا هو الوحيد الذى يخالطه الغموض كلما تطرق الحديث إلى موضوع الهروب . وكان هذا التصرف منها غريبًا ، خاصة أنها العضو الوحيد فى الجماعة الذى سمح له بالاحتفاظ بثيابه كاملة ، ومن ثم لم يكن هناك ما يثير خوفها

من الالتجاء مرة أخرى إلى عالم اللحم المستور . ولوضع الحق فى نصابه ينبغى الاعتراف أيضًا بأنها كانت حريصة كل الحرص على ألا تبدى شوقها ورغبتها فى البقاء حيث هى . لكن الحقيقة لم تكن خافية على أحد ، حتى أن الشك قد تطرق إلى قلب القس ولر .

وكان موقع المستعمرة الجغرافى موضع تساؤل أعضاء هذه الجماعة كلها ، وكلما سئل چونز عن ذلك ذكر لهم أسماء أماكن عديدة حتى أن أحمق الناس لم يكن ليحجم عن وصف هذا الرجل بأنه أمهر كذاب على وجه البسيطة .

قال پيتر لزملائه الحيارى : أظننا لن نتعدى الحقيقة إذا افترضنا أننا فى مكان ما على شاطئ أمريكا الشمالية .

فرد القس قائلاً : أيا كان الأمر فإننا لن نجـد أقبح من هذا المكان مقامًا ، وينبغى علينا الرحيل بأيه وسيلة .

وفى هذه اللحظة وصلت يولندا فى صحبة السيد چونز زعيم العراة الذى أعلن وهو يبتسم ابتسامة عريضة تدل ، كما لاحظ پيتر ، على اكتمال سعادة الزعيم وهنائه :

- سنبدأ تمريناتنا بعد خمس دقائق .

فتمتمت يولندا قائلة : لن يمكننى أداؤها هذا الصباح لأنى أشعر بتوعك بسيط ، لعله من نسيم البحر .

استقرت عينا چوزفين العسليتان على الفتاة لحظة ثم قالت : لقد بدأت أعجب بك يا يولندا ، مما يؤكد لك مدى تدهور موقفى وانحطاطه .

ومما أدهش پيتر أن يولندا لم تسأل چو عما تعنيه بقولها .

وسارت هذه الجماعة العارية فوق المروج الخضراء فى اتجاه جمع آخر من العراة وهم يغنون بصوت عال ، فاغتاظ آرثر وانفجر قائلا : انظروا إلى أولئك المخبولين العراة يتغنون . لقد سئمت هذه الأجسام العارية التى تؤذى عينى .

فأجابه القس ولر : أحسنت القول يا صغيرى . فلو كانت هذه الأجساد سوداء أو سمراء لنجحت فى حمل أصحابها على ارتداء سروال على الأقل ، كما سبق لى أن فعلت فى الماضى عندما كنت أعمل بالبحار الجنوبية . أما وهذه الأجساد بيضاء فالأمر يختلف كل الاختلاف ، إذ لا يكاد أصحابها يهجرون سراويلهم حتى يهجروا معها تفكيرهم السليم .

فأردف بيتر قائلا : لقد فاتك يا عزيزى القس أن السراويل تعتبر بدعة عند مؤمنيك السمر فى حين أن السراويل ليست بالأمر الجديد على هؤلاء الفاسقين .

قالت أسبيرين : ليس الاستغناء عن السروال بالأمر الجديد على . وإذا شئتم أن أروى لكم قصتى فلا مانع لدى ، فهى قصة قديمة جدا .

فقال آرثر بحدة : أما أنا فأرى أن الاستغناء عن السروال منتهى الجنون .

فرد القس قائلا : أما عن نفسى ، فأنا لا أتصور أنه يمكننى التضرع إلى اللّه طالبًا معونته فى أوقات الضيق والشدة دون أن أكون مرتديًا سروالى .

فقالت چو بصراحة منقطعة النظير : أما أنا فأشتاق إلى سروالى لا لأنى فقدته ، بل لأنى مولعة بمنظره فوق فخذى .

نظر القس بأسف عميق نحو الفتاة ذات الشعر الأحمر وفتح فمه ليتكلم ولكنه أطبقه فجأة ، وأخذ يهز رأسه يأسًا وأسفًا ، إذ يبدو أنه كان يرتبك بشدة فى حضرة هذا الجمال الفتان .

وفوق الكثبان الرملية المترامية على شاطئ البحر كان بيتر وچو وفى صحبتهما هافلوك إليس يستمتعون بأشعة الشمس وجَوِّ البحر . وأخذت البطة تحاول الاتِّكاء على جنبها كما تفعل الكلاب ، وهى وضعة لا تستهوى المشاهدة حتى أن هافلوك إليس نفسها برمت بها .

أما پيتر فلم يترك الفرصة التى أُتيحت له تمر دون الإفادة منها ، ومن ثم حفر لنفسه حفرة وغطى نصفه السفلى بالرمال . وبذلك شعر بأنه قد استمتع برهة قصيرة بستر جسمه .

وكان القس ولر عند حافة المياه يتناقش مع الفيلسوف ، مرتدياً سرواله الذى ساء منظره . ولم يكن الفيلسوف يرتدى غير «غليونه» ، ورفرفت هافلوك إليس بجناحيها فأثارت الرمال فى وجه پيتر الذى احتمل هذه المضايقة بصبر بعد أن أصبح هو الآخر مُغرماً بإليس .

وأخذت چو تلاعب الرمال بقدميها لتزيد الذرات التى تداعب وجه پيتر ثم قالت :

– مما يؤسف له ألا تكون متزوجاً يا پيتر ؟

فسألها پيتر بحلم ، إذ أصبح مغرماً بها أيضاً : ولم ؟

فأجابته قائلة : لأن الموقف فى هذه الحالة يصبح ميئوساً منه ، بل مفجعاً، فقد تهجرنى مع طفل لا يعرف له أباً حيث أشقى فى صمت لتربيته ، على حين تبقى ذكراك نابضة على الدوام فى قلبى .

فقال لها : لا تحطمى قلبى فقد أزمعت على الزواج منك ، ولو أن هذه الخطوة من جانبى ليست ضرورية على الإطلاق.

فردت الفتاة بقولها: فى هذه الحالة تصبح متطلبات الحياة أمامك زهيدة رخيصة، فسأعمل لك مجاناً ، ويمكننا بذلك التصرف فى مرتبى معاً .

بدأ پيتر يفكر فيما قالته الفتاة ثم قال : هذا كلام معقد ، ومع ذلك ففيه بعض الحكمة على أية حال .

كان القس والفيلسوف يتهاديان على الشاطئ ، ثم توقفا فجأة عن السير عندما شاهدا پيتر وچو .

وفجأة استدار الفيلسوف نحو القس وقال : أنا لا أتفق معك ياعزيزى القس ، فمنظرك فى هذا السروال يبدو مضحكاً أكثر من منظرى بهذا الغليون .

فأجابه القس : ولكنك تبدو أشد عرياً . أما أنا فعلى أقل تقدير لا أبدو طفلا .

فسألة الفيلسوف : وهل تعتبرنى طفلا حقا ؟

فأجابه : أنا أحاول ألا أعتبر لك وجود على الإطلاق ، ولو أنى على ثقة من أن ذكرى قوامك الرشيق لن تفارق أحلامي لسنين . ويخيل إلى أن هذا الغليون هو الذى يجعلك تبدو أشد عرياً .

ابتسم الفيلسوف مؤمّناً ثم قال : لا بأس بهده الملاحظة أيها القس ، فالغليون بلا شك يعد شيئًا غير مناسب فى مثل هذه الظروف . ولكنى مع ذلك أفضل هذا الغليون على سروالك .

فرد عليه القس : أما أنا فلن أترك سروالى أو أفرط فيه من أجل كل غلايين العالم .

وسأل بيتر الفيلسوف : ألا تشعر معى أن شكلك يبعث على الضحك وأنت عار هكذا أمام الجميع ؟

فسأله الفيلسوف : وبم تشعر أنت ؟

فأجابه بيتر : أشعر كأننى هارب من حمام تركى أو مما هو أسوأ منه .

فاستطرد الفيلسوف قائلا : وبم تشعر الآنسة ؟

فقالت جو : بمنتهى السعادة . وإن كان هناك شىء أشكو منه فهو مخالفة هذه التصرفات للقواعد الخلقية ، فكم أتشوق لملابسى البديعة وجواربى الحريرية ... وغيرها .

أومأت جو للقس معتذرة قبل أن تتابع حديثها ثم قالت : ويجب أن تعرف ياسيد «غليون» أن كل النساء الجميلات يعشقن عرض أجسادهن، ولكن أغلبهن يفضلن انتقاء المشاهدين ، فالعرى الكامل المطلق لا يجد تشجيعاً بين بنات جنسنا . فعلّق الفيلسوف قائلا : وهذه أيضاً ملاحظة لابأس بها يافتاتى ، فحتى أكثر بنات جنسكن همجية يزينّ أجسادهن بالغريزة .

قال بيتر : وكذلك الرجال .

وقال القس على عجل مخاطباً الفيلسوف : هيَّا بنا فعلينا أن نُنْهى جولتنا .

ومن ثم شرعا فى السير، وفجأة استدار الفيلسوف نحو بيتر وقال :

- لقد نسيت أن أجيب عن سؤالك . فى الواقع أن هذا العرى محض جنون إن أردت رأيى بصراحة . أما عن شعورى الخاص فما من مناص من أن يكون منظرى بشعًا . طاب يومك ياسيدى .

فلوح له بيتر بيده مودعًا ، ثم استأنف الرجلان سيرهما .

قال بيتر لجو : لقد كنت أشك فى انتمائه فعلاً . وطالما حدثتنى نفسى أن هذا الرجل ليس من العراة المخلصين للمذهب .

فأجابته جو : اصغ لى يامهجة القلب . إن نزع ثيابك لايجعلك مخلصاً للمذهب إلا بقدر ما يجعلك إعادة ارتدائها محترماً .

فعلق قائلا وهو يذكرها : أنسيت سريعًا ما دفعنا هذا العرى إلى فعله معًا ؟

فسألته جو متهكمة : هل تشكو من أننى دفعتك إلى طريق الرذيلة ؟

فقال بيتر وقد أتعبه الجدل : يافتاتى المحبوبة ، هل آن أن نطرق هذا النقاش من جديد ؟ لقد كنت بين يدى ألين من العجين .

فصاحت جو غاضبة : يديك أنت أيها السمكة الحقيرة ! أنت لاتستطيع حتى غواية تمساح بسيط !

فرد بيتر مؤكداً : ومن قال لك إنى راغب فى ذلك ، أؤكد لك أنه ليس بين كل مائة رجل ، رجل واحد يحب ذلك .

فسألته جو فى زهو : أراك شديد الولع بى يابيتر ، أو بالأحرى تعشقنى .

- أنا أكاد أجن بك ، أعبدك ، أحبك حبا لم يحبه أحد من قبل .

- وأنا أبادلك هذا الحب الجارف، ولكنى خجلى من سوء اختيارى ، فأنت بشع يابيتر .

- أما أنت ففاتنة ، فحينما أتطلع إلى هذه العيون العسلية وهذا الشعر الأحمر وكل ...

- كفى ، كفى ، أخشى ألا تتمكن من إحصاء كل شىء .

- على أية حال فإنى لا أدرى لم تهتمين بى ؟ ولا أدرك السبب الذى دعاك إلى ذلك .

- ولا أنا كذلك أدرك السبب . فعندما أراك راقداً هكذا ملتحفًا بالرمال ، وقدماك الكئيبتان تبرزان ببشاعة ، أجد غرائزى المهذبة تدفعنى إلى النهوض ، وتلح على للهروب منك ، ولكنى أقاوم نفسى وأبقى إلى جوارك ، فالحب يجب أن يصمد لشتى العوارض ، وإن دائى هو حبك .

- وهل ينتابك هذا الداء فى موجات ؟ أعنى فى موجات متتابعة .

فسألته چو متعجبة : هل تعنى أن أشعر كما لو كنت أغرق ؟

فهز بيتر كتفيه يائسًا بعد أن أدرك أن چو لم تستجب إلى الجو الشعرى الذى يحاول خلقه ، وتمتم قائلا وهو يتمنى لو لم يكن قد أقحم نفسه فى هذه المقارنة :

- أعنى الموجات العاطفية التى تطغى على إحساس المرء وتسيطر على مشاعره .

أخذت چو تحدق فى عينيه وقد اغرورقت عيناها بالدموع ، ثم احتوت رأسه بين ذراعيها وألصقتها بشدة فوق صدرها وهى تقول : يالك من غبى أحمق . أنت عاجز حتى عن التعبير عما يخالجك ، ومثلك لايصلح للقيام بأدوار العشاق أبداً . أما بشأن تلك الموجات التى تشغل بالك فلا تقلق عليها فإنى أحس بها إحساسا جارفًا .

وفجأة صدرت عنها صيحة قوية أعقبتها بلكمة لبيتر فى وجهه وهى تقول :

- أيها الأفعى الدنىء !

فسألها مندهشاً : ماذا فعلت حتى تصفينى بهذا الوصف ؟

فقالت وهى تعرض له ظهرها : انظر ، لقد قرصتنى بكل قوتك قرصة دنيئة .

- هذا محض افتراء فأنا لا أفعل مثل هذه الأفعال علانية .

ونظرت إليه چو مليا ثم أطلقت شهقة حادة وهى تقول : هل عدت للقرص مرة أخرى ؟

وعندها جاءها صوت البطة إليس المتهلل من ورائها فصاحت مندهشة :

- لم تنقريننى أيتها الكلبة العجوز ؟ إنها لاتكف عن نقرى . فلنخنقها يابيتر ؟

فرد بيتر قائلا : دعيها تفعل ما بدالها ، فهى بطة لطيفة وإن كانت غريبة الأطوار .

فقالت چو وهى تنهض واقفة : لا بأس ، ولكن ليس معنى ذلك أن تنقرنى كلما طوقت عنقك . إنها تفسد الموقف بيننا ، وتحيله من موقف عاطفى لذيذ ، إلى آخر وضيع مضحك .

فقال بيتر وهو يُزيح الرمل من فوق جسمه كارهاً : انقريها يا إليس واهربى .

امرأة تشتاق الاعتداء عليها

كانت الحقائق وحدها هى الضباب الذى يحجب أفق يولندا الروحى المحدود . فإن ادعاءها وتكبُّرها كثيراً ما يبعدانها عن الحقائق ، ويلزمانها حياة المظاهر الكاذبة . وكان هذا من سوء حظها ، فأجنحة الحقائق مهما صغرت تستطيع اللحاق بأشد السيقان سرعة ومراوغة . ولقد كانت يولندا مخلوقة مستبدة عاتية يمكنها أن تواجه كل شيء إلا الحقائق لأنها تجلب لها التعاسة والشقاء ، وقد أضاعت كل سنى حياتها إما فى الخوض فى أعراض الناس أو فى تمويه وإخفاء الوقائع التى كانت توجه سلوكها المبنى على الانغماس فى حب نفسها . وقد ساعدها على ذلك أبوان يحبانها ويولعان بها ، وحشد من الأصدقاء المنافقين ، وبمعنى آخر كانت مخلوقًا لايجوز لومه .

فمثلا، لم يكن معقولا أن يُنْسب إلى يولندا خطأ ما حتى ولو اجتمعت كل الظروف المؤيدة لجعلها تعترف بخطئها ، فقد تنجح هذه الظروف فى إثارة غضبها، ولكنها لن تنجح فى نيل اعتراف منها بخطئها، فلو أن أحداً واجهها بحقيقة علاقاتها مع السيد چونز بدلا من سردها تدريجيا بطريقة مقبولة ، لانخرطت معه فى نقاش منطقى ينتهى بإلقاء اللوم على بيتر ، أو على القدر، أو على أى مخلوق، أو على سبب آخر سواها .

وكانت يولندا تتمتع بعقل مرن يجد سهولة فى التسامى بأحط دوافعها إلى أعلى مراتب الخلق القويم ، ومن هذا الوصف الوجيز نتبين عقليتها جليّة .

فبينما هى واقفة على الشاطئ بمعزل عن الجميع تتتبع بعينيها تلك الحركات الشاذة التى يأتيها المستحمون ، وجدت نفسها تواجه بضع حقائق كان من الأوفق لها أن تتجنبها . غير أن أمهر العقول لا يمكنه بسهولة تفهم الحقائق الواضحة البراقة إذا كانت مرتبطة بجمهرة من المستحمين العراة – كما فى حالتنا الراهنة – خاصة إذا

كان الرجال منهم يصممون على اتخاذ أوضاع مثيرة وهم يقفزون فى الهواء فوق الرمال ، والنساء يرقصن بمرح فى حلقات ، والأطفال الصغار يراقبون حركات كبارهم بدهشة مصحوبة بالامتعاض .

ومن الإنصاف أن نقرر أنها لم تكن فكرة العرى هى التى تقلق بال يولندا حينما كانت واقفة على الشاطئ تغمرها أشعة الشمس مرتدية كل ثيابها ، بل إن فكرة التسليم بمبدأ العرى هى التى حركت كبرياءها ونالت من غرورها ، وبمعنى آخر ذلك التجاهل المطلق غير المألوف الذى يظهره كل جنس من العراة نحو الجنس الآخر أمامها . ولم تكن هى لتصدق أن يتناسى الرجل غرائزه فى الحياة حتى تبلغ به الدرجة ألا ينظر نحو المرأة العارية نظرة الرغبة والاشتهاء ، وكانت تعتقد أن هؤلاء الذكور إنما يتظاهرون ويدعون ، على حين تستنكر الإناث هذا التجاهل ويتلهفن إلى نقيضه . إنهم الرجال من يتصرفون هذا التصرف نحوهن ، الأمر الذى يضايق النساء ويزيد فى شقائهن حتى اعتدن تقبل هذا الجفاء من الرجال ، بل ذهبن إلى أبعد من ذلك ، فصرن يتحملن هذا الجفاء بصبر عجيب وشجاعة فريدة . وقد دربت يولندا كيف تصبر لنظرات الرجال الشهوانية ، وكانت لا تفتأ تناجى نفسها : «دعى أولئك الوحوش المساكين يغازلون إن نفعهم الغزل» .

وعلى الرغم من أنه قد اتضح لها فى هذه اللحظة بالبرهان القاطع فشل أية محاولة تأتيها لإغراء أولئك الرجال ، فإنها ظلت تأبى أن تصدق أنه يمكنهم البقاء هكذا دون أن يثار شعورهم لو أنها خلعت ثيابها وعرضت جسدها الملائكى الرشيق أمامهم على شاطئ البحر . ولم تظن يولندا أن الأمر سينتهى إلى نشوب ثورة فحسب ، بل استقر فى نفسها أنه سيؤول إلى اعتداءات أثيمة ، إذ لم يكن من الممكن أن تنتهى الحال إلى غير ذلك . أما النساء ... فيالغضبهن المرير !

لقد كانت فكرة جذابة أخذت تطوف بذهن يولندا حتى استولت عليها ، وبذلك تكون قد كشفت عن غبائها لأنها لم تفطن إلى أن الرجال عندما يشتركون فى الرقص وتأدية تلك الحركات الشاذة إنما ينغمسون فى هذا النشاط حتى يقنعوا ويرضوا

نساءهم المعجبات بهم وبمدى حيوتهم ، وسلامتهم البدنية، وقواهم العضلية ، وفتوتهم ، وسرعتهم . وهم لن يتراجعوا عن مرادهم فى هذه الحالة مهما بلغت قوة الإغراء والاستمالة التى تصادفهم . فهناك نوع من الرجال ، تراهم إذا ما جاءوا إلى ساحل البحر قد انقلبوا فجأة إلى حال من السخف أشد ما تكون مضايقة للغير ، فما يكاد أحدهم يلمح كرة ما حتى يتحول هذا الفردوس الهنىء الجميل إلى جحيم لا يطاق ، وسرعان ما تتلاشى الراحة ويتبدد السكون وتصبح الأجسام عرضة للأخطار ، وتمتلئ الآذان والأفواه بالرمال ، ولا يسع المرء إلا أن يلم شتات نفسه ويلوذ بالفرار .

ولقد وجدت يولندا نفسها لأول مرة منذ حلولها ضيفة على غير رغبتها فى هذه المتسعمرة العارية، مدفوعة بدافع قوى إلى أن تكون المثل الأعلى للعرى ، فتبز الجميع . ولم تكن حقا مدفوعة بهذا الحافز فحسب ، بل كانت شغوفة به الشغف كله . وما كاد رداؤها يسقط على الرمل ، وتقف عارية إلا من سروالها ليراها العالم كله ، حتى شعرت كأنها على وشك الولوج فى ثورة عاصفة . وبانزلاق السروال لم يبق إلا القليل من ثياب يولندا ، وحتى هذ القليل قد انساب بسرعة حول ساقيها، وكَمَنَ كستار من الدخان حول قدميها فوق الرمل الأصفر . وعندئذ أحست بقشعريرة بسيطة ، إذ فوجئت مسام جلدها بأشعة الشمس لأول مرة، فشهقت وعَقَدَتْ ذراعيها حول صدرها ، ثم رفعتهما فى الهواء تستقبل أشعة الشمس مستمتعة بنورها ودفئها . وربما كانت هذه الحركة أولى حركاتها الطبيعية غير المتكلفة منذ عشرين عاماً ، أى منذ آخر مرة كانت تدرك فيها عريها وتحسُ به .

انتهت هذه الحركة الغريزية المفاجئة بيولندا إلى الانكماش عندما أدركت أنها عارية مغرقة فى العرى . وبشعور بعضه من الخوف وبعضه الآخر من الفضول تطلعت إلى ما حولها ، ولا عجب فهذه التجربة الجديدة ليست من السهولة كتلك التجارب التى حاولتها تحت إرشاد السيد چونز الماهر .

وها هى ذى الآن وحدها كامرأة ، لم يبق بينها وبين العرى التام إلا زوج من الجوارب. ولما ألقت بنظرها إلى أسفل لاحظت أن هذه الغلالات الحريرية الرقيقة قد تدلت لأن

المشبك المطاط قد تخلى عنها من قبل ، فهالها منظرها ومن ثم جلست فوق ملابسها المخلوعة ونزعت جوربها . وبخلع هذا اللباس أصبحت ترتدى الملابس الرسمية لسكان هذه المستعمرة ، أعنى أنها صارت تكتسى الفضاء .

ونهضت يولندا ببطء لتستقبل بجسدها أشعة الشمس والهواء النقى، وقد أخذا يغمرانه برفق كما تغمره مياه البحيرة الرقيقة الصافية ، وإذ أحست بهذه المشاعر خيِّل إليها أنها جزء حى من هذا الشاطئ، وأنها على ارتباط شديد بهذا البحر الممتد ، وكذلك بأنها ليست بعيدة كل البعد عن تلك الطيور التى تحلق فوقها .

ولكن ثمة فكرة كانت تشغل بالها وتقلقها ، وهى كيف تبدو أمام الرجال ؟ أعنى ما هو الأثر الذى سيتركه منظرها فى نفوسهم خاصة وهى تشعر سلفًا أنها ذات قوام فاتن وعينين ساحرتين . وانسربت وراء تلك الفكرة أفكار أخرى .

هل تكتفى بالسير فحسب ، أم تتلوه بالعدو وهى عارية ؟

وهل تسير منفردة متواضعة ، أم تحاول الغزو والإغراء ؟

غير أنها اكتشفت والأسف يغمر فؤادها أن الرجال جميعًا منهمكون فى ألعابهم المستهجنة والمسلية والمضحكة فى نفس الوقت ، ولكنها عقدت عزمها على أن تلعب بعقولهم فتلهيهم عن لهوهم عندما تشاء وتدعهم فيه وقتما تشاء .

أما عن النساء فسوف تكشف لهن أن الأنوثة ليست بالأمر الذى يكتسب فى يسر أو يقبل عليه قطعان الذكور العراة وقتما يشاءون ويدبرون عنه كما يشاءون . ولم تكن تفهم السبب الذى يدعو هؤلاء النسوة أن يبحن أجسادهن العارية على غير استحياء وكأنه ليس ثمة رجال . لاشك أن هذا هو عين الفساد ، كما أنه افتقار شديد إلى إدراك الفرق الشاسع بين الجنسين .

وبدأت الفتاة فى السير على الشاطئ متجهة نحو العراة ، وكانت كل خطوة تخطوها تكلفها جهدًا ، فأحيانًا يتملكها الخفر والحياء ، وأحيانًا تشعر بتحديها المشحون بالجرأة . وحاولت مرة أو مرتين الارتداد على أعقابها وارتداء ثيابها ، غير أنها واصلت سيرها ... إلا أن أحدًا لم يأبه بمرورها !

تُرى هل هذا من الممكن حدوثه ؟

هل تمر هكذا دون أن يأبه بها أحد ؟

أفلا يدفع الأدب أحد أصحاب تلك الأجساد العارية إلى إظهار إعجابه ؟

فمثل هذا القوام البديع الذى لم يَطُلِ العهد بتعرِّيه ، إذا ما مرَّ أمام أولئك الرجال لابد أن يثير بعض التعليق . ويجعل الأعين ترنو إليه والرءوس تستدير نحوه .

وكانت كلما زاد اقترابها من العراة أحست أنها لو جرت قليلا ازدادت ثقتها بنفسها . وعلى ذلك جمعت شتات نفسها وأخذت تعدو بخفة وبلا تكلف وسط الجماعة العارية وعيناها مثبتتان فى الفضاء. ولم يثر مرورها الأول ما كانت ترجوه وتتوقعه من اعتداء ، بل لم يهتم أحد بأن يوجه إليها أية عبارة فاحشة كما كانت تنتظر .

تُرى هل لم يلحظها أحد فى أثناء مرورها ؟

فلتعاود الكَرَّة لعلها تظفر بملاحظتهم ثم بتعليقاتهم .

ولما رجعت وهى تعدو فى المرة الثانية، اصطدمت لسوء حظها بقدم أحد الشباب ، وسرعان ما وجدت نفسها طريحة على الرمل .

ولم يكن هذا الموقع بالمكان الذى كانت تتمنى الارتماء فيه ، وأدركت للأسف أنها فشلت فى تجربتها ، وما كادت تهم بالنهوض حتى رفعتها ذراعان صلبتان إلى الهواء ثم هوت بها على الرمل . وكانت السقطة قوية لدرجة أن فكها اصطدم بالأرض فظلت برهة ذاهلة معتقدة أنه قد آن الأوان للاعتداء أن يبدأ . ولكن ... ما بال هذا الرجل يتباطأ ؟

أطرقت يولندا لحظة ، ورنت من فوق كتفها ، غير أنها لم تجد والأسف يعصر فؤادها واحداً يعير وجودها أدنى اهتمام ، فلم تصدق عينيها وقامت مسرعة لتندمج فى الجماعة . ومع أنها كانت أشد ما تكون ضجراً وبرماً وخوفًا إلا أنها تمالكت نفسها

وعادت ثابتة إلى الميدان . وتصادف لسوء حظها أثناء سيرها نحو الجماعة أن صدمتها كرة ألقتها على ظهرها ، وما لبثت أن وجدت نفسها طريحة الأرض ، ونظرها يحدق فى عدد لا حصر له من العراة .

قال أحدهم : لحسن الحظ أنها لم تكن كرة «طبية»(*) وإلا للقيت حتفك .

ومع أنها كانت توافقه رأيه إلا أنها نظرت إليه بحقد شديد ، ثم حمدت الله على ما أولاها من حظ حسن لأنها لم تكن كرة طبية ، فالمفرغة الخفيفة الوزن كانت كافية لصرعها . وما إن تذكرت الصوت الفاضح الذى صدر عنها برغم إرادتها حتى أزعجتها الذكرى، فقد كان صوتًا فاضحًا مشينًا حقا. فجأة جال بذهنها خاطر جديد ، فإن فتاة مثلها تعمل عضوًا بارزًا فى جمعية «الفتيات الشابات» التى لا تضم سوى فاتنات الطبقة الراقية لا يليق بها أن ترقد هكذا عارية على شاطئ البحر ، ولا غرابة فقد كان رقادها هكذا منظرًا لافتًا أشد ما يكون لفتانا .

ومرة أخرى لملمت نفسها ، ونهضت مسرعة نحو العراة . وفى الحق أنها كانت على وشك نفض يديها من التجربة ، إذ بدأت تدرك أن إثبات نظريتها قد يستلزم نهش الكثير من لحمها وفقدان قدر عظيم من روحها؛ ولكنها كانت لا تزال تُرجع فشلها حتى الآن إلى الظروف السيئة التى تحيط بها ، وهى لم تفقد بعد ثقتها بنفسها فلا مانع إذن من معاودة الكرَّة . فاندفعت بكل ثقة نحو تلك الكتل البشرية العارية ، غير أن أحد العراة المسنِّين دفعها بغلظة بعيدًا عنه وهو يقول : ها أنت تفسدين علىَّ قطتى العجوز مرة أخرى .

فتعجبت يولندا مما يقوله هذا الرجل عندما فطنت إلى أن قطته التى يتكلم عنها لم تكن سوى كرة تنس يلعب بها العجوز لعب الصبية .

فقالت ساخرة : ولم لا تلاعب قطتك بعيدًا ؟

فرد قائلاً : إن الشاطئ مباح للجميع وسألعب حيثما أريد .

(*) Medicine ball كرة محشوة ثقيلة ابتكرت خصيصًا لتقوية بنية الجسم بدلاً من الحركات السويدية.

وبطبيعة الحال أيقنت يولندا أن هذا الكهل الهزيل لن يجسر على الاعتداء عليها لأن حياته كلها وقف على قطته العجوز .

وأدبرت يولندا ، ولكنها أحسَّت فجاءة ذلك المسَّ الكهربائى الذى يحسُّه المرء حين تطأ قدمه آدميا آخر ، ثم تبع ذلك الإحساس صيحة قوية رددها الفضـــاء تلاها من يقول : بربك يا سيدتى كونى أشد عناية وأنت تضعين قدمك ، فإن ما أتيته يكاد يكون خطيراً لأنك ...

فقفزت يولندا مبتعدة عن هذا المخلوق الذى هرسته قدماها دون قصد، غير أن صوته ظل يلاحقها وهو يصيح لائماً : عليك أن تقدرى لقدميك موضعهما فى مستعمرة العرى ، وإذا كنت تقصدين المزاح فـ ...

وقبل أن يتم كلامه صفعتها يد من ورائها جعلتها تجمد فى مكانها، فظنت الصفعة توطئة للاعتداء ، وبرغم ألمها وخجلها احتفظت باتزانها ، فما من شك فى أن مثل هذه الصفعة الصادقة تعبر عن أبسط مظاهر إعجاب من صفعها . وما إن استدارت لترى هذا المعجب حتى واجهها شاب ضخم الجثة جميل التقاطيع .

فسألته : هل أنت من صفعنى ؟

ثم ركلته بقدمها ركلة قوية آلمته .

فسألها ببساطة : وأين صفعتك ؟

فقالت ببرود : وهل من الضرورى أن ندخل فى مثل هذه التفاصيل ؟

قال الرجل وهو يبتسم ابتسامة وديـة : ربما أكون قد صفعتك ، أذكر أنى صفعت شخصاً ما منذ لحظة ، ربما تكونى أنت هذا الشخص .

قالت يولندا : نعم إنه أنا .

فسألها : لا تؤاخذينى فهذه إحدى عاداتى ومداعباتى ، فكلما وقع بصرى على لحم عار لطمته ، هذا كل ما فى الأمر .

فقالت يولندا مندهشة : هذا كل ما فى الأمر! أهكذا تبسِّط الأمور؟ إن هذا أكثر مما أحتمل !

فقال لها : لا مانع لدى من أن تصفعينى بالمثل ، صفعة بصفعة والبادئ أظلم .

ودار حول نفسه موليًا لها ظهره وانتظر صفعتها غير أن يولندا كانت ترغب فى ركله ركلة قاسية بكامل قوتها . وكانت هذه الحركة هى الحركة الثانية الصادقة التى أدتها دون تكلف منذ سنين عدة . ولعنف الركلة انثنت أصابع قدمها كلها مسببة لها ألمًا شديدًا ، ناهيك عن الألم الذى عاناه الشاب .

قال لها محتجا وهو يلتفت إليها بسرعة : أنت غير منصفة ، فلم أتوقع منك كل هذا العنف .

فقالت يولندا : ولا أنا . فى الحق أنى أيضًا لم أكن أتوقع ما فعلته بى ، مما اضطرنى إلى فقدانى زمام أمرى .

وما كادت يولندا تنتهى من عبارتها حتى تقدم منها الرجل ، وركلها بنفس القوة ، وهو يقول :

- أما هذه فلن تنسيها سنين وسنين .

وسواء كانت يولندا قد استعذبت الركلة أم لم تستعذبها ، فقد أسرعت نحو جمع آخر من الأجساد العارية ثم توقفت وتطلعت خلفها نحو غريمها ، ولشد ما كانت دهشتها عندما فطنت إلى أن الحادث قد مر دون أن يلحظه أحد . واتضح لها جليا أن أولئك الرجال والنساء قد اعتادوا أمثال هذه الركلات الشاذة . وفى هذا التجاهل يكمن سر استيائها ، لأنه فى نظرها أشد وقعًا على نفسها من الاعتداء نفسه ، بل هو صفعة قوية تنال من صميم كبريائها جعلها تستشيط غيظًا وحنقًا ، مما أيقظ فى نفسها غريزة الحيوان. فلم تكد تمر لحظة حتى وثبت وثبة واسعة طويلة فى اتجاه الرجل وانقضت على لحمه كالقطة الهائجة تنهشه بأظافرها الطويلة الحادة ، وكان هذا التصرف أحد التجارب الفريدة التى أشبعت بها يولندا إحدى رغباتها .

صاح الرجل بشدة طالبًا العون وهو يحاول التملص بكل ما أوتى من قوة ودهاء ، وقبض على يولندا من تحت ذقنها ثم دفعها دفعة فى الهواء نحو معدة جسد مُتَّكِئ باسترخاء ، سرعان ما استعاد نشاطه . ولسوء حظ سيدة نحيفة تصادف مرورها فى هذ الوقت ، تلاقى جسد يولندا بهذه السيدة فقذف بها فى اتجاه البحر على حين عجزت يولندا عن الفرار وهى تجد نفسها محاطة بغابة من السيقان العارية لم يلبث أن استقر عدد كبير منها فوق أعضائها الممددة .

ومن ثم صار الشاطئ مسرحًا لصراع عام ، صراع مطلق من كل القيود ، لا ترى فيه أية تفرقة بين جنس وجنس أو وزن وآخر ، وأحست يولندا كأنما قد طحنتها تلك الأثقال وكادت تفتت رأسها ، فلم تر مفرا من الهروب . ونهضت أول الأمر متثاقلة منهكة القوى ، ولكنها اضطرت تحت ضغط المطاردة الحيوانية إلى الإسراع . ولما وجدت نفسها محاطة بحلقة مغلقة من العراة انكفأت على وجهها وظلت على هذا النحو لحظة فوجئت بعدها بمن يقول لها بصوت مهذب : عفوًا سيدتى فقد حجزت هذا المكان لغيرك .

فأجابته يولندا وهى تسحب ساقه بشدة ثم تقرصه قرصة أليمة : وهل تظننى أرغب فى جوارك أو أرتاح إليه ؟

وهوى صاحب الساق على الأرض فأخذت تجره فوق الرمال وهو يقول راجيًا :

- ناشدتك الله أن تحرصى على جرحى يا سيدتى فلم يمر على إجراء عمليتى الجراحية أكثر من عشرة أسابيع .

وإزاء هذا التوسل الأليم تركت يولندا قدمه تهوى حيث كانت وواصلت سيرها مشمئزة وهى تتمنى لو أن هذه العملية التى أجريت له منذ فترة وجيزة كان موضعها فى حلقه بدلاً من زائدته الدودية . وتوجهت يولندا مسرعة نحو ملابسها المهجورة لتعيد ستر جسدها المغطى بالجروح والمملوء بالكدمات ، فإن أولئك العراة المتوحشين لعلى استعداد كى يمزق كلٌ زميله قطعة قطعة ، وتمنت أن ينتهى هذا الصراع بمجزرة تحصدهم جميعًا بسرعة لا لسبب إلا لافتقار هذا الجمع إلى رجال ذوى حيوية ! متناسية أو متجاهلة أنها وحدها المسئولة عن تحويل أولئك العراة إلى متوحشين ثائرين .

وفى الحق أن يولندا كانت مغلوبة على أمرها فكبرياؤها محطمة، وأعصابها ثائرة، وبخاصة أن تجربتها الأولى وسط العراة باءت بالفشل الذريع : فثمة أنواع متعددة من الاعتداءات الظريفة المستحبة ، إلا أنها لسوء حظها تعرضت لأسوأ الاعتداءات وأرذلها وأبعدها عن الذوق وأقلها تقديراً لأنوثتها وفتنتها ، حتى أن أحداً لم يجتهد لإرضائها ، بل على العكس اتفق الكل على إيلامها وإيذائها .

لذا جذبت رباط ساقها من مشد وسطها نحو جوربها ، واندسَّت ثائرة داخل مشد صدرها ، وسحبت جوربها إلى أعلى ، وأدخلت رأسها فى قميصها ، ثم حجبت كل ما سبق بردائها ، معتزمة ألا تحاول إعادة الكرة مرة أخرى .

وهكذا عادت مرة أخرى إلى ثيابها وإلى عقلها ، وفى الحال اتجه تفكيرها نحو السيد چونز ، فانتوت العودة إلى المنزل والبحث عنه .

وعندما دخلت غرفة الاستقبال الطويلة ذات السقف المنخفض وجدت نفسها أمام مشهد يبزُّ مشهد الشاطئ ، فقد ظهر آرثر مكتئبًا وسط المسرح ، أمام خمسة من العراة الثائرين المحنقين ، وهم يشيرون نحوه بأيديهم إشارات تدل على أنهم يتهمونه بشىء ما، وكان السيد چونز يبذل جهده كى يهدئ من ثائرة أولئك الخمسة الصاخبين ، وكان كل من پيتر وچو وأسپيرين والقس يصغى بانتباه . وتبيَّنت يولندا علامات الإعجاب والزهو مرتسمة على وجه پيتر فى أثناء اتهام آرثر بجرمه مما أثار فضولها لتعرف ما أتاه وما يدفع سيده إلى الإعجاب به وما يثير عليه هذا الجمع الصغير من العراة . غير أنها لاحظت أن متهمى آرثر يجدون صعوبة كبيرة فى صياغة أفكارهم فى قالب من الكلمات المرتبطة المعنى . فإن أذنيها لم تعيا غير قدر لا حصر له من الثأثأة والفأفأة والتأتأة تخرج من أفواه أولئك العراة مقترنة بنغمة تشبه الصفير ، فأنساها هذا المنظر الفريد ما سبق أن لاقته من ذلٍ وهوان ، ولم يعد عدم الاعتداء عليها أمراً ذا بال ، خاصة أنها وجدت نفسها أمام مأساة تفوق مأساتها عندما سمعت السيد چونز يقول بصوت يحاول أن يكسبه صبغة الحلم :

- يا صغيرى آرثر ، إذا كانت قوانين مستعمرة العراة تحتم على مواطنيها نزع ملابسهم فليس معنى ذلك أنها تحتم عليهم أيضاً نزع أسنانهم .

وعند ذلك فقط استطاعت يولندا أن تفسر سبب تلك الثأثأة والفأفأة . وبطبيعة الحال أظهر العراة الخمسة علامات الموافقة على ما يقوله زعيمهم بإصدار بعض الأصوات المنكرة وأداء بعض الحركات .

واحتج آرثر بقوله : ولم ينامون وأفواههم مفتوحة ؟

فقال جونز : يبدو عليك أنك لا تفهمنى يا آرثر . إن أى شخص ، رجلا كان أو امرأة له مطلق الحرية فى أن ينام وفمه فى أى وضع يشاء . صحيح أن إطباق الفم هو الشائع ، ولكن هذا لا يحول دون أن ينام المرء وهو فاغر فاه كالبوابة المفتوحة .

فعلق أحد الحاضرين قائلا : بناء على ذلك يمكن اعتبار أى فم مفتوح فى المستعمرة غير آمن .

فرد آرثر متحدياً : لم تكن الأفواه كلها مفتوحة ، فبعضها كان شديد الانطباق كما لو كان مصمغاً ، ومع ذلك فقد نجحت فى فتحها بمهارتى .

وبطبيعة الحال لم يلاق هذا الاعتراف إلا أصوات الاستنكار الشديد .

ثم علق جونز قائلاً : نحن لا يداخلنا شك فى مهارتك يا آرثر ، بل أنا شديد الإعجاب بفنك . ولكن الثابت أنك استخدمت هذا الفن بطريقة دنيئة سافلة ، إذ كان يجب عليك أن تترك أفواه الغير بما فيها لأصحابها يا عزيزى .

فصاح آرثر منفعلاً : بالله قل لى يا سيدى ماذا يفعل لصٌ ماهر مثلى بعدد لا حصر له من الأفخاذ العارية ؟ أليس لى الحق فى أن ألتمس لى مخرجاً ؟

فعلق جونز قائلاً : أما سؤالك الخاص بالأفخاذ العارية فسؤال محرج ليس جوابه عندى، وأقترح عليك استشارة أصحاب تلك الأفخاذ . ومع ذلك فالأفواه شىء والأفخاذ شىء آخر . وأكرر قولى مرة أخرى ، اترك تلك الأفواه جانباً ، فأنا مسئول عن حماية ضيوفى وأسنانهم .

فـأجـاب آرثر سـاخطًا : ولكن لا مـفـر أمـامى من اسـتـعـمـال يدى وإلا فـسـوف تفقدان مهارتهما بالتدريج .

فردت سيدة ذات شعر مصبوغ فى لون اللهب محتجة : ليس على حساب فمى .

وقال ثان : ولا فمى .

وقال ثالث : ولم لا تجرب مهارتهما فى فمك أنت ؟

فأجاب اللصُّ القصير قائلا : وما الذى أحصل عليه من ذلك ؟

فردت چو على الفور : فلتنشل لسانك .

وأعقبها پيتر بقوله : نعم ، أو تقضم أصابعك المتسللة . فأنا أشارك السيد چونز إعجابه بمهارتك يا آرثر، غير أنى لا أحب أن يشيع عنى أنى قد جعلت لنفسى خادمًا من لصوص الأسنان . فنشال الجيوب أمر محتمل ، أما نشال الأسنان فأمر رهيب .

فرد آرثر والأسف ملء وجهه : أراكم جميعًا قد تعصَّبتم ضدى .

فانفجرت أسپيرين صارخة : لا ، أنا لست ضدك ، فعلى الرغم من اشمئزازى من فكرة نشل الأفواه وسرقة الأسنان إلا أنى على يقين من أن تلك العادة التى اكتسبتها منذ عدة سنين لا يمكن الإقلاع عنها بين يوم وليلة .

فاحتج چونز قائلا : ولكنها الأسنان يا سيدتى العزيزة ! إنها الأسنان . دعيه يسرق أى شىء إلا هذه الأسنان ، وأعدك بأنى سأصك له النقود خصيصًا فى هذه المستعمرة لينشلها إذا ما أقلع عن نشل الأسنان .

قال أحد العراة : سأعطيه خمسة دولارات لو أعاد إلى أسنانى .

فأجابه آرثر : أنا لا أريد نقودك ولا أبغى أسنانك. لقد كنت أمارس هوايتى المحببة فحسب .

فقال چونز : أظنها أحقر الهوايات التى سمعت عنها حتى الآن . وفى رأيى أنها أسوأ من نشل الأجساد نفسها ، لأنها تترك الضحية معدومة الكرامة . ألا تسمع هذه الأصوات المنكرة التى يطلقها أولئك التعساء .

فقالت چو : ليتنا لم نسمعها قط .

فأجابها چونز : أشاركك الرأى ، ولكن مشكلة الأسنان يجب أن تحسم الآن وإلى الأبد .

تكلم القس ولر للمرة الأولى وكان واضحًا أن التأثير قد نال منه مبلغًا كبيرًا فقال :

– إن سرقة الأسنان لا تُعتبر فى عرف الله خطيئة فحسب بل انحرافًا شاذا عن الذوق السليم . ولا شك أن جزاء الذوق الفاسد أشد وأنكى يا آرثر . لقد ظننت أنك قد أقلعت عن هوايتك القديمة ؟

فرد اللص قائلاً : أنت لا تفهمنى يا سيدى القس . فأنا لن أستطيع الكف عن نشل الجيوب ، حتى حينما تُسدى إلى النصح . وها هو ذا أحد أزرارك على سبيل المثال أُعيده إليك عسى أن تجنبنى عذاب الجحيم وتشفع لى عند الله .

فانفجر القس قائلاً وهو يخطف الزر من اليد الممتدة نحوه: أيها الآثم التعس ، والآن أخبرنى عن موضع الزر .

وفى الحال انبرت چو تتفرس فيه ثم قالت وهى تشير بيدها : ربما كان موضعه هنا .

فاستدار القس نحوها بسرعة قائلاً : أظن هذا الأمر يهمنى وحدى، وسأعثر على موضع الزر بنفسى ، ولا داعى لإقحام نفسك فيما لا يهمُك أيتها الفتاة .

فأجابته چو : لقد كنت أريد مساعدتك فحسب .

فتمتم القس : يا لها من مساعدة مشينة !!!

فردت چو : كان الأجدر بك الاعتراف بأنى قد ساعدتك كثيراً .

فتمتم القس بينما عيناه تفحصان سرواله : لم ألمس نتيجة لهذه المساعدة التى تزعمينها حتى الآن ، وعلى الآن أن أذهب للبحث عن إبرة وخيط .

ثم استأذن القس الحاضرين وصعد الدرج لمقابلة مدير شئون المنزل .

واستطرد چونز قائلاً : لنعد الآن إلى مشكلة تلك الأسنان .

فقالت چو : ألا يوجد مفر من تلك العودة ؟

وقال بيتر : وددت لو نستبعد الموضوع كله من حديثنا .

فقالت چو : أقترح أن تعيدوا الأسنان إلى أفواهها ، ثم تعلقوا بنطلوناً قديماً يتسلى به آرثر القصير بعد أن تضعوا له بعض الأدوات فى جيوبه .

فقال چونز وعلامات الشك ظاهرة عليه : أخشى لو فعلنا أن يحاول ارتداءه .

فقال آرثر : لا ، أقسم يا سيدى أنى لن أرتديه ، بل سأقتصر على مداعبته من وقت لآخر ، فهذا يُتيح لى عملاً أؤديه .

- هل تتفضل بإعادة الأسنان إلى أصحابها الشرعيين ؟

- بل سأعيدها بنفسى إلى أفواهها .

وهنا ارتفعت صيحات الاستياء والاستنكار من ناحية العراة الخمسة وانبرى أحدهم قائلاً بكبرياء :

- لا ، بل أعطنى أسنانى لأعيدها بنفسى .

فقال چونز : إذن فلتفعل . ربَّاه ما أبشعهم !

واقترب چونز من يولندا الصامته وقال لها : تعالى معى لأريك ما وعدتك به .

وبينما هما فى طريقهما إلى الحديقة انفجرت يولندا محتجة : لقد خلعت ثيابى على الشاطىء ولكن أحداً ممن لقيتهم هناك لم يحرك ساكنًا ، بل كانوا معى فى منتهى البرود والجفاء .

فقال لها چونز : لا يشغلنَّ هذا الأمر بالك كثيراً ، فأنا على استعداد لتغيير هذا الإحساس إذا سمحت لى بالقيام بهذه المهمة بنفسى .

كان النسيم دافئًا تلك الليلة ، والأمواج تتهادى متتابعة لتلطم الشاطئ ، وكلما بلغت إحدى الأمواج قدمى چو أصابتها رعشة خفيفة ، فقالت لبيتر الذى استلقى راقداً إلى جابنها : إذن فأنت مازلت مصراً على الأحتفاظ بى كامرأة عفَّة ؟

– لن أذهب إلى هذا الحد فى رأيى عنك ، ولكنى عقدت العزم على الزواج منك على سنة الله فى أول فرصة ممكنة .

– بغض النظر عن سلوكى الشائن ؟

– بل بسببه .

– ولكن لنفترض أنك اكتشفت فيما بعد أنى لست بالفتاة السيئة التى تريدها ؟

– سنكون فى هذا الوقت قد بلغنا من العمر أرذله يا فتاتى ، ولن يغير هذا الاكتشاف شيئًا .

– فى الحق أنى كنت ومازلت مؤمنة بأنك رجل دنىء الأخلاق يا بيتر. رجل سافل، فلست بالشاب المستقيم على الإطلاق .

– ربما كنا نحن الاثنان على جانب من الاستقامة دون أن نشعر ... من يدرى ؟

– ترى كيف يهتدى المرء إلى ذلك ؟

– الحقيقة أنى لا أعرف يا چو، وما عليك إلا المضى فى هذه الزيجة، ولست أطالبك بتوزيع إخلاصك وحبك بينى وبين آخر. فلا داعى لهذه المغالطة الرخيصة بيننا ، وإذا زهدت فىَّ لك أن تهجرينى بلا أدنى متاعب وفى أى وقت تريدين .

– ولكن ألا ترى معى يا بيتر أنه لا يمكن للرجل والمرأة التفكير معًا فى مثل هذه الأمور فى وقت واحد ؟

– إذن فعلى أحدهما أن يتلقى الصدمة قبل الآخر ، فهذا أفضل من مداومتهما على خيانة أحدهما للآخر ، بل أظن أن هذه الطريقة توفر السعادة لكليهما . فكثيراً ما يفضل المرء عاداته وطباعه ، ويؤثر اهتمامه بذاته على عواطفه وشفقته .

– يخيل إلى يا پيتر أننا سنخلد معًا ، فهذا محتمل الوقوع أحيانًا .

نظر پيتر إلى الفتاة متأملاً ثم حول عينيه اللتين تفيضان حزنًا وإن امتلأتا حكمة نحو البحر المظلم ، فالحب لا يخلد كما قالت چو ، وقل أن يحدث ذلك. والحب لم يدم هكذا أبدًا وإن كان فما أندره ، فأكثر الرجال دائمًا يلهثون وراء فريسة جديدة يفتكون بها ، ويكاد النساء كلهن يتلهفن شوقًا إلى ذلك المغتال الفاتك . هذه سنة الحياة من قديم الأزل وهكذا ينبغى أن تكون . ولا يعنى هذا أنك لا ترى بضع أزواج يمكثون فى بيوتهم ليلاً ، يود كل لو ينقض على صاحبه ، ومع ذلك فكل يجلس مُنصتًا إلى المذياع فى هدوء ، ثم ينهض إلى الفراش فى سكون يحمل غصَّة تحزنه وأملاً يراود فؤاده ، وإن كان كل منهما يتمنى ما يتمناه الآخر ويشتهيه ، غير أن كليهما يُبطن شهوة مكبوته تغلِّفها العبارات المألوفة .

ولم يكن پيتر يستحب هذا النوع من الغرام بل يشبهه «بعثَّة الملابس» إذ تنشأ عنه الثقوب والثغرات فى العواطف البشرية بدلاً من الثياب .

استدار پيتر فجأة نحو القوام الأبيض الملقى إلى جانبه ، وهوى بيديه على المنكبين الباردين ، وما لبثت چو أن وجدت نفسها غارقة فى أحضان پيتر الذى لابد قد نقل لها خلال عناقه شعوره باستحالة خلود أى شىء ، ولعلها أيضًا أحست أن الشهوة أخلد من العاطفة فهى إحساس أكثر عنفًا وأسرع نزوة ، ومن الصعب ترويضها أو إغفالها ، كما أنها أكثر ما تكون مثارًا للمتاعب ومجلبة للمشاكل .

ولم تشعر چو إلا وهى تهمس قائلة : أنا لا أعرف إلا أنى أعشقك الآن ، وأكاد أذوب فى هواك يا پيتر .

فقال لها پيتر وهو يربت على ظهرها فى حنان : وأنا شديد الامتنان لك يا چو .

- ينبغى أن تكون كذلك يا بيتر . ألم أمنحك أفضل سنى حياتى ؟

- لا ، بل ستمنحينني إياها ، ولنحمد الله على ذلك فسوف نرتشف رحيقها معًا . فما رأيك ؟

- أرى أنك تدفعنى نحو البحر دفعًا ، اسحبنى نحوك أيها الرجل وإلا غرقت .

وبينما هما يخطوان فى الحديقة سألته چو سؤالاً لم يتوقعه فقالت :

- ما أخبار يولندا ؟

وبحركة لا إرادية رفع بيتر بصره تجاه غرفة يولندا ، فتوقف ثم صاح :

- رباه ! أرى رجلاً فى غرفتها . انظرى يا چو .

فتطلعت چو إلى حيث ميزت شبحين لرجل وامرأة يبدو من منظرهما أنهما قد بلغا غاية التفاهم والانسجام ، فابتسمت چو مغتبطة وقالت : يبدو لى أن حل المشكلة قد جاء على يديها .

فسألها بيتر : أظن أن كبريائى تفرض علىَّ أن أتخذ إجراء حاسمًا إزاء هذا الموقف . فإن تصرفها قد أدهشنى وأطار عقلى .

- وماذا بوسعك أن تفعل ؟ يبدو لى أنهما يعرفان تمامًا ما يجب فعله دون الحاجة إلى مساعدتك .

- أما يجدر بى أن أصرخ على الأقل ، أو أطلب منهما الابتعاد عن وجهى ؟

- لا ، بل تناس ، فزعيم المستعمرة منشغل اليدين كما ترى .

- هذا إذا غضضنا النظر عما يفعله بذراعيه ، لابد أن تعلمى أنى مسئول عن مسلكها يا چو ؟

- لا تكن أحمق . فأنت إذا عرفت المرأة كا تعرفها المرأة لأدركت أن كل واحدة منا تحمل بين ضلوعها الجذوة التى ستحرقها وتؤدى إلى سقوطها .

ومن ثم تابعا سيرهما فوق المروج ببطء ، إلى أن قال بيتر :

- هل تغمر قطرات الندى قدميك يا چو ؟

- بل سيل منها .

- أنعسانة يا چو ؟

- كلا .

- إذن هلم بنا لننام .

- لماذا تلفظ هذه العبارات البذيئة أيها السيد ڤان دايك ؟

- لأنى قادر على تحقيقها .

الفِـــرار

وفى باكورة الصباح ، أعلن السيد «چونز» على مائدة الإفطار تصريحًا تَلَقَّاه العراة بالهتاف والصخب والتصفيق ، فيما عدا بيتر وجماعته الذين توجسوا منه خيفة وخاصَّة القس ولروآرثر القصير .

بدأ چونز خطابه مستندًا بإحدى يديه السمراوين الجَعْدَاوَيْن على المنضدة، وقال بخفة : سيداتى سادتى . إخوانى فى العرى . لقد استقر رأينا على أن نهجر عرينا حينًا من الوقت . ونعود إلى همجية الحياة المحافظة التى خلفناها وراءنا .

وهنا أسرعت أغلبية العراة إلى القُعُود على الأرض من فرط حماسها ، وأخذت تقرع أكوابها بسكاكينها ، مما اضطر « چونز » إلى السكوت حالما تخفت الجلبة ، ثم استطرد قائلا : فها هو ذا الربيع قد أطلَّ . وأظن أن شعراء العالم كله قد أجمعوا على أن الربيع هو أفضل فصول السنة كلها، وإن كنت شخصيا لا أجد أى فارق بين أحدها والآخر. على أيه حال لابد أن يكون فى هذا الفصل ما يميزه عن سواه .

فصاح الفيلسوف – الذى اتضح أن اسمه «هوراس سامسون» – قائلاً: سيد چونز ، أنا لا أتفق معك فى هذا الرأى . ففى الحق أن الربيع هو أكثر فصول السنة إمدادًا لنا بالأفكار الراقية وإيحاءً بأعمق المشاعر، كما أنه ليس بأفحش من فصل الصيف الذى هو بحق أقبح الفصول وأشدها تحريضًا على الفسق والرذيلة ، حتى فى بلاد الإسكيمو حيث يَقْصُر فصل الصيف ، فقد قيل لى إن شعب الإسكيمو تصدر عنه فى هذا الفصل حماقات شتى فى سبيل الحب تكاد تبلغ بهم حد الجنون .

فقامت شقراء هيفاء من الحاضرات قائلة : لو حدث أن عشقتُ رجلا من الإسكيمو لأصبْتُ حتمًا بالجنون .

فقال رجل نحيف : لكن فصل الصيف هناك جِدُّ قصير ، حتى إنهم قد لا يجدون من الوقت متسعًا يخلعون فيه فراء الشتاء !

فعقب سامسون : ولكنهم مع ذلك يخلعونه .

فتطوع أحد الحاضرين مفسرًا: ربما كانوا يبدءون فى نزع فرائهم قُبَيْلَ أفول فصل الشتاء .

فقال چونز : أما عن نفسى ، فأعترف بجهلى المطبق بالأسلوب الذى يتبعه الإسكيمو فى مثل هذه الشئون .

فقال پيتر معلقًا على تصريح چونز : أنت تدهشنى أيها الزعيم ، إذ يصعب علىَّ أن أصدق أن النساء من أى جنس أو أى مناخ قد حُرِمْنَ التعرف على مبادئك التحريرية التى تنادى بها خلال مهرجانات الحضارة .

فأجابه چونز : أنا لا يمكننى أن أوجَد فى كل مكان فى وقت واحد .

وهنا علا الاحمرار وجنتى يولندا ، وبدا عليها الارتباك والخجل قليلاً .

وتدخلت چو فى الحوار قائلة : إذا داهمت الشرطة بؤرتك ، كما أتوقع أن يحدث يومًا ما ، فيمكنك الفرار إلى ألاسكا حيث يُتاح لك نشر مبادئك الرفيعة بين قبائل الإسكيمو .

فأجابها الزعيم : لن أنسى لك هذه النصيحة الثمينة ، وأشكر لك اهتمامك .

فأجابته چو : لا داعى للشكر ، فلابد أن الفكرة كانت مختمرة فى ذهنك من قبل.

فقالت إحدى النساء المليحات من ذوات العيون السود : لقد كان الربيع دائمًا أشق فصول السنة بالنسبة لى ، فإنى لا أصيب نجاحًا خلال هذا الفصل دون أن أجيب كلَّ من يسألنى إلى طلبه !

فردت إحدى السيدات الجالسات أمامها: مَرَدُّ هذا إلى طبيعتك السخية يا عزيزتى، أما أنا فعلى العكس منك ، أشكو من فصل الصيف .

فصاح چونز : كفُّوا عن أحاديثكم التافهة ، إذ ليس هذا هو الوقت لمثل هذه الاعترافات العاطفية . وإذا لم تكن هناك أية اقتراحات فسأمضى فى حديثى .

فتمتم الفيلسوف سامسون : بكل تأكيد ، وإنى أعتذر عن البدء فى المناقشة .

فاستطرد چونز قائلاً : لقد لاحظت أخيراً ازدياد توتر الأعصاب وضيق الصدر بين أعضاء زمرتنا ، علاوة على اضطراب نسبة خرق القوانين واللوائح خرقًا صارخًا .

فصاحت سيدة فتية : نعم ، فما عدتُ استطيع تحمُّل ما هو أكثر من ذلك ، فهذا الرجل أيها السيد چونز يضيق على الحصار حتى ...

فقاطعها چونز بسرعة قائلا : أرجو عدم الإشارة هنا إلى حوادث معينة . فالتحرشات التى تقع بين الذكور والإناث فى هذه المستعمرة يمكن حلها بطريقة ودية ، وطبيعى أن يكون من بينكم عدد كبير يمكنه الاحتمال بضعة أشهر أخرى .

فرد أحد المسنِّين الحاضرين : بل إلى الأبد يا سيدى .

قال چونز : رائع ، وعلى ذلك أرى أنه من الأفضل أن أعلن بدء «موسم النسيان» لمدة أسبوع يبدأ من ليلة غد خلال العشاء ، وتنتهى بالنسبة لأولئك الذين سيحتملونه إلى النهاية بعد أسبوع كامل .

فتصاعدت الهتافات ، وبلغ التصفيق أشده ، باستثناء ذلك الكهل الذى التزم الصمت ، والذى اعترف بإمكانه الاستمرار بضعة أشهر أخرى .

واستأنف چونز حديثة قائلاً : إلى أولئك الذين لا يفقهون شيئًا عن هذا الموسم أسوق هذا الإيضاح : كل شىء مباح خلال هذا الموسم ، كل شىء إلا القتل ، ومن المسلَّم به أن الأزواج والزوجات لا يباح لهم طلب الطلاق بسبب سلوك أىٍّ منهم خلال هذا الموسم . كما لا يُسمح لأى عضو بالفرار من المستعمرة خلال هذا الأسبوع كنتيجة لما يجرى هنا ، بل إنى أؤمل أن يبذل الجميع العون المخلص ويعملوا ما بوسعهم حتى يكلل الموسم بالنجاح. فإذا قام كل واحد منا بواجبه وأطلق العنان لأفحش غرائزه ، فأغلب ظنى أنه لن يكتب لنا الإخفاق سيداتى وسادتى ، أشكركم .

ثم جلس چونز وسط التصفيق بضمير مطمئن بعد أن أدى واجبه ، وكان الرجال والنساء قد بدءوا بالفعل يتفاهمون .

قال القس «ولر» لبيتر بصوت خافت : سيدى العزيز الحقيقة أنه لم يسبق لى أن سمعتُ لَغْوًا كهذا. إن هذا المهَرِّج كان يتكلم وسط جمع من النفوس المنحطة وكأنه يخطب فى جمهور من المصلين أو فى قاعة محاضرات بإحدى الجامعات . وسواءً كنتُ مرتديًا سروالى أم غيرُ مُرْتَدٍ إياه ، وسواء صحبتمونني أم لم تصحبوني ، فقد قررت الفرار هذه الليلة ، لأني عزمت على أن أنفض حذائى من تراب هذا المكان الدَّنِس .

ولم يكن القس وحده هو الذى يُزْمِع الفرار ، فعندما التأم شمل تلك الجماعة الضالة بعد وقت قصير ، لحق بهم الفيلسوف الذى أعلن استياءه بصراحة وسألهم أن يضموه إلى زمرتهم ، وقال وهو يهز كتفيه الجميلتين :

– لقد انتهيت من كل أبحاثى هنا ، وما مهرجان النسيان هذا إلا تجربة عنيفة لا تحتملها أعصابى . وإذا كان البعض لا يزال يرغب فى التمتع بهذا الموسم ، فإنى زاهد فيه ، فبرغم أنى بطبعى رجل إباحى ، إلا أنى لا أستطيع أن أتحمل الفضيلة المطلقة ولا الرذيلة المطلقة . وأرى أن نتخلص من هذه المساخر قبل أن تودى بنا ، وأقترح أن نفر كما نحن عراة ، ثم نفكر بعد ذلك فى البحث عما نستتر به عورتنا .

فقال آرثر القصير : أرى أن أنتهز فرصة والقوم يمرحون بجوار الشاطئ أو وهم يتناولون عشاءهم ، فاستل بعض الملاءات وأخفيها بالغابة ، فما رأيكم ؟

فأجابه القس : مما يزيدنى ألمًا ويملؤنى أسى أن يتم إنقاذنا على يد نشال تائب .

وقال بيتر : إذا قُدِّرَ لى أن أستر جسمى بملاءة السرير ، فسيكون منظرى مدعاة للسخرية .

فردت چو: بلا شك، ولذا فسأثقب ملاءتى وأطل برأسى منها لأتمتع بمشاهدتك.

وقال القس : أما أنا فسوف أدثر النصف العلوى من جسمى بالملاءة لأن نصفى السفلى فى مأمن كما تعلمون .

وقالت أسـپيرين ليز موجهة حديثها نحو القس : إذا قُدِّرَ لنا أن نعود يوماً ما إلى المدينة ، فإنى أنصحك بأن تتبرع بما تبقى من سروالك هذا إلى إحدى المؤسسات الخيرية .

فغضب القس وصاح محتجا : أرجو يا سيدتى ألا تذكرى هذا الصنف من السراويل إلا مصحوباً بسمته «ماركته» الصحيحة ، فهذا السروال اسمه «سروال چيجرز» .

فقالت ليز : وماذا يهم فيما إذا كانت سمته چيجرز أم غيرها ؟ المهم أنك ترتديه فوق المكان الذى يرتدى معظم الرجال سراويلهم فوقه .

ودون الجماعة كلها ظلت يولندا ساكنة لا تتكلم ، فلم تكن تتصور كيف تتحمل الفضيحة التى ستجابهها مع هذا الجمع من المتهوِّرين الملتفين بملاءات الفراش عندما ينكشف أمرهم فى المدينة .

وفجأة قال هوراس : لا تنسوا ، إن موعدنا التاسعة فى الغابة . تعالوا فرادى أو اثنين اثنين .

وانفض شمل الجماعة ، وأمضوا بقية النهار دون أن يثيروا انتباه القوم . وما إن حل الظلام حتى كان آرثر يسحب جوال بطاطس قديماً فى اتجاه الغابة . ولم يكن الرائى يستطيع أن يدرك أن اللص القصير كان يتصبب عرقاً من جراء ذلك المجهود الذى يبذله لإخفاء نفسه .

كانت يولندا مختبئة بالغابة ، ومعها كلٌّ من پيتر وچو فى انتظار بقية الجماعة التى لم تكن قد وصلت بعد . وكانت يولندا شديدة القلق والحَيْرَة ، فإن روح المهرجانات الفاحشة التى على وشك الوقوع قد غمرتها ، وصارت تحس بحاجتها الملِحَّة إلى أحد هذه المهرجانات ، فهى طول حياتها لم تنسَ ترفيه نفسها فى أية مناسبة . إذن فلتجرب

النسيان ولو مرة واحدة وَلْتَرَ آثاره . غير أنها خشيت اطلاع زملائها على تلك الرغبة ، ثم ما لبثت أن فاضت بها الرغبة فى مهرجان النسيان . فاندفعت تقول بنبرات متهيجة :

- أعتقد يا بيتر أنه يمكنني مغادرة هذا المكان فى أى وقت أشاء ، ألا تظن أنه من الأصوب لى أن أعود أدراجى لستر انسحابكم إذا ما وقع ما لم يكن فى الحسبان ؟

فسألها قائلا : وهل ترغبين فى العودة ؟

فأومأت يولندا برأسها فى الظلام علامة الموافقة ، فقد كان من العسير عليها أن تعبِّر عن ذلك بلسانها. وحين ملكت زمام أمرها لتتكلم ، لم تَزِدْ عن قولها بصوت خلا من لهجة الأمر والنهى المأثورة عنها : إنه ينحدر من صلب أسرة عريقة يا بيتر .

فقال بيتر : وهل ترغبين فى زيادة عراقتها ؟

فردت يولندا قائلة : لا تكن سوقيا مبتذلاً يا بيتر .

فألقت جو بذراعها حول يولندا وقالت : وهل تهتمين كثيراً بالسيد جونز ؟

ترددت يولندا لحظة قبل أن تجيبها ، ثم استسلمت لذات الشعر الأحمر متمتمة : أنت خير من يقدِّر ذلك الشعور ويدركه يا جو، وأظن أنى.. أنى أهتم به كثيراً الآن .

فقالت جو على الفور : إذن فعودى إليه فى الحال ولا تترددى .

فضغطت يولندا على يد جو علامة الامتنان والعرفان بالجميل وقالت بصوت تتردد فيه أصداء الخجل :

- لم أشعر أن الحياة يمكن أن تكون بمثل هذا الجمال ، أستأذنك يابيتر وإلى اللقاء.

فجذبها بيتر نحوه وأمسكها من ذقنها ، ثم طبع قبلة على ثغرها وقال :

- لقد كانت خطوبة بديعة يا يولندا ، وإنى أراك فى مسيس الحاجة إلى تعويض ما فاتك ، فأتمنى لك حظا سعيداً وصيداً سميناً .

وبعد لحظة انفلتت خطيبتـه السـابقة تمَرُق بين الأشجار فى طريقها إلى چـونز و «موسم النسيان» .

ولما تم اجتماع شمل الجماعة ، باستثناء يولندا التى ظل غيابها غير ملحوظ بفضل لباقة بيتر وچو ، فقد توجهوا إلى طرف الغابة حتى صادفوا سوراً عالياً ، فوقف الأشباح الستة الملتحفون بالملاءات يتأملونه ، فسمعوا صوت طائر يرفرف بجناحيه على غصن إحدى الأشجار القريبة ، فصاح بيتر : يا إلهى ! إنها «هافلـوك إليس» تصاحبنا من جديد!

فرد هوراس وهو يتناول البطة بيده من فوق أغصان الشجرة : لن أدعها تعيش معنا طويلا ، فقد عقدتُ العزم على أن أدق عنقها .

فاختطفت چو البطة منه وقالت : لا . لن أسمح بإراقة الدماء . ساعدنى يا بيتر فى تخطى هذا السور وسأعتنى بإليس شخصيا .

ولما بلغت چو قمة السور سألها القس عمَّا إذا كان السور مسلحًا بشظايا الزجاج، أم بالأسلاك الشائكة، فقالت چـو: بل بالزجاج ، وسأحاول جهدى أن أعتليه فى خفة الريشة .

وهنا حملق آرثرالقصير نحو ليز وقال بلهجة يشوبها الرثاء : ياله من مأزق عسير لسيدة بدينة !

فردت ليز : إذا علق بعض الزجاج بجسمى فسأدعوك لتنشله .

فرد آرثر: أخشى أن تَتْلَفَ أصابعى قبل الإقدام على هذه العملية ، فقديماً كانت تنشل كل شىء ، ولكنى لا أظنها الآن قادرة على نشل مثل هذه الأشياء !

ومما زاد فى تعقد موقف أسبيرين ليز ، اضطرارها لاستخذام ملاءة كحائل بينها وبين شظايا الزجاج . وما لبثت الجماعة كلها أن تخطت السور ، ولو أن بعضها قد أصيب بالجروح والتمزيق .

قال القس: ما من شك فى أن سروالى قد تمزق. إنى لأشعر بالثقوب بوضوح .

قال سامسون : أتمنى ألا تحس بها .

فرد القس : لا تحاسب رجلا مسنا يا صديقى على فضوله ، فهذه السراويل قد خدمتنى طويلا .

كان الطريق الممتد أمامهم محفوفًا بالأشجار ، ولم يكن القمر قد بزغ بعد ، وكان الطريق مظلماً ، والبطة تصيح صياحًا غريبًا من حين لآخر وهى راقدة فوق ذراع چو اليسرى ، فقد رفضت چو التخلى عن البطة وآزرها پيتر .

قال الفيلسوف الفارع : أقترح أن نسرع قليلاً ، فأتباع السيد چونز كثيرون، فضلاً عن أنهم أشداء، وذوو أخلاق فظة ، ونحن معرضون فى أية لحظة لأن تقبض علينا شرذمة من هؤلاء الناس .

ومن ثم بدأت الجماعة تحث الخطى وراء الفيلسوف الذى كان يعمل دليلا لها ، والقس وأسپيرين فى المؤخرة، وإن كان القس يسبقها بقليل .

وكان يبدو على القس ولو أنه يعانى كثيراً من سرواله ، فعلى حين كان السروال يلح فى الانزلاق ، كان القس يصرُّ على رفعه ، الأمر الذى جعل المرأة البدينة تضيق ذراعًا بالحركات المستمرة التى كان يأتيها القس لرفع سرواله ، فلم تتمالك أن قالت فى النهاية : أرجوك أن تفعل شيئًا لذلك السروال . فإما أن تخلعه وإما أن تدعه يهوى ، فما عدت قادرة على تحمل هذا المنظر .

فأجابها قائلاً بغلظة: أبعد هذه المِحَن التى جازَها هذا السروال تظنين أنى أخلعه؟ لا وربك ، فسيظل مرفوعًا إلى النهاية . هذه هى إرادة الله .

واستطرد يقول وهو يجذب السروال جذبة قوية : أظن أنه لا يمكن أن يخطر ببالك أنى علىَ استعداد للتخلى عن سروالى بعد كل ما لاقى من أهوال .

فقالت ليز : يخيل إلىَّ أن السروال نفسه هو الذى يريد التخلى عنك ومفارقتك .

فرد القس مؤنبًا : سيدتى ، ألا ترين أننا فى مأزق حرج . وليس لدينا من الوقت ما يسمح بمناقشة ما إذا كنت أنا الذى يريد التخلى عن سرواله ، أم أن سروالى هو الذى يريد التخلى عنى ؟!

فتنهدت أسپيرين تنهدة حارة ، وواصلت طريقها وراء القس فى الظلام .

وفجأة ظهر ضوء سيارة تقترب ، وبلا تردد انحرف الفيلسوف عن الطريق وقاد أتباعه وراء إحدى لوحات الإعلان وقال : هذه أول مرة أرى فيها هذه اللوحات تسدى للناس خدمة ما ، إذ كنت أعتبرها على الدوام أبشع طرق الإعلان .

فعلق القس قائلاً : لو صادف أن كان راكبو هذه السيارة من زملائى رجال الكنيسة لأصبح الموقف حرجًا ، أحمد الله أن وقع ضوء السيارة على سروالى من زاوية جانبية .

تمتم پيتر قائلاً وهو يرفع يده: صه، فقد وقف ركاب السيارة ليستطلعوا الأمر.

فساد الصمت وراء لوحة الإعلان ، وتصاعدت أصوات على الطريق ميزت الجماعة منها صوت امرأة تقول : ولكن إذا وجدتَهم عراة حقا، فماذا أنت فاعل بهم ؟ لا أظنك تجسر فتدعوهم إلى الركوب معنا فى السيارة .

فرد عليها صوت صاحبها وهو يقول: بل سأدعوهم إلى الإياب نحو وكرهم . فى الحق أننى لا أدرى ماذا سيؤول إليه حال هذه البلاد إذا كان المرء لا يكاد يسير بعربته هنيهة حتى يلقى حفنة من العراة !

فزمجرت المرأة قائلة : كف عن ادعائك ولا تظن أنك تخدعنى بكلامك هذا ، فأنت تظهر لى أنك غاضب ، وأنت فى الواقع تبحث عن تلك الفتاة .

فقال الرجل : كفى هراء . لقد كانت شبه ملتحفة بملاءة بيضاء . وكل أصحابها على غرارها .

فردت المرأة ساخرة : أحقا أنها كانت شبه ملتحفة ؟ إذن فأنت متأكد أن بعض جسمها عارٍ !

ثم توارى الرجل وراء لوحة الإعلان ، وبعد فترة وجيزة ظهر وهو عارٍ إلا من حذائه وجوربه ، ولا غرو فقد كان الفيلسوف رجلاً سريعًا نشيطًا ، إذ نزع عن الرجل كل ما يستر جسمه بمساعدة القس ، ووزع الأسلاب على أصحابه . وكان نصيب بيتر من هذه الغنيمة قميصًا وصِدَارًا ، ونال الفيلسوف البنطلون الذى حاولت أسبيرين الدخول فيه دون جدوى ، وظفر آرثر بسروال .. أما جو فقد أخذت سترة الرجل ، وغنم القس ولر فانلة بلا كمَّيْن ارتداها بسرعة فوق نصفه العلوى ، ولكن - لسوء حظه - لم تكد الفانلة تتعدى ضلعه الخامس حتى تمزقت . فاغتم القس وقال : إذا كانت مشيئة الله أن نلقى رجلا آخر لننزع ثيابه ، فأدعو الله أن يسوق إلينا رجلا أكبر حجمًا .

فأجابه سامسون : لا بد أن هذا الرجل أضأل الرجال قاطبة ، فهذا البنطلون يأبى إلا أن يظل مفتوحًا من الأمام . ألا تلقى عليه نظرة أيها القس .

فقال القس : دعنى وشأنى، فلقد رأيت ما فيه الكفاية . وإن محاولات ليز المتكررة للولوج فيه قد فتنت لبى .

فقالت أسبيرين على الفور : إن حِجْر هذا البنطلون لا يكاد يتسع لفأر هزيل !

ولم يعد سائق العربة قادرًا على تحمل شىء فوق ما رآه ، فأزاح الملاءة التى تنازل سامسون قلفها حول رأسه واندفع عَدْوًا نحو سيارته ، حيث قوبل بصرخة مكتومة ، صاح بعدها قائلا : أعطنى بسرعة هذا الإزار الذى ترتدينه ، فقد نزعوا عنى كل شىء .

فقالت السيدة منفعلة : لا داعى لمثل هذ الأكاذيب ، وإنى أنذرك أنك إذا صعدت إلى هذه السيارة فسأغادرها فورًا .

فقال محتجا: ولكنى لا أستطيع الوقوف هكذا عاريًا وسط الطريق .

فجاءه الرد المقنع المعقول : وأنا كذلك لا أستطيع قيادة سيارة فى مثل هذا الطريق المطروق إلى جوار رجل عارٍ .

فقال الرجل العارى : ألسنا مخطوبين ؟

فردت عليه مؤكدة: أقسم أنى لن أُتَمِّمَ ذلك حتى لو طلب البابا نفسه عقد قراننا .

وللأسف: فإننا لا نعرف قط ما حدث بعد ذلك للرجل العارى وخطيبته، فلعله لا يزال واقفًا هناك يحاول إقناعها بقبوله فى السيارة على عُرْيِهِ ذاك المخزى . المهم أن أصحابنا الهاربين لم ينتظروا لينصتوا إلى هذه المناقشة ، بل اندفعوا نحو الطريق بسرعة فى أعقاب الفيلسوف .

قالت چو مخاطبة بيتر: إن الطريقة التى يتدلى بها قميصك كالناقوس أخاذة خلابة . لا شك أنك تقفز الآن على إيقاع هذا الناقوس .

فقال بيتر: يسرنى أن تجدى فى منظرى ما يسليك ويمتع ناظريْك ، ولكن لا تنسى أن النتوءات تبرز من أماكن متعددة فيك أيضًا يا حبيبتى .

وقالت أسبيرين ليز : أخشى ألا يكون هذا القميص قد أفادك كثيرًا أيها القس ، فحالتك لا تزال كما هى .

وقال آرثر القصير: ما رأيك فى هذا السروال الذى أرتديه يا ليز؟

فردت قائلة : إنه سروال رياضى . كيف أمكنك الدخول فيه ؟

وفى هذه اللحظة كانا قد لحقا بأصحابهما ، فوجدا چو وبيتر والفيلسوف منحنين فوق مؤخرة عربة من عربات النقل الفارغة ، فقفز بيتر إلى داخلها وساعد چو على اللحاق به . وأسرع القس ولر وآرثر وليز يقتفون أثرهما . وسرعان ما ابتلعهم الظلام جميعًا .

وبعد برهة خرج رجلان من الغابة المتاخمة وصعدا إلى مقدم العربة التى ما لبثت أن تحركت بهم . فهمس الفيلسوف قائلا : لقد منحتنا هذه العربة الفرصة لكى نستريح قليلاً .

فرد القس قائلاً : نحن فى مسيس الحاجة إلى الراحة ، خصوصاً إذا تصورنا ما ينتظرنا بعد أن يكتشف السائقان ما يكمن وراء ظهريهما .

فتمتم بيتر قائلا : أما أنا فلم يعد وراء ظهرى شىء ، فقد نسيت ملاءتى .

واستمر الحال على هذا النحو حوالى ربع الساعة وهم فى صمت مقيم . وفجأة مرقت بهم العربة من تحت بوابة عالية . ولشدة ذعرهم وجدوا أنفسهم فى شارع شديد الإضاءة ، وكان التحول شديداً ، حتى إن البطة نفسها استيقظت وشرعت فى الصياح .

قال الرجل الجالس إلى جانب السائق : ما بال نفيرك يا بيل ؟ يخيل إلىَّ أن صوته غريب هذه المرة .

فرد بيل : ليس هذا نفيرى ياصاحبى ، وإنما هو من غير شك نفير عربة أخرى وراءنا .

غير أن صياح البطة لم ينقطع ، بل ازداد عنفًا .. فصاح زميل بيل: لم أسمع فى حياتى قَط أنكر من صوت هذا النفير !

فقال بيل بعزم وإصرار: لأقفنَّ وأدقُّ عنق هذا المأفون الذى ينفخ نفيره ورائى !

ووقفت العربة ، ونزل منها الرجلان ، فلم يشاهدا أى أثر لعربة خلفهما، إلا أن صديق بيل أخذ يصغى بانتباه ، ثم همس بصوت خفيض: إن الصوت صادر من الداخل !

فأجابه بيل مذعوراً : من داخل ماذا ؟

- من داخلنا نحن .

فصاح بيل قائلا : ليس من داخلى أنا ، إذ لايمكننى إخراج مثل هذا الصوت حتى لو أنفقت جهد طاقتى .

فرد الآخر مصمماً : أعنى من داخل عربتنا .

فقال بيل : آه . إذن فمن السهل علينا اكتشاف ما هنالك .

واقتربا من مؤخرة العربية ، فأوْلَج بيل يده ، غير أنه لم يلبث أن صرخ قائلا وهو شبه مذعور :

– لقد أمسكت بساق .

فجاءه صوت أسپيرين ليز يقول : لقد أمسكت بساقى ياهذا ، ألا تخجل من نفسك ؟

فصاح الرجل الآخر : رباه ! إن العربة ملأى بالسيقان ، بل بقوم فى منتهى الغرابة !

فزمجر بيل – الذى كان فظا غليظ القلب – وقال : اخرجوا فوراً من هنا ، غادروا عربتى حالا وإلا استدعيت لكم الشرطة .

فرد بيتر متهكماً : إذا خرجنا فلن يستدعى الأمر أن تكلف نفسك مشقة البحث عن أحدهم ، فإننا سنجد أنفسنا تلقائيا محاطين بعشرات منهم .

فقال القس بصوت متهدِّج: هلم لنرحل فى سلام، ولنتكل على الله ، وليكن موضع ثقتنا .

فردت چو وهى تتبع الباقين نحو ضوء الشارع الوضاء : لقد تعلمت ألا أضع ثقتى من الآن فى بطة .

أما بيل وصاحبه فقد وقفا مشدوهين ، ولا غَرْوَ فقد كانت هذه الحادثة أغرب ما مر بهما فى حياتهما ، وبعد صمت طويل قال الرجل لبيل : أليس الأفضل استدعاء الشرطى ؟

فهز بيل رأسه وقال : لقد نطق ذلك الشاب العارى الذى لا يلبس سروالا بالحق ؛ إذ لن يلبثوا حتى يحاطوا بالشرطة دون الحاجة إلى تدخلنا .

وبينما كان هؤلاء الفارون يَعْدُون مذعورين وقد التصق بعضهم ببعض حتى صاروا كتله واحدة ، فقد انطلقت فى أعقابهم ثُلَّة من رجال الشرطة تطاردهم. وبالرغم من أن رجال الشرطة قد اعتادوا رؤية المناظر الغريبة غير المألوفة فى «كونى أيلاند»(*) إلا أن هذا المنظر بالذات قد أطار صوابهم. فانطلقت صفاراتهم ، وتوقفت جماهير المارة عن السير ، واختل نظام المرور ، وتصادمت سيارتان من فرط اهتمام سائقيهما بمشاهدة تلك المطاردة العابثة الفريدة !

شهق القس من الرعب وصاح : إنهم فى إثرنا .

فأجابته چو : هذا طبيعى ، وإنْ لم يحدث ذلك لدُهشت .

وصاح السيد هوراس قائلا بلهجة آمرة : اتجهوا من هنا ، وليقترب بعضكم من بعض ، لعلنا نجد مكانًا آمنًا نتوارى فيه .

غير أن هذا الاتجاه الذى أشار به لم يهيئ لهم ما كانوا يأملونه من اختفاء ، فقد كان حديقة للملاهى ، وبمجرد اندفاعهم إليها سقط عامل التذاكر على الأرض ، فداسوه بأقدامهم . وسرعان ما اختبأوا فى الحديقة وراء سور خشبى قصير .

قال السيد هوراس سامسون متألمًا وهو يجمع شتات نفسه : الواقع أنه لم يسبق لى قَطُّ الاستمتاع بمثل هذه الألعاب .

فرد القس وهو يئن : يالها من ألعاب ! ناشدتك الله أن تدلنى كيف يمكن للمرء التخلص مما نحن فيه ؟

فعلقت چو قائلة : أرى المنافذ قد سُدَّت علينا من كل صَوْب ، فكلما استدرتُ فى أى اتجاه أبغى الفرار، ارْتَدَدْتُ إلى مكانى إزاء تلك المقذوفات المتواصلة التى يمطرنا بها أولئك القوم الذين تبدو عليهم سيما الغبطة والمرح ، بل إن عدداً كبيراً منهم

(*) Cony Island جزيرة للملاهى يتوجه إليها العشاق يمضون فيها أمتع أوقاتهم .

يحملق فينا الآن وهو على أهبة الاستعداد لإصابتنا . هل رأى أحد منكم البطة ؟ ترى أين پيتر الآن ؟

ولم تكد چو تنتهى من سؤالها حتى امتدت نحوها ذراع طويلة يكسوها «كُمُّ» قميص بالٍ فجذبتها نحو الحفرة التى يختبئ فيها صاحبها .

فقالت چو ببرود : لقد كنت أسأل عنك توا . أين بطتنا ؟

فقال پيتر : لعلها تنقر شخصًا ما فى مكان ما . ألا تعلمين أننا فى أشهر حديقة ملاهى فى العالم كله ؟ وقد عرفتُ من لوحة المواعيد المعلقة أنها لم تفتح أبوابها رسميا بعد .

فقالت چو وهى تتلفَّت حولها : أخشى أن يكون حُلُولُنا فيها قد فتح أبوابها بالنسبة لقوة الشرطة التى تتعقبنا .. كما أعترف لك بأنى راغبة عن اللهو فيها ولا أجد فى موقفنا ما يسلى .

فنظر القس نحوها وملامح البؤس مرتسمة على وجهه ، ثم قال : أخشى أن يكون الرب قد رفع رحمته وحمايته عنا .

ثم استدار نحو پيتر وقال : ألا يمكنك مساعدتى ؟

وما إن بدأ پيتر فى جذب القس حتى كان الفيلسوف قد قفز خارجًا إذ فطن إلى ما يدبر حوله ، وأراد أن يكون عمليا فأقدم على تنفيذ خطته ، ولكنه لسوء حظه انحرف قليلاً فحملته سرعته المندفعة إلى سطحٍ مُسْتَوٍ يتكون من عدد لاحصر له من الأسطوانات الكبيرة التى تلف فى اتجاهات مضادة ، وقد تغلبت الدهشة الفائقة التى اعترته لحظةً على عقيدته الفلسفية فى القضاء والقدر ، فقد اندفعت قدماه عاليًا فى الهواء ووجد نفسه يدور فيما لا يقل عن خمسة اتجاهات مختلفة فى آن واحد . ولما كان القس ولر حريصًا على أن يتبع قائده وزعيمه دون تفكير ، وينهج نهجه دون وعى ، فقد وجد نفسه سريعًا فى الموقف ذاته ، مما جعله يتمتم بصلاة سريعة يعتريها استياء مرير ، وتضرَّع إلى العناية الربانية للأخذ بيده وإنقاذه .

صاح سامسون وكان جسمه ينـدفع رغمًا عنه فى اتجـاه القس : لا أجد هذه اللعبة مسلية كغيرها .

فقال الرجل الصالح : وكيف الخلاص منها إذن ؟

فرد سامسون قائلا: إنْ لم تقذفنا هذه «الصينية» خارجًا ، فسنظل ندور على هذا النحو حتى تغلق الحديقة أبوابها، أو حتى ينقضى الليل.. وربما حتى ينقضى الموسم !

ولم يسمع القس ولر نهاية هذا الحديث ، إذ إنه سمع ما يكفى لكى يزول من ذهنه كل شك فى أن اللّه قد اتخذ جانب الحياد بصدد مشكلته. وأغلق القس عينيه ، وما كاد يفتحهما مرة أخرى حتى رأى رجل الشرطة فى بزته الرسمية واقفًا فى نهاية «الصينية الدائرة» وبصره مثبت فوق نصفه السفلى يفحصه وأمارات العجب والدهشة بادية عليه . وقد فطن القس متأخرًا إلى أنه هو وسرواله الذى قاسى معه الكثير قد بلغا مفترق الطرق ، إذ شاهد عددًا من رجال الشرطة مجتمعين يراقبون الجسدين الدائرين عن كَثَب . وسمع أحدهم يقول : لقد شاهدتُ أعجب المناظر فى هذه الحديقة، ولكن هذا المنظر بحق هو أغربها كلها. إنهم جميعًا عراة ، ترى ماذا يصنع بهم القاضى واجر ؟

وبينا كان پيتر وچو يتشبثان «بقنطرة هـزازة» تتأرجح ألواحها بجنون ، فقد أسعدهما الحظ بمشاهدة آرثر القصير وهو ينزلق فى الفضاء هاويًا من عمود «الترولى الطائر» ، ولم يكن منظر هذا المخلوق التعس وقدماه مُشْرَعَتَان إلى أعلى ورأسه فى موضع قدميه منظرًا بهيجًا أو محتشمًا ، لاسيما أن سرواله المسروق قد انزلق حتى بلغ قدميه ، على حين أخذ رجلان من رجال الشرطة ضَخْمَيِ الجثة يسرعان خلفه ، أو بمعنى آخر : كانا ينتظران سقوطه بين أيديهما بين لحظة وأخرى ، ذلك السقوط الذى لم يكن ثمة مَفَرٌّ منه .

فقال پيتر : ما الذى يجعل آرثر يفضِّل ارتداء سرواله فوق قدميه ؟ ألا يؤثر ارتداء الأحذية ؟

فقالت چو : ألا تدرك أننا لا نحتل فراشًا من الورد والرياحين ؟! .. إن هناك أكثر من شرطى فى انتظارنا عند كلٍّ من طرفى « الجسر الثائر » .

فقال پيتر : إذن فقد أسقط فى أيدينا !

فجاءته كلمات چو متقطعة : لقد أسقط فى يدى منذ وقت طويل ، ولكن لا بأس ، فما زالت الحياة تدب فى أوصالى . ألا ترى أن الحياة إنْ هى إلا جهاز آلى يعمل تلقائيا دون تدخل ؟

فقال پيتر : أتمنى لو أنال قبلة فوق هذا « الجسر الهزاز » .

فقالت له : إذن فادْنُ منى حتى نستطيع التأرجح معًا؛ فإنى لا أحب أن تتفتت أسنانى إذا حدث أن اصطدمت بالأرض صدمة قوية .

فتحرك پيتر وأخذ خصر چو بين ذراعيه، وأفلح فى سحبها معه إلى قاع الجسر بسلام ، وعندئذٍ صاح پيتر : لقد وصلنا ياچو .

فتهللت قائلة : إذن هَلُمَّ وَقَبِّلْنى .

وتناولت وجهه بين يديها ، ثم طبعت على شفتيه قبلة طويلة حارة أودعَتْها هيامها ووجدها .

وهنا صاح أحد رجال الشرطة المحيطين بهما: ربَّاه ! ياله من منظر. إنهما يتطارحان الغرام وهما فى أشد المـآزِق حرجًا !

والغريب أن القانون وضع يده عليهما ، وهما ما زالا ملتصقينْ متشبث أحدهما بالآخر لا يريدان انفصالا!

وقد تَرَفَّقَ أحد رجال الشرطة بچو وطرح معطفه على جسدها ، فَرنَتْ إليه بنظرة اعتراف بالجميل مقرونة ببعض الإغراء ، فتأثر الرجل لحالها ولان لها قلبه ، ونهض پيتر بتثاقل ، وشرع يصلح ذيل قميصه فى أناقة .

ولم يلبث أحد رجال الشرطة أن صاح فى زملائه وهو يشير بأصبعه : بالله انظروا إلى هذا المشهد . فأطاعه الجميع .

وإذا بالفيلسوف والقس بعد أن أفلتا من قبضة الشرطة بمعجزة أتاحتها لهما «الصينية الدائرة» يحاولان جهدهما الفرار من يد العدالة . فأخذ الفيلسوف يقفز متسلقًا «سلمًا حلزونيا» شديد الارتفاع ، والقس متشبث بسرواله يعمل ما بوسعه ليلحق به . وفوق قمة الدَّرَج ظل القس وصاحبه واقفيْن باتزان . ثم ما لبثا أن قذفا بنفسيهما فوق «المُنْزَلَق» الذى حاد عن طريق أقدامهما بعد أن نَدَّتْ عنهما صرختان تشوبهما بحَّة مملوءتان باليأس المجرد من الخوف. وفى الحقيقة كانت القفزة قصيرة ، إلا أنها كانت خطيرة مؤثرة ، إذ سرعان ما التف حولهما عدد من رجال الشرطة وقفوا يحدقون فيهما بدهشة ، إلى أن قال أحدهم متهكِّمًا آخر الأمر : ما أحلاكما !.. إنكما تشبهان زوجًا من الطيور النادرة !

فأجاب القس وهو ينظر إلى ما يكسوه هو وصاحبه : بل قل زوجًا من الطيور الفِطْريَّة . هل أجد معك دبوسًا ياصاحبى ؟

وبينما رجال الشرطة يقودونهما ، قال الفيلسوف لصاحبه : أتعلم ياصديقى القس أنى كنتُ فى ذروة السعادة أثناء هذه المطاردة ، فأنا بطبعى أعشق هذه المغامرات !

قال القس : أما أنا فجِدُّ خائف . وأخشى أن يكون ما فعلناه هو آخر ما سنفعله بمحض إرادتنا .

وبينما هما فى الطريق إلى عربة الشرطة ، أنضم إليهما جو وبيتر ، وفى اللحظة نفسها اجتذب انتباه هذه الجماعة منظر أخَّاذ ، فقد جاء صوت أسبيرين ليز مستنجداً من برميل كان يتدحرج بسرعة فوق الطريق قائلاً : بربكم يارجال الأمن ، هل يتفضل أحدكم فيقبض علىَّ ؟

واستطردت تقول وهى تحاول الانفلات من البرميل : إنى أفضِّل أن أقضى بقية عمرى فى السجن على البقاء داخل هذا البرميل دقيقة واحدة !

فتقدم أحد رجال الشرطة من البرميل ، وبدأ يسحب السيدة البدينة للخارج نحو الأمان ، وكانت لاتزال محتفظة بالملاءة ، ولكنها لم تكن تؤدى الغرض منها لأنها كانت ملفوفة حول رأسها ، فأحضر رجال الشرطة معطفاً آخر طرحوه فوق كتفيْها .

وبينما رجال الشرطة محتشدون حول أسپيرين ليز ، إذا صوت مبحوح يصدر عن أحد صناديق القمامة ، فجرت چو مسرعة نحو الصندوق وتناولت البطة التى لم تكف عن الصياح وأخفتها بين طيات معطفها .

قالت چو وهى ترمق پيتر بابتسامة : إنها بطة رائعة ، أليس كذلك ياپيتر ؟

فأجابها قائلاً : لو أنها أبقَتْ على منقارها اللعين مغلقًا لما تورطنا فيما نحن فيه الآن .

فردت عليه قائلة : ولم لا تفترض أننا كنا سنتورط فيما هو أسوأ مما نحن فيه ؟ ولو أنى لا أتصور ما هو أسوأ مما نحن فيه .

وبين صفَّيْن طويليْن من الجماهير المحتشدة ، صعد الجَمْع إلى عربة الشرطة حيث وجدوا آرثر القصير منزويًا فى ركنها . وما إن رأى صحابه حتى الْتمعت عيناه وبدا الاطمئنان على مُحَيَّاه، فصاح بهم مرحِّبًا: يالها من ليلة! ألم تكن ليلة عجيبة حقا ؟

فوافقه القس قائلا : نعم ، لقد كانت ليلة عجيبة ، ولسوء حظنا يا آرثر أنْ ليس لها نهاية .

وقالت چو وهم جلوسٌ بالعربة : لَشَدَّ ما أتوق إلى الرجوع مرة أخرى وتكرار الرحلة كلها !

فردت ليز قائلة : أما أنا فأفضِّل المشنقة على أن أمنح ذلك البرميل فرصة أخرى لخنقى حيةً !

وهناَ تَدخَّلَ هوراس سامسون الذى لم يفرِّط فى سمعته كفيلسوف حتى النهاية وقال : على أية حال ، لقد وصلنا إلى نتيجة لابأس بها ، فنحن إذ نضع أنفسنا بين يدَىِ القانون إنما نأمن شر ذلك الرجل السفيه المدعو چونز وشعبه الماجن .

قال بيتر وهو يزحم بجسده جسد چو : يخيل إلىَّ كأننا فى «مهرجان الغموض المطبِق» !

فقال القس : نحمد اللّه على ما وصلنا إليه يابُنَىَّ حتى الآن ، فهذا المكان خير مما كنا فيه .

وبينما كانت العربة تتهادى خلال الطرق المؤدية إلى المَخْفَر ، أحست چو حول جسدها بيديْن أخرييْن غير يدى القانون تطوقانها ، فأطلقت شهقة رضاً وغبطة ، ولا غَرْوَ فهى بين أحضان من تعشقه وتهواه ، أما القانون وما يتبعه فهى لاتكترث له . وقالت لأحد رجال الشرطة الجالسين إلى جوار الباب .

– هل يمكننى تقبيل فتاىَ أيها الضابط ؟

فقال لها : لا بأس يافتاتى ، إذ لن يرى أحدُكما الآخرَ لمدة طويلة ، بل طويلة جدا .

وقالت أسپيرين ليز بحزن : آرثر ، فى الحق أنى أميل إليك كثيراً . كم أنا خَجْلَى من نفسى !

القاضى واجَر

كان القاضى واجر كثير الشكوى من الأرق. وكان لا يفكر فى المعتقلين الذين ارتبطت مصائرهم به إلا عندما يجافيه النوم. فقد كان مما يثير أعصابه ويزيد فى جفاء النوم لمآقيه أن يرى أولئك المجرمين يهنأون بنوم هادئ تحت أقبية سجنهم . وما كان يستطيع أن يتصور أن ينام الإجرام، فى حين تأرق العدالة وتظل محدِّقة طول الليل فى الظلام . فلابد إذن من إتيان شيء يجعل أولئك المجرمين يشاركونه أرقه، ويقاسمونه سهره الدائم. وعلى ذلك فلتكن جلســاته فى أثناء الليــل ، وعلــى هذا النحــو كان ، برغم شكوى المتهمين المتكررة من حرمانهم من النوم حتى تتم محاكمتهم .

وطبيعى أن يقال إن رجلاً مصاباً بمثل هذا الانحراف الذى يبلبل فكر القاضى، ليس هو الشخصية التى تصلح لتطبيق العدالة بين الناس، والتى توضع مصائر الآثمين والمجرمين منهم بين يديها ، ولكن مثل هذا الاعتراض سرعان ما يتلاشى ويزول إذا ما عرفنا أن القاضى إذا ما قرر إرسال شخص ما إلى السجن ، فإن الطريقة التى يتبعها فى سبيل ذلك تكون بلا أهمية بالنسبة للمتهم . وسواء نطق بالحكم وثغره يكشف عن ابتسامة عريضة أو وهو مقطب الجبين فثلاثة شهور بالسجن هى ثلاثة شهور بصرف النظر عن الطريقة التى حدد بها الحكم .

ومع ذلك فإن سلوك القاضى واجر وهو منكب على ملفات القضايا من فوق منصة القضاء لم يكن بالسلوك الفظ كما قد يتصور القارئ . هذا إلا أن قاضينا السوداوى التفكير كان لا يلقى بالا إلى الوقت الذى يقضيه هو ومن تحت رئاسته فى دار المحكمة. فطالما ضوء المصابيح الكهربائية يشع والناس تؤنسه وذهنه مشغول بالقضايا فهو على ما يرام، ولا غرو فالفرص المتاحة للمناقشة حينئذ شتى تثير ذهنه المكدود ، خاصة بعد أن يبعث بما لا يقل عن ستة متهمين إلى السجن حيث يهدأ باله وتنعس جفونه ، ويطمئن إلى النوم العميق .

وكان القاضى واجر رجلاً ضئيلاً نحيلاً تتوسط صلعته خصلة من الشعر الأسود الداكن وإذا تطلعت إلى عينيه السوداوين اللتين تتألقان داخل إطار من الأهداب الشهباء أيقنت أن هذا الرجل لابد أن يكون مخبولا .

ولما وقف أبطالنا العراة الفارون من مستعمرة العرى بين يديه لم يفطن إلى الوضع الشاذ الذى أتوا به أمامه ، لأنه كان منشغلا عنهم بدراسة بعض الوثائق . فلما رفع بصره ونظر إليهم لم يقدر فى أول الأمر فداحة المشهد ، إذ كان فكره لا يزال منشغلا بالموضوع الذى بين يديه ، وفجأة صاح بصوت متغير النبرات : ما هذا ؟ من هؤلاء ؟

وأخذت عيناه تتسعان وعلامات الغضب تظهر على وجهه ثم انفجر صائحًا بصوت يدل على فقدانه لأعصابه : من هؤلاء ، ومن الذى جاء بهذه الأشياء المنكرة أمامى ؟

فأجابه بعض رجال الشرطة بزهو وخيلاء : نحن الذين أتينا بهم . نحن جميعًا .

فاستطرد القاضى قائلا ورنين نبرات الجنون فى كلماته : آه . كنتم كلكم هناك . يبدو لى أنى سأحتاج إلى قوة أخرى من الشرطة غيركم، وسأفصل كل من يثبت عليه أن له ضلعًا فى عرض هذه المناظر القذرة أمامى .

ثم توقف برهة تصاعد فيها الدم إلى رأسه من شدة الغيظ ، وانفجر فى وجه أقرب رجال الشرطة إليه صائحًا : ولم فعلت هذا ؟ إن مجرد رؤيتهم على هذه الحال قد أطار النوم من عينى إلى الأبد . أتبغى القضاء علىَّ بعملك هذا ؟ هل وضعت خطتك لتحطيم صحتى وإطارة صوابى ؟ إنى أشتم رائحة التآمر هنا . لابد أن تكون أنت من فعل بهم هذا ، وقدمتهم لتعذبنى وتثير اشمئزازى .... اسكت ، لا تنطق بكلمة واحدة ، فسأكتشف كل شىء بنفسى .

ثم ألقى نظرة عابرة على سجنائه الستة ، وفجأة أشاح بيده وصوَّب أصبعه نحو بيتر قائلا: أنت أيها الرجل ذو القميص والصديرى، قل الحقيقة ولا تكذبنى. هل أعطاك رجال الشرطة هؤلاء شيئًا لتنزع ثيابك أم هددك أحدهم وأرغمك على ذلك ؟

فسأله بيتر : هل يجوز لى أن أكذب ؟

فأجابه القاضى : بالتأكيد لا يجوز لك الكذب ، هل كنت تنوى الكذب ؟

فاعترف بيتر قائلا : فى الحق أنى فكرت فى الكذب قليلاً .

فرد القاضى قائلا : آه . إذن كنت تنوى الكذب . لا يا صاحبى فعاقبة الكذب وخيمة ، ولا أعتقد أنك ستكذب بعد الآن .

فرد بيتر : الواقع أنى خائف جدا . ويخيل لى أن عقلى قد توقف عن التفكير .

فأجابته العدالة ذات الشعيرات الغبراء : أما عقلى أنا فقد ولى إلى غير عودة . تكلم يابنى وقل كيف حدث أن أصبحتم كلكم عراة .

قال بيتر : لقد فررنا كلنا عراة .

فصاح القاضى : ماذا تقول ؟ أى جريمة خلقية شنعاء اقترفتموها لتجعلك تفر أنت وزملاؤك على هذه الحال ؟

فتدخل أحد رجال الشرطة قائلا : لقد كانوا يلهون هكذا كما تراهم الآن فى إحدى حدائق الملاهى .

فصاحت الفتاة ذات الشعر الأحمر : كاذب يا سعادة القاضى . لقد كنا نقاسى الشدائد فى تلك الحديقة ، بل كنا على وشك أن نهلك فيها .

أخذ القاضى يدقق فى وجه چو برهة ثم قال بلهجة ملؤها الأدب وإن كانت تشوبها السخرية اللاذعة: عندما تغدو المناقشة عامة سندعوك إلى الاشتراك فيها ، بل لعلنا نتكلم ساعتها كلنا فى وقت واحد .

وفجأة أطبق فكيه ثم قال بحزم : ومن هذه اللحظة فصاعداً أطبقى فمك .

واستدار مرة أخرى نحو بيتر وقال : ومم كنتم تهربون ؟

فقال بيتر : من حفنة من العراة .

- ولكن كيف يهرب شخص فى مثل حالتك ، من آخرين فى حالة أسوأ مما أنت عليها . ودعنى أعترف أنى أرى الآن من فوق هذه المنصة أكثر مما كنت أتصور آن تقع عليه عيناى فى أى يوم من الأيام .

- لو أن سعادتك كنت عاريًا بالمثل ، ألا تفر من قوم من العراة يؤمنون بمبدأ اختلاط الجنسين ؟

ففكر القاضى برهة ثم قال : نعم كنت أفر حتمًا ولو زحفًا على بطنى ، كما أود أن أفر من أمامك الآن . أرجوك ألا توجه إلىَّ مثل هذه الأسئلة البذيئة بعد الآن . ولكن إذا كنت قد فررت حقا كما تدعى ، فما الذى دعاك أنت وأصحابك إلى التوقف للعب بحديقة الملاهى ؟

فقال پيتر شاعرًا بضعف دفاعه : لقد كنا نبحث عن مكان نلجأ إليه .

فقال القاضى وهو يكز على أسنانه : ولذا وقع اختياركم على أشد الحدائق فى العالم ازدحامًا بالناس لكى تخفوا فيها عريكم . اسمع أيها الشاب ، أرجو ألا تجيب على أسئلتى بعد الآن . وحتى إذا شرد ذهنى فى فترة ما ، وحدث أن وجهت إليك سؤالا ما فلا تجب عليه . إنى أريد الاحتفاظ بعقلى سليمًا برغم كل ما يحيط بى الآن . إنك بأقوالك هذه ستقضى علىَّ .

ثم سكت قليلاً واستعرض بنظره الجماعة كلها إلى أن استقر آخر الأمر على اللصِّ القصير فقال له :

- أنا لا أستسيغ مناقشتك ، ولكن أرانى مضطرا إلى التحدث مع أى مخلوق فحذار أن تكون عنيدًا. كما أرجو أن تفعل شيئًا بهذا السروال الذى ترتديه وأنا مضطر إلى النظر إليك .

وسرعان ما جذب آرثر طرف المعطف الذى كان يقف حائلا بين أسپيرين ليز والعراء التام ولفه حول سرواله . وكانت النتيجة التى لا مفر منها أن أصبح جزء كبير ، بل كبير جدا ، من جسد أسپيرين ليز عُريانًا . فأغمض القاضى عينيه وصار كمن

يوشك على الإغماء وصاح قائلاً : دعوه يعيده إلى محله . إن مخى يكاد ينفجر من هذا المشهد .

وما كاد المعطف يعود إلى قواعده ، وتناول القاضى جرعة من الماء يهدئ بها ثورة غضبه حتى استدار نحو اللص مرة أخرى وقال: لا تفعل ذلك مرة أخرى، حتى ولو على سبيل التسلية ، فإنى أشمئز من فعالك بكل جوارحى . والآن قل لى من تكون ؟

فقال اللص : أنا آرثر القصير .

فكتم القاضى دهشته ثم أعاد قائلاً : آثر القصير ! هل هذا الاسم الكامل لرجل تام النمو ؟ هل تريد أن تثير شفقتى بترديد حديث الأطفال ؟ تصور لو أنى قلت عن نفسى واجر القصير أو ألفرد القصير الذى هو اسمى الأول ، فهل يصادف ذلك هوى من نفسك ؟

فأجابه آرثر القصير : لا أبالى البتة .

فقال القاضى : قد لا يهمك أنت، ولكن فكِّر فى أصدقائى ومعارفى. هل يصادف ذلك هوى من نفوسهم ؟

فرد آرثر : لا أعرف أحداً من أصدقائك ياصاحب السعادة .

فتمتم القاضى قائلا : أجب عن السؤال . ما اسمك بالكامل ؟

فأجاب اللصُّ : آرثر القصير الربيعى .

فصاح القاضى مندهشًا : الربيعى ؟ ولم الربيعى ؟ هل هذا هو الفصل الذى ولدت فيه ؟

وتطلع بقية أعضاء الجماعة بفضول نحو زميلهم ، فلم يكن يخطر لهم على بال أن يكون لمثل هذا المخلوق اسم آخر ، خاصة مثل هذا الاسم الشاعرى .

فرد آرثر قائلا : لا يا صاحب السعادة فقد ولدت فى فصل الشتاء .

فقال القاضى مستفسراً : إذن بحق السماء لم نادتك أمك الربيعى ؟

وفى هذه اللحظة أحس السيد هوراس سامسون أن حكمته باتت مطلوبة كى يبدد هذا الارتباك فقال : لعل هذا الشحاذ القصير أيها القاضى ، يعنى أن ثمة أموراً حدثت وقت الربيع ، كان من شأنها أنه ولد فى الشتاء .

فقطب القاضى جبينه ثم نظر نحو الفيلسوف وقال : ماذا تعنى ؟ أية أمور ؟

قال سامسون : الأموراً العادية المألوفة .

فتمتمت العدالة قائلة : أوه . تقصد هذه الأمور ؟ يا إلهى ! إن عقلى على وشك الانفجار !

وهنا تطوع أرثر القصير يفسر ما غمض : خلاصة القول أن رجال المطافئ قد تركوا البيت دون أن تستطيع أمى تمييز أيهم ... برغم أنها كانت متأكدة أنه أحدهم .

فقال القاضى : وما علاقة رجال المطافئ بأمك ، وإلى أين توجهوا بعد أن تركوا بيتكم ؟

فأجاب أرثر حزيناً : لا علم لى بذلك ، فلم أكن قد ولدت بعد .

فأجابه القاضى : ليتك لم تولد على الإطلاق . هل تعنى من حديثك أنك ثمرة سفاح ؟

فأرخى أرثر القصير عينيه خجلا وقال : نعم ياصاحب السعادة . فقد كان أولئك الرجال يترددون بين وقت وآخر لقضاء لحظات سعيدة .

فقال القاضى : هذه أقذر قصة سمعتها فى حياتى . لم تسردها على مسامعى ؟

فقال اللص ببساطة : إنه أنت الذى سألنى عنها .

فأعلن القاضى قائلا : إذن فلن أسألك مرة أخرى، وإلا فسيصيبنى حتماً الجنون إذا أصغيت لكل هذا الهراء . لم يا إلهى لم أكن ...

فلم تمهله چو حتى يُنهى قوله وسألته : لم لم تكن ماذا ؟

فقال القاضى عفواً دون أن يفكر : لم لم أكن مجنونًا .

فسألته چو : مجنونًا بمن ؟

فأجابها : لست مجنونًا بأحد .

فاستطردت قائلة : ألست مجنونًا بآرثر القصير ؟

فانطلق صائحًا فى وجه الفتاة : كفى عن هذه الأسئلة . فإن مجرد رؤية آرثر القصير . تثير اشمئزازى . يا إلهى ! لقد فقدت أعصابى .

وبعد برهة وجه حديثه إلى رجال الشرطة قائلا :

- هل أجد مع أحدكم قرصًا من الأسبيرين ؟

فناوله أحد الكتبة أنبوبة الأسبيرين ، ولما حاول فتحها لم يفلح ، فقال يائسًا :

- إنى عاجز عن فتحها ، ولم يسبق لى أن نجحت فى فتحها . لم يصنعونها على هذا النحو ؟

فتطوعت ليز قائلة : دعنى أحاول فأنا أعرف كيف أفتحها .

فقال القاضى ذو الأعصاب المحطمة : إن هذا الصداع يتردد علىَّ فى أوقات مختلفة ، ولابد لى من ابتلاع قرص .

وفى يُسْر فتحت ليز الأنبوبة وأخذت منها قرصًا ثم ناولت الأنبوبة للقاضى الذى كان يرقب حركاتها . فدهش عندما رآها تضع القرص تحت لسانها وقال :

- ألا تبلعين القرص بالماء ؟

فقالت ليز : لا ، فأنا أفضله جافا تحت لسانى .

فزادت علامات الدهشة على وجه واجر وقال : لكنها طريقة مرهقة. هل يمكنك الكلام بسهولة دون تلعثم ؟

فقالت ليز : نعم، وسرعان ما تعتاد ذلك إذا جرَّبت هذه الطريقة.

فقال القاضى : لن أجربها الآن ، وربما أجربها فيما بعد .

قذف القاضى بالقرص داخل فمه وتناول كوباً أخرى من المـاء ، ثم رمق القس بنظرة ملؤها الاحتقار وقال : وأنت ، أبعد أن بلغت هذه السن التى تدرك فيها معنى سيرك بهذا الشكل ، سروال وفانلة فحسب ، وحتى السروال على وشك الهبوط أمامى ، ارفعه أيها الرجل .

فأطاعه القس ورفعه فى الحال ، ومن ثم استمر القاضى قائلا : هكذا أفضل ، وتذكر أنه إذا لم يكن يهمك ما تعرضه أنت من جسدك فأنا يهمنى جدا ما تقع عليه أنظارى ، ولا تنس أن حالتى العصبية شديدة التوتر ، فقل لى من تكون ، ولا تحاول أن تقول إنك فلان الصغير أو القصير ، فلم أعد أحتمل أكثر من ذلك .

فأجابه القس بصوته القوى المؤثر : اسمى ولر ، القس ولر .

فسأله القاضى : هل المقطع الأول من عبارتك اسماً أم وظيفة ؟

فأجاب القس بهدوء : بل هو الوظيفة التى أشغلها بالكنيسة .

وفى الحق أن القاضى واجر نفسه لم يدر كيف تغلب على الدوافع الغريبة التى تملكته فى هذه الآونة، ويكفى أن نقرر أن لون وجهه قد امتقع حتى صار أصفر باهتًا ، وأخذت حدقتاه فى الاتساع حتى قاربتا الوصول إلى شعيرات رأسه ، وأخيراً وبعد طول عناء تمكن من الكلام وقال : لا أصدقك ، لا أصدقك .. ولا تقل إنى لم أحذرك نتيجة هذا الكذب .

ثم استدار نحو سكرتيره وقال: عندما أنطق بالحكم على هذه الطغمة من الغوغاء، أرجو أن تذكرنى بأن أضيف عقوبة أخرى إلى عقوبة هذا الصعلوك لاجترائه على الاحتماء بالكنيسة .

ثم استقر بصره المجهد على ليز وقال لها : هل لك أن ترينى ما تخفينه داخل هذا المعطف الذى تلبسين ؟

فقالت ليز : لا وربك . كنت أظن دومًا أن العقلية القانونية دقيقة حكيمة ولم أكن أعلم أنها بذيئة بالمثل .

فقال واجر صارخًا : هل تنعتينني بالبذاءة ؟

فأجابت ليز : كنت أشير إلى العقلية القانونية ؟

فصاح القاضي قائلا : وإن عقليتي لكذلك ، فهي قانونية .

فردت ليز : وكذلك عقليتي. ألا يبيح لي القانون أن يكون لي عقل؟

- نعم ، غير أن هذا يتوقف على الطريقة التي تستغلين بها هذا العقل . ولكن كيف تطرقنا إلى المناقشة في مثل هذا الموضوع ؟

- لا أعرف .

- ولا أنا أعرف، الواقع أني في حيرة شديدة تجاه هذه المصادفات الغريبة كلها . والآن هل لك أن تخبريني ماذا تخفين داخل هذا المعطف إذا لم تفضلي أن أعرف بنفسي ؟

- إن كل ما أمتلك يكمُن داخل هذا المعطف .

- وما هذا الذي تمتلكين ؟

- وماذا تتوقع . أتتوقع أن ترى ريشًا أم قشر سمك ؟

- ماذا تقصدين بقولك ريشًا أم قشر سمك ؟

فتنهدت ليز يائسة وقالت وهي ترفع بصرها نحو السماء : ربَّاه ! إذن فلتر كل شيء بنفسك .

ومن ثم فتحت أزرار معطفها في الحال ، وبعد أن ألقى القاضي نظرة واحدة أطلق صرخة تعبر عن الفزع ، وانكب منهارًا فوق منصته ، واستمر الارتباك بضع لحظات في صحن المحكمة . كان واجر مشغولاً عنها بنفسه .

وأخيراً رفع وجهه الشاحب ، وحملق نحو ليز بقسوة ثم قال : ما هذا الفعل المنكر الذى أتيته ؟ لقد أسأت إلى إساءة بالغة .

قالت ليز : إنه أنت من أرغمنى على ذلك .

فصاح معترفًا: ربما ، ولكنى لم أكن أظن أن تبلغ البدانة بامرأة مثل ما بلغت بك، وأرجو ألا يسوءك هذا التعبير .

– كلا على الإطلاق ، ولا تدهش إذا أخبرتك أنى كنت يومًا ذات قوام فتان جذاب .

فتدخل هوراس سامسون قائلا : هل هذه محاكمة أم ندوة شعبية ؟

فأجابة القاضى : ألا يمكنك أن تمسك لسانك قليلا ؟

واستدار القاضى نحو چو قائلا :

– الآن دعينى أوجه إليك بعض الأسئلة . ولنبدأ بالسؤال الأول . كيف أصبحت على هذه الصورة التى أنت عليها الآن ؟

– تبدأ القصة هكذا يا صاحب السعادة : كان الضباب كثيفًا و ...

فقاطعها القاضى : أى ضباب هذا ؟

فظهرت الحيرة على وجه چو وقالت : ماذا تقصد بسؤالك عن الضباب ؟ فليس فى الإمكان وصف الضباب أو الاحتفاظ بنماذج منه .

– أين كان هذا الضباب ، ومتى حدث ؟

– كان فى كل مكان ، أما تاريخ حدوثه فلا أذكره .

– إذن قولى ما يحلو لك ، فلن أصدق كلمة واحدة مما تقولين .

– وكان هناك جمع من العراة ياصاحب السعادة ...

- وها هى ذى نماذج منهم أمامى .

- وقد نزع أولئك العراة ملابسنا كلها ...

فقال القاضى وهو لا يعنى بإجابتها : وأين كان الضباب حينذاك ؟

- لم يعد هناك ضباب بعد ذلك .

- إذن لم أقحمت الضباب فى بدء قصتك ؟ هل تحاولين تسليتى باختلاق قصة خليعة أيتها الفتاة ؟

فاحتجت چو قائلة : ليست خليعة بالقدر الذى تتصوره . وأقسم بشرف سعادتكم أنها لم تحتو إلا على نصيب ضئيل جدا من الخلاعة .

وفجأة جحظت عينا القاضى ، وأخذ فى الانحناء من فوق منصته ، ثم ثبت عينيه المحمرتين فوق الجزء الأوسط من معطف چو وسألها بصوت متهدج : لم تفعلين ذلك ؟

- أفعل ماذا ؟

- لابد أنك تعرفين ما تفعلينه .

- لا ، لست أعرف .

- إذن لم لا يكف معطفك عن هذه الحركة ؟ إنى مصمم على معرفة السبب .

وما كادت چو تلقى ببصرها نحو وسطها ، حتى بدت على ملامحها النشوة والسرور فقد رأت بطنها تتضخم فجأة، وإذ كانت بطبعها متسرعة وتصل للنتائج قفزاً، اتجهت ببصرها نحو پيتر مؤنبة وقالت : پيتر ، لابد لنا أن نسرع بالزواج . فإن هيئتى تحتم الإسراع .

فراح يؤكد لها : لا يا چو . أنت مخطئة فلا بد أن معدتك مجهدة شيئاً ما .

قال القاضى بصوت خفيض كمن يهمس : إنه معطفك . إن المعطف يبرز ثم يتراجع فجأة . أتفعلين هذه الحركة ببطنك يا آنسة ؟

فأجابت چو على الفور : لا ياسيدى . أعنى ، أعنى نعم .

فصاح فيها القاضى : إذن لا تفعلى ذلك ثانية .

فلكمت چو هافلوك إليس لكمة قوية ، اضطرت معها البطة أن تجاوبها بصيحة لا تقل عنها قوة وإن كانت أشد إزعاجًا ، فانتفض القاضى دهشة ثم أخذ يحدق ببصره باحثًا بين المتهمين الواقفين أمامه وصاح قائلا: من الذى أطلق هـذا الصوت الوقح ؟ إن هذا الصوت يحمل كل معانى الاحتقار لهيئة المحكمة . انطقوا، تكلموا .

قام الفيلسوف الطويل الوقور يقول : إنى أوافق سعادة القاضى على أن هذا الصوت يدل على الوقاحة والاستهتار ، ولكنى أؤكد لسيدى القاضى أننى لا أجسر على إتيانه حتى لو أمكننى ذلك ، كما أنى أشك كثيرًا أن فى استطاعتى إتيانه .

فقال القاضى : إذن من تسبب فى هذا الصوت الشاذ ؟ أريد أن أعرف .

وفى هذه اللحظة تكرر الصوت واندفعت بطن چو للخارج بعنف . وكانت عينا واجر يقظة منتبهة ، فنهض واقفًا من فوق مقعده وصاح : آه ، ها هو ذا الصوت يعود مرة أخرى .

ثم غرق فى مقعده ومسح جبينه ثانيًا وقال : أيتها الفتاة ، هل تتعمدين هز بطنك من أجلى ؟

فقالت چو بعد أن يئست من إمكان تهدئة إليس الثائرة الصاخبة : لا أتعمد ذلك طبعًا ، فبطنى مسئولة عن نفسها ، وليس لى يد فى التحكم فيها أو السيطرة عليها .

فراح القاضى يؤكد لها قائلا : أما أنا فسأفقد التحكم فى بطنى إذا استمرت بطنك على هذه الحال . إن قرص الأسبيرين لم يفدنى ، إنى ...

وأخذ صوته يتهدّج تدريجيا وهو جالس فوق مقعده ثم صاح فجأة وهو يشير نحو بطن چوزفين : إذن بالله ما هذا ؟

تطلعت چو نحو بطنها كما تطلع كل من حولها ، وأخذ الخوف والفزع الناس كلهم حتى رجال الشرطة وموظفى المحكمة عندما أطل من المعطف قرب بطن چوزفين رأس طويلة حمراء كالثعبان ، أخذت تدقق فى وجه القاضى واجر بعينين صفراوين ملؤهما الخبث . ولا لوم عليهم ، فإن أشجع الشجعان قد ترتعد فرائصه من أى حادث أقل من هذا غرابة .

فما كان من چو إلا أن دفعت بيدها الخالية رأس البطة نحو المعطف ، وامتلأ الجو ضجيجاً وصياحاً ، إذ بدأت إليس تحتج بأسوأ لغة تعلمتها .

وأخيراً قالت چو وهى فى شدة الارتباك : هذه هى حقيبة يدى .

فزمجر القاضى الثائر وقال: آه حقيبة يدك ! يبدو أنها حقيبة صغيرة متواضعة !! وهل فى استطاعة حقيبة يد أن توجه مثل هذا السباب ، وبمثل هذه اللغة الغريبة ؟ وهل تستطيع حقيبة اليد أن تحملق فى وجه شخص ما بعينين صفراوين كأنها صنعت فى الجحيم ؟ وهل لحقيبة اليد منقار طويل يستطيع أن يخنق الناس ؟

فقالت چو : نعم ياسيدى فهى حقيبة حديثة مبتكرة تثير الدهشة . ولكى أضع فيها ضرورياتى كالنقود السائلة وأصبع أحمر الشفاه وكل تلك الأشياء ، لابد أن أفتح منقارها .

- هل تعنين أنك تفتحين هذا المنقار ؟

فأجابت چو وهى تهز كتفها : ولم لا ؟

- أما أنا فلا أقدم على ذلك، حتى ولو عينت قاضياً بالمحكمة العليا . اسمعى أيتها الفتاة ، أنا لا أصدق قصة هذه الحقيبة ، فإن ما رأيته كان كائنًا حيا دائم الحركة وذا صوت عنيف ، فهل أفهم من حديثك أنك لسوء الحظ مخلوق شاذ التكوين ؟ يخيل إلىَّ أن تلك الرأس جزء منك .

- لا يا سيدى بل أؤكد لك أن كلامنا مستقل عن الآخر تمام الاستقلال .

وفى هذه اللحظة نفسها شاءت هافلوك إليس إثبات صحة ما قالته چو ودقته ، فبحركة عنيفة وبخفقتين من جناحيها ، انطلقت مندفعة من تحت معطف چو ، واستقرت فوق منصة القاضى بعد أن أطلقت صيحة الحرية . غير أن صيحتها لم تبلغ من الحدة صيحة القاضى التى انطلقت من حنجرته بعد أن تخلى عن وقاره وهيبة منصبه ، وبعد أن وجد الأمان كل الأمان تحت مقعده . ولم تقنع إليس بهذا بل هجمت بمنقارها على مؤخرة القاضى الذى أمعن فى الفرار بصورة لم يكن يتوقعها أحد . وبعد أن أدت هذه المهمة التى تعبِّر عن مدى امتهانها للجو الذى وجدت فيه توسطت منصة القاضى واستقرت فوقها مرة أخرى لا تحرك ساكنًا .

وصاح القاضى من بعيد : لقد عضتنى وأخشى أن أكون قد تسممت ! ترى ماذا هى فاعلة بعد ذلك ؟

فجاء رد چو الهادئ : ربما تبيض . لقد فعلت ما بدالها فيما عدا هذا .

فقال الرجل : هل تعنين أن تعاند هذه البطة فتبيض فوق منصة قاضى المدينة ؟

– طبعًا لم يحدث لها ذلك من قبل ، ولكنها بطة عنيدة إذا ما عقدت عزمها على أن تضع بيضها ، فلا يداخلنى الشك لحظة واحدة فى أنها قد تبيضها فوق منصة المحافظ نفسه .

– رباه ! ياله من أسلوب ذلك الذى تتكلم به هذه الفتاة! والآن ماذا نحن فاعلون ؟ أنا لن أقترب من هذه البطة .

وفجأة طرأ على ذهنه احتمال جديد مخيف فصاح قائلا : أغلقوا الأبواب كلها ولا تدعوا الصحفيين يخرجون ، فإنى أخشى إذا ما تطرقت هذه القصة إلى الصحف ألا نخلُص من عواقبها ، وأكاد أرى العناوين منذ الآن «بطة تضع بيضة فوق منصة القاضى واجر» .

ثم نظر نحو رجال الشرطة وقال : أما أنتم أيها الرجال فإنى أعدكم خيرًا وأصفح عن فعلكم إذا ما قذفتم بهذه البطة خارجًا .

فصاحت چو وهى تجـذب البطة من فـوق المنصة : هذه بطتى . لقد قاسينا طويلاً أنا والبطة ، وأعلنك من الآن بأنها إذا وضعت بيضة فستكون البيضة لى أيضًا .

فصاح القاضى: إذن فخذى كليهما . هل تظنين أنى أطمع فيهما . آه ، لو أستطيع أن أخبرك بما يجب أن تفعليه بهذه البطة اللعينة .

- إذن فأنت تطلب الكثير يا صاحب السعادة .

وفى هذه اللحظـة اقـترب أحد الصحفيين من القـاضى هامسًا فى أذنه حديثًا سريعًا . وشيئًا فشيئًا أخذ وجه القاضى يضىء ويتألق ثم قال للصحفى : إذن فلن تنشر شيئًا عن هذه البطة ؟

فوعده الصحفى قائلا : ولا كلمة . بل سأمضى فى سرد القصة الأصلية .

فسأله القاضى : وكيف أمكنك الوصول إلى هذه الحقيقة ؟

قال الصحفى : المسألة فى غاية البساطة ، فإذا كـان هذا السيد ذو السروال هو القس ولر فمن البديهى أن يكون هؤلاء القـوم الملتفين حوله هم الذين تركو المعدية خلال الضباب .

فقال القاضى : ليتهم ضلوا طريقهم فى البحر إلى الأبد ولم يعثر عليهم أبدًا .

واستمر الصحفى قائلا : لقد ميزت بيترڤان دايك بالرغم من منظره غير المألوف .

فتدخل بيتر قائلا : إن حاولت أن تخلق حولنا قصة مثيرة فسأدعو جمهرة من الصحفيين وأروى لهم قصة البطة ، وما كـان القاضى يريد أن تفعـل هـذه الفتاة بتلك البطة .

فصاح القاضى : أنا لم أعلن رغبتى بل كنت أتمناها فحسب .

فقال بيتر : إذن سأعلن أمنيتك للعالم كله .

فقال القاضى مستعطفًا : لا ، لا ، أرجوك ألا تفعل ذلك أيها السيد ڤان دايك ، وسيكون هذا الصحفى لطيفًا معك فكن لطيفًا بالمثل .

والواقع أن القاضى لم يعد قادراً على الاحتفاظ بجلاله ووقاره بعد ما حدث منه فالتفت نحو القس وقال بصوت رقيــق مهذب : هل أنت القس ولر ؟

– لقد أكدت لك ذلك من قبل .

– وهل أنت قسيس فى الكنيسة العليا ؟

– نعم يا سيدى .

فرد القاضى بصوت هادئ متزن تختلط به الرقة والليونة : إذن فلا بد وأن أكون قد ارتكبت خطأ طفيفًا ، وآمل ألا يسوءك أن أطلب منك أن تأخذ عصابتك العارية وتغادر قاعة هذه المحكمة فوراً .

ثم غرق فى مقعده وأغلق عينيه برهة ثم سأل بعد لحظة : هل ذهبوا ؟

فأجابة أحد رجال الشرطة : نعم يا سيدى .

فتمتم القاضى : أحمد اللّه .

وبالفعل كانت الجماعة نصف العارية قد غادرت القاعة ، وركبوا إحدى سيارات الأجرة بصحبة الصحفى متجهين نحو فندق «البدر» . وبينما هم يبتعدون عن دار المحكمة ، كانت ثمة سيارة فاخرة أنيقة تتبعهم عن بُعد ، وأطل الفيلسوف خلال النافذة وأخذ يرقب برج الفندق الجميل الذى كانوا يقصدونه ، والذى كان متوجًا بنموذج كامل للسفينة المغامرة التى أخذ الفندق منها اسمه . وكانت النوافذ تطل على البحر من ذلك النموذج الخلاب الضارب إلى زرقة السماء .

فتمتم سامسون قائلاً : ياله من فندق جميل على شاطئ البحر . أظن أننا سنمضى فيه وقتًا طيبًا ، ولابد أن يكون «هندريك هدسون»(*) قد استمتع كثيراً بهذا المكان . فتحدث آرثر القصير من مقعدة الذى كان فى حقيقة الأمر «أرضية» سيارة الأجرة :

(*) مكتشف هذا المكان الذى سُمى على اسمه كل من خليج ونهر الهدسون .

- وما الذى أتاه هذا الرجل ؟

فقالت جو : هو أول من غامر بدخول هذا النهر بمركبه .

فقال اللص يائسًا : أتعنين أنه كان مجرد ربان معدية؟ كفى باللّه ، فلم أعد أستلطف حديث الربابنة .

وأضاف بيتر مزهوا : كان هولنديا .

فقالت جو : لو كنت مكانك لالتزمت الصمت ، فليس فى ذلك ما يستدعى الفخر .

وما كادوا يصلون الفندق حتى قادهم الصحفى إلى البوابة الفخمة، حيث استقبلهم مدير الفندق الذى لم يملك نفسه من الدهشة عندما رأى منظر زبائنه الجدد برغم تنبيه الصحفى له عن حالتهم تليفونيا .

قال بيتر : نريد بضع حجرات .

فأجابه المدير وهو يبتسم ابتسامة لها مغزاها : بل تريدون ما هو أكثر من ذلك . وإذا صادف أن قابلتم أحد نزلاء الفندق فى البهو فأرجو ألا تغضبوا إذا ما قلت لكم بصوت عال «هل استمتعتم بالحفلة التنكرية؟» .

فأجابه القس : قل ما تشاء بعد أن تسرع بقيادتنا نحو غرفنا . هل أجد معك دبوسًا ؟

ولم يكن مع المدير دبوس ما ، ولكنه بحث عن دبوس تقبله القس شاكرًا ، وأخذ يعالج به سرواله . وفى هذه اللحظة انفتح باب المصعد الكهربائى وخرج منه عدد من الركاب ما أن وقعت أبصارهم على مشهد هذه الجماعة حتى ارتدوا راجعين نحو المصعد .

وصاح المدير متصنعًا بصوت عال : هل استمتعتم بالحفلة التنكرية ؟

فرد آرثر القصير : لا يا صديقى فقد كانت حفلة سيئة .

فزمجر الفيلسوف قائلا : اخرس أيها اللص الوضيع .

وكانت النتيجة الحتمية لهذا الموقف الغريب أن هرع الركاب خارجين ، على حين هرع العراة نحو المصعد . أما الفتاة الجميلة الخمرية اللون المسئولة عن المصعد فلم تعد بعد مسئولة عنه ، بل أطلقت صرخة مذعورة ، وأدارت ظهرها للعراة .

فقال المدير : لقد نسيت أن أنبهها ، فلا بد أن تكون قد ظنتكم بعض الأشباح .

فقالت أسبيرين : إنى لأشعر بالفعل كأننى شبح .

فرد المدير قائلا : ما أبعد الفرق بينك وبين الأشباح !!

وفى هذه اللحظة ، لاح شخص يرتدى ملابس سائقى السيارات الفاخرة الأنيقة وهو يُسرع نحو الجماعة قبل أن يصعد بها المصعد . وعندما لحق بها ناول بيتر لفافة ضخمة ثم قال : إن السيد چونز يبلغكم سلامه وتهانيه ويتمنى أن تكونوا قد تمتعتم بأطيب الأوقات فى المحكمة ، كما يتمنى أن ترتدوا هذه الثياب بأسرع ما يمكن ، ويخطركم أنه سيأتى بالآنسة يولندا بنفسه لأنه يود مقابلة أبويها ، وإن كان يرجو أن تحيطوا كل هذه الخطوات بالكتمان .

وبعد أن فرغ من حديثة انحنى منصرفًا ، ففتح بيتر اللفافة ، وصاح آرثر القصير وراء السائق : يمكنك أن تخبر السيد چونز أنى إذا صادفته يومًا ما وله «جيوب» فسأنتقم منه بلا رحمة .

فقال له بيتر والمصعد يصعد بهم بعد أن أفاقت العاملة مما أصابها :

– لقد ضاعت منك الفرصة يا صاحبى ، لأن هذا السائق لم يكن غير السيد چونز نفسه .

وداعًا أيها السروال

وقف القس ولر وسط غرفته بفندق «البدر» عاريًا إلاَّ من منْشفة حول خصره منتظرًا خادم الفندق . وعلى مبعدة منه وفوق فراشه ، كان رداؤه الطاهر مُلقى بعد أن أعاده إليه السيد چونز ، ذلك الرجل الوفى برغم ما يقترفه من آثام وفجور . وفى الحق أن القس لم يكن يحقد البتة على السيد چونز ، فكما أن لهذا الرجل عيوبه ، فله أيضًا مزاياه .

وقبل أن يختفى جسد القس داخل ردائه التقليدى الذى يستطيع به الاختلاط من جديد مع أبناء مهنته ، شعر فى أعماق قلبه بدافع قوى ورغبة شديدة فى امتلاك سروال جديد من نوع سرواله الشهير . وتذكَّر أن السروال الآخر كان قد تركه فى حقيبته التى خلَّفها بالمعدية . أما السروال الذى كان يرتديه فقد أدَّى مُهمَّته خير أداء حتى بلى . ومع ذلك فإن القس ولُر لم يزدر هذا السروال المهجور بل على العكس كان ينظر إليه وكأنه تراثُ دينى يستحق الاحتفاظ به وعَرْضه فى إحدى الكنائس ، ولم يكن يرى بأسًا من تدوين إحدى العبارات اللائقة لشرح الدَّور الذى أدَّاه هذا السروال ، كأن يقال مثلا «السروال الذى تحدَّى به القس ولُر مستعمرة كاملة للعراة» ولا عجب فإن وجود مثل هذا السروال بإحدى الكنائس لا شك يستدعى بعض التفسير .

ودق الباب ، فصاح القس : تفضل بالدخول .

ويعلم اللَّه أنه لم يكن لينطق بمثل هذه الدعوة لو كان لا يزال فى موقفه الذى كان يمر به منذ عشرة أيام .

قال الخادم : هل من خدمة أقوم بها يا سيِّدى ؟

فأجابه القس وهو يضع السروال فوق ذراع الخادم المبسوطة : نعم فثمة خدمة عظيمة يمكنك أن تُسديها إلىَّ . أرجو أن تشترى لى مثل هذا السروال .

فرفع الخادم حاجبيْه ورَمق السَّروال المتدلِّى فوق ذراعه بنظرة لم تَرُقْ فى عينى القس وقال : أفى مثل هذه الساعة من الليل ياسيدى ! ؟ أظن أنه من العسير شراء مثل هذا الـ...

فرد القس : تقصد مثل هذا السروال البديع .

– تمامًا ، ولكنى أظــن أنه يمكننى تحقيق مطلبـك ياسيدى إذ أعرف متـجـرًا يبيـع كل شىء تقريبًا ، حتى أثناء الليل . وأنا واثــق أنى لابد سأجد أمثــال هذه الأشياء .

فقال القس : شكرًا وإن كنت لا أرتاح إلى تعبيرك الأخير .

وبعد نصف ساعة رجع الخادم ومعه صندوق ملفوف بعناية فتحه القس بِشَوْقٍ وتناول ما بداخله . وأخرج الخادم السروال القديم من صندوق آخر عليه دلائل البِلَى والتمزيق مما يؤكد أن تقدير التاجر لهذا السروال كان دون تقدير الخادم له. ومع ذلك ، وبرغم أن القس لم تفتْه هذه الملاحظة ، فإنه جعلها تمرُّ بسلام .

وقف الخادم حاملا السروال القديم ، بينما القَس يحمل الجديد ، وراحا يُوازنان بين القديم والجديد . وأخيرًا صاح القس بلهجة الظافر المنتصر :

– إنهما متشابهان تمامًا ، حتى العُرَى التى ترقد فيها الأزرار . جُهد رائع يا صاحبى ، إنه صورة طبق الأصل من سَلَفه ، وحتى عُرى الأزرار متماثلة . ولا تؤاخذنى فى قولى عُرَى الأزرار ، إذ كان الأجدر أن أقول الأزرار . لولا أن السروال القديم ليس له أزرار البتة ، يا إلهى ! لا شك أن منظرى كان مرعبًا !!

أما أسپيرين ليز وآرثر القصير فقد انزلقا داخل سرواليْهما بكل خفة ونشاط . وما إن استقرَّ بآرثر المقام داخل سرواله حتى أقسم برأس القديس الذى يتبرَّك به النشَّالُون الصَّالحُون أنه لن يخلعه مرة أخرى ، ولن يتطلع إلى سروال أحدٍ غيره . وتناول عشاءه مع ليز فى قاعة الطعام بالفندق على نغمات الموسيقى الصَّادحة .

وإلى هذه الأنغام ، بالإضافة إلى ما يعرفُه آرثر القصير من يقظة زميلتهِ ودقَّتها ، يعود الفضل فى أنه استطاع كبح جماح شَهْوته ، فترك الأدوات الفضية حيث هى دون أن يَمسَّها .

وكان عشاء تلك الليلة أفضل عشاء استقر فى جوفه منذ وَلَدتْه أمه . وبعد أن استمعا معًا إلى الموسيقى العَذْبة أخذا يخطُوان فى الممشى المجاور لمجرد رغبتهما فى إقناع نفسيْهما بأنهما يسيران مستوريْن وسط الجمهور .

وما لبثت أسپيرين ليز أن تملَّكتها رغبة فى إيذاء آرثر القصير ، فجلست فوق عربة صغيرة متينة الصنع من تلك العربات التى تسير بالتبديل كالدَّراجات والتى كان يكْثُر استعمالها فى ذلك الوقت ، وأخذت تطارد آرثر – وكان يجلس فى عربة أخرى مماثلة – فى ساحة مغلقة الجوانب يرعاها حارس يابانى عليه سيما الرِّفق والتَّساهل . وكانت تندفع نحو زميلها بعربتها الصغيرة ، والليل الساكن يردِّدُ صدَى ضحكاتها الصاخبة .

وكانت هذه الضحكات تُحرِّك شعوراً وحشيا كامنًا فى نفس أسپيرين ليز يدفعها إلى تحطيم آرثر القزم وكَسْر كل عظمة من عظام جَسَده الواهن .

فيصيُح فيها آرثر : إن المعركة غير عادلة لا تكافؤ فيها ، فأنت تحملين الكثير من الدُّهن .

فتقول ليز بضعف والدموع تجرى فوق خدَّيْها من فرط سرورها :

– إن اللَّذة التى أجدها فى هذه المطاردة يا عزيزى ، لا أستشعرها حتى فى مراقبة حوض مملوء بالأسماك الملونة .

ثم شنت هجومًا آخر على آرثر القصير بعربتها وكأنها ستَدمِّره تدميرًا . وفجأة ، ارتفع صوت ارتطام شديد تراجَع على أثره رأس فريستها للوراء وانقلبت عربته فوق الأرض ، وأخذت ضحكات ليز الصاخبة تثير نظارة جُددًا فى الممشى المجاور.

وقد صرَّح الحارس الياباني بأنه لم ير في حياته قط ما هو أغرب من ذلك المشهد، ثم خطَر لأسبيرين أن تُزْحمَ أرض السَّاحة كلها وتغطيها بجسدها البدين ومَرَحِها المتدفِّق وحيويتها الدائبة . فقلبت عربتها بنفسها ، ومن ثم تمدَّدت فوق الأرض وهي لا تكفُّ عن الضحك ، وقد أخذ المشاهدون يرمقونها باستغراب مقرون بالاحترام على حين ظل آرثر القصير ينظر إليها كئيباً آسفاً .

ولندع الآن كُلا من أسبيرين ليز وآرثر القزم ، ولنَطْو صفحتهما إلى الأبد ، وهما في عربتيهما يتصادمان ، ويراوغان ، ويتشاتمان .

* * *

في ركن هادئ منعزل من بهو الفندق المملوء بالمقاعد المريحة الفاخرة والأرائك الأنيقة جلس ذلك الفيلسوف العبقري السيد هُوارس سامسون إلى جوار الصحفي. ويبدو أن سامسون كان واقعاً تحت تأثير إحدى نوباته الفلسفية ، ولا عجب فقد كان يفكر ويتساءل ويتخيَّل ما قد يؤول إليه أمر نزلاء الفندق فيما لو فقدُوا سراويلهم فجأة ، وبطبيعة الحال فيما يتلُو ذلك من أمور .

وكان يحاولُ أن يتخيَّل ماسيفعله كل أولئك الرجال وماستأتيه كل هاتِه السيدات . فهذه السيدة العجوز مثلا التي تضعُ حول عنقها لفائف لا حصر لها من اللآلئ قد لا تتحمل الصَّدمة وتقضي نحبَها . أما أولئك الفتيات فلا شك أنهن ، بعد لحظة قصيرة من الدهشة ، سيعتدن الوَضع الجديد كما يعتاد البط النزول في الماء ، ثم استدار إلى الصحفي الجالس إلى جواره وسأله قائلاً : ما رأيك في السراويل ؟

فأجابه قائلا : الواقع أني أُعيرُها أقلَّ التفاتي دون بقية ثيابي ، حتى دون قميصي الداخلي .

فاستطرد الفيلسوف قائلا : ومع ذلك فأنت إذا خُيِّرت بينهما فستختار السروال بلا شك .

- بالطبع . فالقميص الداخلى يحفظ المرء دافئًا ، أما السروال فيحفظ كرامته . كما أن الرجل يبدو أقل إثارة للضحك والسُّخرية وهو فى سروال فقط عما إذا كان مرتديًا قميصًا فحسب .

ففكر الفيلسوف مليا ثم قال : لست مقتنعًا تمامًا بقَوْلك هذا ، فبعض السراويل تبدو مثيرة للضحك إذا ما ارتُديت وحدَها . خُذْ مثلا سروال ذلك القس الصالح ، إنه يدفعنى بالرغم منى إلى الضحك .

فقال الصحفى بعد برهة : قُلْ لى أيها السيد سامسون ، بعد التجربة الطويلة التى خُضْتها ، ما هو رأيك فى مستعمرة العراة التى هربت منها ؟

- لست من المعجبين بهذا المبدأ ، ولكنى مؤمن بأن محاولة الإنسان التغلب على جسدة وقهره ما هى إلا محاولة فاشلة . وقبل أن يحاول المرء بلوغ أيَّة مرتبة من مراتب السَّكينة الروحيَّة لابد أولا أن يُطلق العنان لجسده ويترك له الحبل على غاربه ، فالنتيجة واحدة سواء كان المرء يكتسى الهواء أو الفِراء ، إذ ليس ثمة فارق بين الحالتين .

- وما رأيك من الناحية الصحية ؟

- هراء ، فالفائدة المكتسبة من العُرى المختلط تتلاشى أمام الانفعالات والهياج العقلى الذى يحتاجه هذا العرى . فالنساء والرجال الذين يجرون وراء ذلك للوصول إلى درجة النقاء والطهر إنما يحاولون اقتناص شىء لا وجود له . وإذا فُرض أن ظفروا ببغيتهم فستراهم نادمين آسفين . النقاء يا صديقى إن هو إلا فرار المرء من التزاماته نحو جسده ونحو أجساد الغير الأشد جاذبية .

ثم استدار الفيلسوف مُصْغيًا إلى المذياع وقد تغيَّر وجهه . وفى الحق كان المذياع فخمًا بديعًا وقد وقَف إلى جواره فتى ذو شعر رمادى تشبَّث به تشبُّث الغريق بالخشب، فاستأنف سامسون حديثة قائلا : ما هذا الصوت المريض الصادر عن هذه الآلة؟

فأجابه الصحفى : إنه صوت أحد المطربين الذين يحظون بتعلُّق الجمهور المتلهف على سماعهم .

فسكتَ الفيلسوف لحظة ، ثم لم يملك أن قال : ها أنت ذا ترَى المشقَّة التى يجدُها شخص له مثل آرائى فى العَيْش منسجمًا مع الناس . فأنا أرى هذا الصوت شائنًا للبشرية مُحَطِّمًا للروح المعنوية ، وأكثر إفسادًا للنشء من الخمر المعتَّقة والنساء الخليعات .

وبعد أن نفَض غليونه وألقى بساقه الطويلة فوق المقعد قال : إن مثل هذا الرَّقيع الذى يصدر عنه هذا الصوت غير جدير بارتداء سروال رَجُل ، بل يليقُ به سروال امرأة .

* * *

كان القمر يسطع فوق فندق «البَدْر» كذلك مياه المحيط الممتدة إلى الطرف الآخر من العالم .

وكان برج الفندق الذى شُكِّل على هيئة السفينة يتألق شامخًا فوق المَمْشى ويلوحُ من البحر على بعد. وفى أعلى مكان فوق البرج كان پيتر وچو واقفين يستمتعان بضوئه. ولأول مرَّة ، بعد مدة طويلة ، كانا يرتديان ثيابهما ، وإن كان خلعُها مرة أخرى قاب قوسيْن أو أدنى .

قال پيتر : هل أنت مُصرَّة على الاحتفاظ بغرفة منفصلة لنفسك إلى ما لا نهاية ؟ فلم تعرْ چُو سؤاله التفاتًا لأنها كانت متأكِّدة أنه لا يُبيت أمرًا .

ثم قالت : لكم أتمنَّى لو يعقدِ القس قِراننا وهو بسرواله .

فسألها مستفسرًا : ونحن ، ماذا نرتدى ؟

– كما وَلَدَتْنا أمُّنا .

– إنى أُحبذ عقد الزيجات على هذا النحو الجديد فهو يوفِّر على الزوجين الكثير من الوقت .

– أخشى أن يكون هذا مما يُهَوِّن من الرغبة فى الزواج إذا ما خلع العروسان ثوبيهما أولا .

– كلا ، فُربَّ وجه جميل يُغْنى عن جسد فتَّان ... ثم لا تنسىْ يا چو أن الجسد له مكانته هو الآخر .

– لن أنْسَى ذلك يا حبيبى .

– إذن فسيعقُد القَسُّ قراننا غدًا . وسيكون آرثر وأسپيرين ليز هما أحط المدعُوِّين قَدرًا ، وبهذه المناسبة قد عزمتُ على أن أدبرً لهما عملا لدى . وأخيرًا ... ستكونين عن قريب زوجة لها مشاغلها يا چو .

فقالت چو بحزن : ولن أكون بعد خليلتَك. لشد ما أنا آسفة على ذلك. إنه مما يلذُّ لى أن أكون فاجرة .

وخلَّفت چو النافذة ودَلَفت نحو حجرتها الملاصقة لحجرة پيتر ، ولكنها كانت قد أحكمَت إغلاق الباب الفاصل بينهما منذ وصولهما . وإذ لم يكن پيتر راغبًا فى إزعاج أحد من زبائن الفندق ، لذا استدعى آرثر القزم وأمره أن يعالج قفل الباب ويفتحه فى سكون .

فاحتج اللص قائلا : إن هذا العمل أبشع ما اقترفت يداى ، ولشد ما أنا خجل من نفسى ، بل صدِّقنى إذا قُلْتُ لك إنى أشعر الآن كأنى واحد من تجار الرقيق الأبيض . ولكن ورقة من فئة العشر دولارات كانت كافية لتجعله ينسَى هذا الشعور البغيض . وقبل أن يغادر الغرفة كان قد أقنع ضميره الوضيع بأنه مُصْلحُ اجتماعى داهية ، وتمتم قائلا وهو يدُسُّ النقود فى جيبه :

– أظن هذه الوسيلة أفضل ، فقد وفَّرت عليك تسلُّق الجدران ؛ وبذلك يتيسَّر لنزلاء الفندق النوم بهدوء ، كما يمكنكما الاحتفاظ بسرِّ عاركُما فيما بينكما .

نادت چو من الحجرة الملاصقة : أتراك معجباً بجسدى ياپيتر ؟

فأجابها پيتر : بالتأكيد ، فهو جسد رائع خلاَّب .

- إذن فسأشير عليك بما ينبغى عليك أن تفعله ، اخْلَع ثيابك ، وسأنزع ثيابى بالمثل ، ثم نحاول أن نعرف أيُنا نال فى جسده من الجروح أكثر من الآخر. ولأصارحك القول وأعترف بأنى نِلْتُ منها الكثير فى أثناء تلك المطاردة فى الحديقة .

- وأنا مِثْلُك، بل تكاد جروحى أن تكون متلاصقة. ولكن... كيف حال إليس؟

- لقد ذهبت لتنام فى «البانيو» فهى كما تعلم تستشعر السعادة كلما رقَدَتْ فيه .

- لو أن سامسون معنا الآن لأصَرَّ على أن يعرف كيف يمكن أن نستشعر البطة السعادة كغيرها من المخلوقات .

- أحمد الله على غيابه . تُرى هل إليس هى أول بطة تنام فى «البانيو» بفندق «البدر» ؟

فقال پيتر وهو يخلع حذاءه : لا أظن أننا سنتمكن من الإجابة الصحيحة عن هذا السوال .

وبعد برهة كانت چوزفين وپيتر يُوازنان بين الجروح التى أصيب بها جسد كل منهما خلال تلك المُطاردة فى الحديقة . وفى الحق أنهما كانا فى لَهوهما وعَبَثهما هذا أشبه بالأطفال .... ولكنه ليس شبهًا كبيرًا على أيَّة حال .

المؤلف فى سطور :

ثورن سميث

- كاتب أمريكى وُلِدَ سنة ٢٧ مارس ١٨٩٢، وتُوفى سنة ٢١ يونيو ١٩٢٤ .
- اشتهر بالروايات الخيالية، ومن أشهر أعماله سلسلة روايات "Topper"، والتى حققت نجاحًا كبيرًا عند نشرها فى ١٩٢٦ .

المترجم فى سطور :

ثروت عكاشة

- ولد فى القاهرة عام ١٩٢١ .

المؤهلات العلمية :

- تخرج فى الكلية الحربية (١٩٣٩)، وفى كلية أركان الحرب (١٩٤٨).
- دكتوراه فى الآداب من جامعة السوربون فى فرنسا (١٩٥١).
- دبلوم الصحافة من كلية الآداب، جامعة القاهرة (١٩٦٠).

أهم الوظائف التى تقلدها :

- ملحق عسكرى فى السفارة المصرية فى بون ثم باريس ومدريد (١٩٥٣-١٩٥٦).
- سفير مصر فى روما (١٩٥٧-١٩٥٨).
- وزير الثقافة والإرشاد القومى (١٩٥٨-١٩٦٢).
- رئيس المجلس الأعلى للفنون والآداب (١٩٦٢)، (١٩٦٦-١٩٧٠).
- رئيس إدارة البنك الأهلى المصرى (١٩٦٢-١٩٦٦).
- عضو مجلس الأمة (١٩٦٤-١٩٦٦).
- نائب رئيس الوزراء ووزير الثقافة (١٩٦٦-١٩٧٠).
- مساعد رئيس الجمهورية للشئون الثقافية (١٩٧٠-١٩٧٢).
- أستاذ زائر بالكوليج دى فرانس (١٩٧٣).

١ - نشاطه الإبداعى :

- موسوعة تاريخ الفن: (العين تسمع والأذن ترى).
- الفن المصرى: العمارة (١٩٧١).
- الفن المصرى: النحت والتصوير (١٩٧٢).
- الفن المصرى القديم: الفن السكندرى والقبطى (١٩٧٦).
- الفن العراقى القديم (١٩٧٤).
- التصوير الإسلامى الدينى والعربى (١٩٧٨).
- التصوير الإسلامى الفارسى والتركى (١٩٨٣).
- الفن الإغريقى (١٩٨١).
- الفن الفارسى القديم (١٩٨٩).
- فنون عصر النهضة: الرنيسانس والباروك والركوكو (١٩٨٨).
- الفن الرومانى (١٩٩١).
- الفن البيزنطى (١٩٩٢).
- فنون العصور الوسطى (١٩٩٢).
- التصوير المغولى الإسلامى فى الهند (١٩٩٥).
- الزمن ونشيد النغم: من نشيد أبوللو إلى تورانجاليلا (١٩٨٠).
- القيم الجمالية فى العمارة الإسلامية (١٩٨١).
- الإغريق بين الأسطورة والإبداع (١٩٧٨).
- ميكلانجو (١٩٨٠).
- فن الواسطى من خلال مقامات الحريرى (١٩٩٩).

ترجماته :

ترجم الدكتور ثروت عكاشة كتبًا كثيرة نذكر منها:

- أعمال للشاعر أوفيد.
- أعمال لجبران خليل جبران.
- المسرح المصرى القديم، لإتيين دريوتون (١٩٦٧).
- مولع بفاجنر، لبرناردشو (١٩٦٥).
- العودة إلى الإيمان، لهنرى نك (١٩٥٠).
- السيد آدم، لبان فرانك (١٩٤٨).
- سروال القس، لثورن سميث (١٩٥٢).
- الحرب الميكانيكية، للجنرال فولر (١٩٤٢).

مؤلفات ودراسات:

- مولع حذر بفاجنر (١٩٧٥).
- إنسان العصر يتوج رمسيس (١٩٧١).
- إعصار من الشرق أو جنكيزخان (١٩٥٢).
- مصر فى عيون الغرباء (١٩٨٤).
- مذكراتى فى السياسة والثقافة (١٩٨٨).
- سلسلة محاضرات ألقيت بالكوليج دى فرانس عام ١٩٧٣ .

هذا بالإضافة إلى بعض المؤلفات ومجموعة من الأبحاث بالفرنسية والإنجليزية.

أهم الإنجازات الثقافية والحضارية :

- مشروع إنقاذ آثار النوبة ومعبد أبى سمبل ومعبد فيلة.
- معـــاهد: الباليــه، والكونسرفتـــوار، والسينمـــا، والنقـــد الفنى، ثم ضمت هذه المعاهد فى أكاديمية الفنون.
- دار الكتب والوثائق الجديدة.
- قصور الثقافة.
- فريق باليه أوبرا القاهرة.
- عروض الصوت والضوء فى الأهرام، والقلعة، والكرنك، ومتحف مراكب الشمس.

الجوائز والأوسمة :

- الجائزة الأولى فى مسابقة القوات المسلحة (١٩٥٠).
- وسام الفنون والآداب الفرنسى (١٩٦٨).
- وسام لوجيون دونير (جوقة الشرق) الفرنسى بدرجة كاموندور (١٩٦٨).
- الميدالية الفضية لليونيسكو تتويجًا لإنقاذ معبد أبى سمبل وآثار النوبة (١٩٦٨).
- الميدالية الذهبية لليونيسكو لجهوده من أجل إنقاذ معبد فيلة وآثار النوبة (١٩٦٨).
- جائزة الدولة التقديرية فى الفنون من المجلس الأعلى للثقافة (١٩٨٧).
- دكتوراه فخرية فى العلوم الإنسانية من الجامعة الأمريكية فى القـاهرة (١٩٩٥).
- جائزة مبارك فى الفنون من المجلس الأعلى للثقافة (٢٠٠٢).
- جائزة العويس للإنجاز الثقافى والعلمى (٢٠٠٥).

التصحيح اللغوى : رجب الصاوى
الإشراف الفنى : حسن كامل